مـــا بـــعـــد

تصوّرات نسوية بيئيّة

ورشة المعارف
THE KNOWLEDGE WORKSHOP

فريق التحرير: ديمة قائدبيه
صفاء ط.
زينب ديراني

تدقيق المراجع: ريتا التنوري

ترجمة: ايلينا مهنا
مايا العمّار
رانيا الساحلي
سيلفانا الخوري

فريق المراجعة: سمر خليل
سينتيا عيسى
كاتي خطّار
زينة الحلبي
جنى حيدر
فيفيان عقيقي

تدقيق لغوي: رامي قطّار
ريتا التنوري

تصميم: إبتسام ديب

حقوق النشر محفوظة - ورشة المعارف ٢٠٢٢

https://www.alwarsha.org
تمت الطباعة في المطبعة العربية، بيروت

إن الفكر والآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعكس بالضرورة نظرة وآراء ورشة المعارف.

هذه الاصدارة مموّلة من المساعدات الشعبية النروجية وماما كاش وصندوق المساواة.
إن محتوى هذه الاصدارة يعبّر عن آراء المؤلفات ولا يمثّل بالضرورة آراء المساعدات الشعبية النروجية وماما كاش وصندوق المساواة.
The content of this publication is the responsibility of the authors and does not necessarily reflect the positions of the Norwegian People's Aid, or Mama Cash, or Equality Fund.

ISBN 978-9953-0-5732-3

فهرس

٤ **مقدّمة-حوار**
فريق التحرير

١٤ **ما بين المبيض والنظام الغذائيّ**
زينب ديراني

٢٦ **إلى الطفلة داخلي**
لين عون

٣٠ **"باركينغ" في لبنان:**
الثنائيات الكاذبة والتجارب في التشاركية
إليزابيت صالح

٤٦ **أرشيفٌ من الأشباح**
ريم جودي

٥٨ **نـوستالجيا المُرجأ**
الطبيعة والنساء في روايتَي
"برتقال مُرّ" و"مريم الحكايا"
مهاد حيدر

٧٠ **بـدنـا نـعيش**
تجارب المزارعات الفلسطينيات
لمى أبو خروب

٨٨ **حرمان النّساء من حقّهنّ بـالإرث**
هند يونس

٩٨ **المريمية تحكي قصّتها**
بحث: أماني ضاهر | كتابة: فريق التحرير

١٠٤ **في ظلّ البو صفيرة**
رنا علّوش

١٠٨ **في ذكرى نـهر كان يـنبض بـالحياة**
تحليل نسوي لتلوث نهر الليطاني
أسمى الحجل

١٣٨ **ما تبقّى من بيروت**
صفاء ط

١٤٦ **في الرّابعة، انتهَت!**
ريتا باروتا

١٥٠ **رحلات نسويّة-بيئيّة**
ريما الخطيب

١٦٠ **الحبر البرّي**
إبتسام ديب

١٦٤ **في حُبّ ما لا نرى**
ديمة قائدبيه

١٧٦ **وصلة**
إشراف فني: كارن كيروز

مقدّمة-حوار

فريق التحرير

اليوم، في ٢٦ كانون الثاني ٢٠٢٢، نُجري كفريق تحرير هذا الحوار بهدف وضع مقدّمة تؤطّر عملنا على كتاب "ما تبقّى: تصورات نسوية بيئية"، حيث نسترجع الأسباب التي شجّعتنا على الغوص في هذا الموضوع. نستغلّ هذه الفرصة للعودة مجدّدًا إلى المفاهيم والأسئلة التي وجّهت عملنا، بعدما شارفنا إنهاء العمل على الكتاب. نتوقّف مرّة أخرى كفريق عند مفهوم "النسوية البيئية"، وما يعني لنا على المُستويَين السياسي والشخصي، وكيفيّة تشكُّله في هذا الكتاب، وتبيان أهميته في سياقنا الحاضر. نشارك بعضنا-ونشارككنَّ- ماذا تعلّمنا خلال الأشهر الماضية، وما أكثر ما أثَّر فينا خلال فترة انغماسنا في هذا المشروع، وكيف انعكس الوضع الراهن في لبنان والعالم على هذا الكتاب ونصوصه، وعلى تعاملنا مع المواضيع المطروحة.

ونبدأ بالنقاش: لِمَ هذا الكتاب، ولماذا الآن؟

ديمة قائدبيه

أستطيع أن أبدأ بالقول إنَّ العمل على موضوع البيئة والإيكولوجيا والنسوية البيئية، كان رغبة عندي منذ فترة ليست بقصيرة، وأصبحت تنمو مع الوقت، وفي السنوات الماضية كانت في بعض الأحيان تأخذ منحى يتناسب مع عمل ورشة المعارف، ولذلك طرحت هذا الموضوع للكتاب. كنّا قد عملنا في ورشة المعارف على التاريخ الشفوي للنساء في الحركة البيئية في ٢٠١٧–٢٠١٨. وازداد اقتناعي بأنَّ تقاطُع الحركات والأطر النسوية والبيئية يشكّل مساحة مثمرة للتفكير في العديد من القضايا المهمة، من الصحة، وأجسادنا، والاقتصاد، والبيئة التي تختفي من حولنا.

لمّا نشرنا الدعوة إلى تقديم النصوص، أوضحنا أنَّ تلاقي الحركتين النسوية والبيئية لا يعني التركيز على قصص النساء مثلما جرت العادة بل يشمل تجاربهن ويفهم قصصهن. وأردنا التطرُّق إلى هذا الموضوع على مستويَين أو طبقتين متداخلَين: على مستوى الأنظمة، وعلى المستوى الشخصي.

ففي هذا الكتاب، ننظر إلى تشابُك الأنظمة الأبوية والاقتصادية والسياسية وكيف تغذّي بعضها: "تخلق هذه الأنظمة علاقات اجتماعية تعظّم من العسكرة والذكورية العنيفة وربحيّة الأفراد والشركات، فيما تقلّل من قيمة العلاقات القائمة على الرعاية والتبادل، وترفض المعارف المتوارثة عن الأرض

كمصدر رزق، وتقمع كلّ أشكال الحدس والروحانية".[١] على هذا المستوى، يفسح تلاقي الفكرين النسوي والإيكولوجي المجال لبروز مواضيع مثل حق الجميع في تنفّس هواء وشرب ماء غير مشبّعَين بالسموم، وحق الوصول إلى الشاطئ والمساحات العامة؛ يفتح آفاقًا لسؤال النساء الأكبر عمرًا عن وصفات ترتكز إلى فصول السنة والمحاصيل، وعن فوائد النبات وما تقدّمه من شفاء، وعن أساليب الزرع؛ يسمح هذا التّلاقي بالتطرُّق إلى مواضيع العنصرية البيئية والسياحة البيئية والاقتصاد القائم على الاستغلال وعلى استخراج كلّ ما تنتجه الأرض بجشع، ولكنه في الوقت ذاته يفتح المجال للتفكير الأشمل في علاقات وأطر مختلفة للعيش.

ويتداخل مع هذا كلّه، واقع وتجارب وخيارات وأزمات نعيشها يوميًا على مستوى شخصي وجماعي، تدفع نحو أسئلة عن علاقتنا بالآتي: أين نعيش، وكيف نعيش، وهل سنعيش. هل سننجو؟ عندما نتحدث عن الطبيعة، نشير إلى أنَّ الناس بالطّبع هم جزء منها، وترتبط صحتهم بصحة الأشجار والأنهار، والعكس صحيح. إذًا، ما هي العلاقة التي استطعنا أن نبنيها مع بيئتنا، أو عجزنا عن بنائها لأننا حرمنا من هذه البيئة وصارت العلاقة مع الطبيعة هي مع شمسٍ حارقة أو أمطار مدمّرة أو نفايات سامّة؟ يربط بين هذه الطبقات جانب آخر تتيح له النسوية البيئية مجالًا للتعبير عن نفسه، وهو الروحانية. تشمل الروحانية الحدس والحواس والترابط، والعلاقة المتبادلة مع الأرض وكائناتها ومع الفصول والتغيرات، وأيضًا العلاقة مع الباطن ومع أنفسنا كجزء من العلاقة مع الخارج ومع كل ما حولنا. بعض هذه الأمور قد لا يكون مُحبَّذًا في الدراسات ولا في العمل السياسي المنظّم، لكننا نعرف أهميته.

من زاوية أخرى، النسوية البيئية هي مدخل للتفكير في إمكانات دعم حركاتنا بعضها بعضًا، وهو هدف طويل الأمد وصعب، لكننا نشرع فيه خطوة خطوة، ونحاول توريثه كعمل أساسي لمن سيأتي بعدنا، فهو عمل تراكمي، بين المجموعات، وبين الأجيال. وسأحكي عنه هنا لاحقًا.

ولكن أضيف هنا أنَّ تنامي الاهتمام المحلّي بالمواضيع البيئية كان مشجعًا لنا. قد تكون ثورة أو انتفاضة ١٧ تشرين (٢٠١٩) علامة مفصلية: خلال هذه الفترة، استطاعت قضية مرج بسري استقطاب الاهتمام العام ونجحت الحملة في إيقاف إنشاء السد، وكانت هناك نقاشات مختلفة عن المساحات العامّة وحق الوصول إلى الشاطئ. أذكر أيضًا مختلف التظاهرات ضد بناء السدود قبل هذا التاريخ بأعوام، وبالطبع لا أنسى أنّ تحركات الـ٢٠١٥ التي نسمّيها "طلعت ريحتكم" كانت احتجاجات ذات وجه بيئي مع أزمة النفايات. وشعرت أيضًا بتوسُّع دائرة الاهتمام بهذا الموضوع في الأوساط النسوية في لبنان، ما زادني اقتناعًا بأهمية تطوير هذا المرجع الذي أحب أن أفكّر فيه كبداية لأعمال لاحقة متنوعة. والمؤكّد أنَّ هناك أيضًا توجُّهًا عالميًا إلى التفكير في الإيكولوجيا والأنثروبوسين (أي الحقبة الزمنية حيث البشر هم المسيطرون، والمدمرون للأرض)، من حيث الاهتمام بالتغيّر المناخي، وحاليًا مع جائحة كورونا. وهناك عدد كبير من الناشطات النسويات والأكاديميّات اللواتي أعرف أعمالهنَّ، في أميركا وأستراليا وغيرهما،

١. دعوة لتقديم الأوراق. النسوية والإيكولوجيا: قصص عن التقابل والتكافل.
https://www.alwarsha.org/call-feminism-ecology-ar/

تمركزت آخر إنتاجاتهنَّ الفكرية حول هذه المواضيع. وكان عندي رغبة في أن يكون لنا مراجع نسوية بالعربية عن سياقنا وعن بعض من همومنا حول هذه المسائل.

صفاء ط.
بدأت تدور الفِكَر في رأسي حول النسوية الإيكولوجية/البيئية في سنة ٢٠١٥، حين كانت الأزمة المباشرة، كما أشرتِ، هي أزمة النفايات في لبنان لكنها جرّت معها الكثير من التفكير في موضوع البيئة. في الفترة نفسها، تزايدت الأحاديث عالميًّا عن تأثير التّغيُّر المناخي على حياتنا جميعًا، فبدأت أرى أزماتنا من منطلقات متداخلة ومتوسعة أكثر.

تدريجيًّا، أصبحت النسوية أيضًا طريقة للنظر إلى المفاهيم والقضايا المختلفة من حولي. وفي الموضوع الإيكولوجي أو غيره أصبحت أستشعر هذه التقاطعات مع حياتنا ويومياتنا. في بداية الأمر، كنت أشعر بأنَّ المفهوم بعيد، كغيره من المفاهيم، نفكر فيه على المُستويَين الأكاديمي والنظري، لكننا نفتقد روابطه مع المجتمع والسياقات. فكنت أتساءل: هل هناك عمل فعلي على النسوية البيئية في المنطقة؟ وهل يمكن تطبيق نظرياتها على الواقع الخاص بنا؟ وأذكر هنا أنني أيضًا جزء من فريق "ويكي الجندر" وقد عملنا على هذا الموضوع في ٢٠٢٠. عندما طرحت زميلتي، إحدى محررات ويكي الجندر، في أوائل ٢٠٢٠، فكرة البحث والكتابة بالعربية عن النسوية البيئية كنت متخوفة جدًّا؛ كنت متشككة في إمكان العثور على أي مصادر باللغة العربية للكتابة النظرية أو لتوثيق مشاريع ومبادرات فاعلة من منطلق نسوي بيئي. لكن حين بدأنا بالبحث كان الموضوع أمتع وأعمق ممَّا تصورت.[٢] وجدنا عددًا كبيرًا من المشاريع والمعلومات المهمة لنتعلمها في ما يتعلّق بالنسوية البيئية في المنطقة. اكتشفت أنه في الواقع يوجد العديد من المبادرات التي تندرج ضمن إطاره، حتى لو لم تكن مصنفة كذلك. المهم عمليًّا، أنَّ ممارَسات النّاس على الأرض تشبه أطر النسوية البيئية، ولو لم تكن تطلق على نفسها هذا المسمى.

في ٢٠٢١، عندما أخبرتني ديمة عن مشروع كتاب عن النسوية البيئية، كان المفهوم قد أصبح أوضح بالنسبة إليّ، ولكن أيضًا شكّل محفّزًا للعمل على إصدارة ستوسّع فهمي له وتساهم في بحث أكبر عنه. أعتقد أنَّ من المهم في هذه المرحلة أن نضع كل ما ذكرته سابقًا في الاعتبار؛ فعندما نفكر في كتاب عن النسوية البيئية في لبنان قد نعتقد أنه بعيد مِنَ الواقع، لكن عمليًّا البيئة غير منفصلة عن الاقتصاد، وغير منفصلة عن علاقاتنا، وغير منفصلة عن يومياتنا، وعن مكان عيشنا، وعن الاجتماع، هي جزء من ذلك كلّه، وكل جزء منها يتقاطع مع الآخر. لذلك، من الضروري أن نبدأ بالحديث عن موضوع البيئة بتحديد تقاطعاتها مع الجندر والنظام الرأسمالي كما النظام الأبوي.

في مكان آخر، أشعر بأنَّ ما تضيفه النسوية إلى أي مفهوم آخر هو النظرة بطريقة أكثر عدالة. وتساعدني النسوية شخصيًّا في البحث عن العدالة في أي أمر آخر، سواء في بيئة أكثر عدالة للجميع، أم

٢. للاطلاع على صفحة "ويكي الجندر" حول النسوية البيئية:
https://genderiyya.xyz/wiki/نسوية___بيئية

في كيفيّة إمكاننا أن نكون أكثر عدالة بطريقة تعاملنا مع البيئة، وفي إدراك كيف يبنى النظام الرأسمالي على غياب العدالة الإنسانية والبيئية، وأساليب تأسيس أنظمة أكثر عدالة معنا ومع البيئة.

زينب ديراني:
في المراحل الأولية منَ العمل على هذا الكتاب، قبل أن ننشر الدعوة إلى تقديم المقترحات والأوراق، كنا نُجري بحثًا حول أهم القضايا البيئية التي تتمَّ تغطيتها والعمل عليها في لبنان والمنطقة وعلى صعيد عالمي، ومن بينها قضايا لا تُمنَح الاهتمام في الحيز العام، مثل العلاقة مع الروحانية، أو عمل المزارعات، أو المتلازمات التي من المحتمل أنها تنتج عن تغيّر في نظامنا الغذائي. كثير من الكتابات التي اطلعنا عليها لا يأخذ مقاربة جندرية أو نسوية، لكننا فكّرنا في ما قد يضفيه الخطاب النسوي من خلال التقاطعات الاقتصادية والسياسية والمجتمعية والمنهجية. ورأينا أنَّ في كثير من الأحيان في الخطابات السائدة عن البيئة، يُحَمَّل الأفراد والمجتمعات الأكثر تضررًا والذين هم الأقل مساهمة في التلوث البيئي، مقارنة بالمصانع المحلية والشركات العالمية على سبيل المثال، المسؤولية الكاملة عن التدهور البيئي.

ديمة:
وأشير هنا إلى أنّنا منذ بدأنا بالحديث عن النسوية البيئية ونشرنا دعوة للباحثات/ين، الكتّاب/الكاتبات والفنّانات/ين إلى المشاركة في هذا الكتاب، لم نكن نستعمل مصطلح "النسوية البيئية" إلّا في الأشهر الأخيرة من العمل على هذا الكتاب، مع اختيارنا العنوان الفرعي له: "تصورات نسوية بيئية". بالطبع، كان لدينا اطلاع على نظرية النسوية البيئية وبعض طروحها وأشكالها حول العالم، ولكننا كنّا حريصات على عدم افتراض ماذا يشمل العمل على المواضيع وماذا يعني، حيث تتفاعل النسوية والعدالة الجندرية مع الحركات والقضايا البيئية والمواضيع الإيكولوجيّة في لبنان؛ فالتصنيف لا يهم بقدر فهم طرائق العمل المختلفة التي تمنح الطبيعة والأرض والزراعة أهمّيّة، كما المجموعات والناس حولها.

وقد رافق العمل على هذا الكتاب مسارٌ للتعرّف إلى المجموعات التي تعمل "على الأرض"، بغية خلق وتطوير نقاشات نسوية بيئية تتمحور حول اهتماماتنا المشترَكة، أو ما أسميناه بنى تحتية عابرة للحركات والمجموعات. أردنا المساهمة مع من يعمل أو يفكّر في ربط القضايا والمجموعات واستراتيجيات التنظيم، لنستفيد من دعم بعضنا ونبني على خبرات ومهارات بعضنا. ونريد أن نستمر في استكشاف مختلف الطرائق لنقل هذه القضايا والخبرات والمعارف والاستراتيجيات، لتحاكي مجموعات وجماعات وأجيال متعدّدة. وقد أثّرت هذه اللقاءات فيَّ كثيرًا، وأمدّتني بالأمل؛ فبعدما ضاقت المساحات وأغلق عددٌ منها داخل بيروت، استفاد بعض النّاشطين من مختلف المناطق من خبراتهم السابقة وأحلامهم، فبنوا عليها، واستخدموا شبكات معارفهم للعمل على مبادرات جديدة تفسح المجال للاهتمام بالأرض وإدراج الزراعة أو الطبيعة ضمن العمل فيها. وجدنا أنَّ النساء جزء مهم من هذه المجموعات في مختلف المناطق، إذ كنَّ مؤسِّسات وصانعات قرار ومشاركات. ويمكن التعرّف أكثر إلى هذه النقاشات الّتي أجريناها، والرحلات التي قمنا بها في الفصل ١٣ من هذا الكتاب.

زينب:
بالحديث عن هذه الرحلات، علقت في ذهني جملة قالها إسماعيل الشيخ حسن خلال زيارتنا الجنوب، وهي: "صيدا الآن تشبه بيروت منذ خمسين أو ستين سنة". أي عندما كانت بيروت مدينة فيها أشجار ومساحات خضر. جعلتني أدرك أنَّ صيدا الآن هي عند نقطة مفصلية قد تحدّد مستقبلها، وربما مستقبل عكار والبقاع وكلّ المناطق كذلك. هذه الزيارات التي قمنا بها لنتعرّف إلى المبادرات المختلفة ذكّرتنا بوجود إمكانيات متعدّدة دائمًا للمسارات التي من الممكن أن تأخذها هذه المدن في تحولها؛ هناك المزيد دائمًا ممَّا يمكن أن نخسره، ولكنّ هذا يعني أيضًا وجود ما نحافظ عليه. وهذا ربما يأخذنا إلى مكان آخر، إلى الخيال النسوي، فالتفكير في النسوية والبيئة والاحتمالات للمستقبل هو مساحة لنا لنتعلّم ولنتخيّل كذلك.

صفاء:
ما أثار اهتمامي في سيرورة العمل على الكتاب والمساهمات الموجودة فيه، كان القصص والتجارب. شعرت بأنّ جميع المساهمات، إن كانت بحثية أم تأملات شخصية أم أعمالاً فنية، كانت وراءها قصص عن علاقة الناس بالطبيعة، سواء كانت علاقة الكاتب أو الكاتبة بها، أم الأشخاص في حياتهما، أم الناس الذين قابلناهم/هنَّ. وكل قصة تحمل منظورًا يعرّفنا إلى جانب جديد من النسوية البيئية. من الجميل أن نمتلك هذه القصص، ونؤرشفها، وأن تبقى، وأن نبني معها علاقتنا الخاصة، ونرى من خلالها وفرة الجوانب المشترَكة بيننا وبين هؤلاء الناس كلّهم، وأن نُظهِرَ كيف أنَّ لكل منا قصّته الشخصية المختلفة عن قصص الآخَرين. لكن تبقى الأرضية المشترَكة علاقتنا مع الطبيعة. كما تشترك القصص في تصوير مظاهر مختلفة لقمع النّساء والطّبيعة مِن قِبَل النظام الأبوي و/أو الرأسمالي.

تظهر القصص في هذا الكتاب طبقات مختلفة لهذه العلاقة مع الطبيعة حسب السياقات، فهي أحيانًا مصدر انفعالات ومشاعر وأحيانًا مصدر إلهام للإبداع، ومساحة للترفيه والشعور بالحرية، ومصدر رزق أو سبيل لمواجهة الانهيار، وساحة دفاع عن الحقوق، ومساحة للتفكير والتأمل.

ساهم هذا التنوّع في خروج موضوع النسوية البيئية من خانة بحثية/علمية بحت، إذ كسب حيواتًا جديدة، من خلال إحيائه في قصص ناس يعرفون كيف كان شكل الطبيعة قبل أن تؤثّر عليها كلّ التّغيُّرات التي مرت بها، وآخرين/أخريات يدركون/نَ أثر غياب تلك الطبيعة على حياتهم/نَّ الآن وما ينقصها جرّاء ذلك. الموضوع ليس محدودًا بتلوّث النهر فقط على سبيل المثال، بل يشمل الحيوات التي تغيرت، والمجتمعات التي تأثرت، ومصادر الرزق التي تضرّرت، وأساليب الحياة التي حرّفت، ومساحات الاستجمام التي شوّهت بسبب هذا التلوث. حاولنا أيضًا أن نروي قصة المريمية (الفصل ٨) بلسانها، من خلال ما جمعناه من معلومات وقصص عنها. ومع أننا نعرف أننا لن نلتقطها كبشر بحقيقتها، إلّا أننا نحاول أن نقول إنَّ لكل عنصر من عناصر هذه الطبيعة حكايته أيضًا، وإنَّ ممارساتنا تساهم في تغيير تصوُّر هذه الحكاية.

وبلا شك، نحن نعمل في سياق انهيار اقتصادي، وأزمات اجتماعية، أثّرت على معظم النصوص الواردة في الكتاب.

صفاء:
يوجد في معظم النصوص ما يعبّر عن علاقة ما بين الإيكولوجيا والاقتصاد، منه ما يتعلّق بهموم الناس الاقتصادية، ومنه ما يتطرّق إلى النساء العاملات في مجال الزراعة، وذلك من منظور اقتصادي محدَّد، ومنه ما يتناول تبعات وضعنا الحالي على علاقة الناس بالبيئة والزراعة. ويقودنا ذلك إلى تقاطع أكبر وهو تقاطع النظام الاقتصادي بشكل عام مع البيئة، بشكل واضح وصريح، كما في بحث لمى أبو خروب (الفصل السادس) وهند يونس (الفصل السابع).

نحن نعيش الآن هذا الانهيار الاقتصادي في لبنان، ونعي أنَّ ذلك نتيجة عشرات السنوات من نظام اقتصادي قاهر واستغلالي كان يدمّر البيئة بطرائق شتّى، مثلما يدمّر فئات من المجتمع ويهمشها؛ فالانهيار ليس اقتصاديًا فقط، بل اجتماعي وبيئي، إضافة إلى سنوات من القمع على مستويات كثيرة، من قمع الحريات إلى قمع النساء. أرجو أن يفتح هذا الكتاب، وغيره من الأبحاث في هذه الفترة، مجالات جديدة لنعرف أكثر عن الرابط بين الاقتصاد والبيئة في العقود السابقة، ومجالات تساعدنا في تصوُّر اقتصاد أفضل وأكثر عدالة بيئيًا، وجندريًا، أي اقتصاد عادل من منظور نسوي بيئي.

ديمة:
بوافق معك، وقد ذكرت نَصّي هند يونس ولمى أبو خروب؛ ففي بحث هند، يصبح حرمان النساء من وراثة الأراضي موضوعًا نسويًا–بيئيًا، خصوصًا حين نركّز على علاقة النساء بالأرض، كما فهمنا أكثر التداعيات الاقتصادية لهذا الحرمان عبر الأجيال. وفي المقابل، تعرض لنا لمى استغلال المزارعات الفلسطينيات بشكل مفصّل، ويتطرق بحثها أيضًا إلى فقدان الشعور بالانتماء عند المزارعات اللواتي قابلتهنَّ؛ والسبب ليس أنَّ النساء فلسطينيات في أرض "لبنانية"، بل هذا الاستغلال والظلم اللذان لا يسمحان بقيام أي علاقة مع الأرض، ولا مع الأشخاص.

وفي العديد من المؤلفات عن النسوية البيئية والإيكولوجيا بشكل عام، خاصة باللغة الإنكليزية، هناك إشارة إلى تقارب أو تقاطع ما بين الإيكولوجيا [ecology] والاقتصاد [economics]، من خلال الجزء المشترَك بين الكلمتين [eco]، والّذي يعني المنزل باللاتينية. وأعتقد أنّ الوضع الحاليّ، وهو حال الكثيرات منّا، هو ما دفعنا إلى التّفكير أكثر في موضوع الاقتصاد. قبل الـ٢٠١٩، لم أكن أفكّر بجديّة – أو نفكّر بشكلٍ جماعي – في القطاع المصرفي والسياسات الاقتصادية، وفي أسباب تمجيد السريّة المصرفية مثلًا. بالطبع كنا نتكلّم على هذا الموضوع، وكان عدد من الناس يعمل ويفكّر في هذه المواضيع، لكن لم يكن الاقتصاد يأخذ حيزًا من يومياتي مثل ما يحصل منذ ٢٠١٩، أي منذ الانهيار الذي عرفنا أنه آتٍ قبل ثورة ٢٠١٩. اليوم صار الواقع الاقتصادي شيئًا يوميًا، حميميًا، وليس فقط في الخلفية. الأوهام التي كنّا نعيشها تتكسر أكثر كل يوم، لكنَّ اللامساواة تعمّقت في الوقت ذاته؛ وهنا الخوف مِن أن تتكسر أحلامنا أيضًا مع أوهامنا.

أقرأ في هذه الأيام الأعداد الجديدة من مجلة "بدايات" التي تركّز على النيوليبرالية والاستهلاك. أرى الروابط حين أطالع فيها مقالات تتناول تغيُّر المجتمع بعد الحرب الأهلية (وقبلها أيضًا)، مع تعزيز هوية وأسلوب حياة قائمة على الاستهلاك والمظاهر، تعطي معنى سطحيًّا-ماديًّا للحياة، وتصبح أيضًا رأس مال اجتماعيًا.[٣] ينتج هذا النظام رغبات وحاجات جديدة (فكرية، ومادية، وغذائية) نستطيع استهلاكها بسهولة، كما ينتج سعيًا دائمًا إلى إشباعها.[٤] في هذا السياق يصبح الاتكال أيضًا على السيارة الخاصة، على حساب إهمال النقل العام والجماعي وتدميره.[٥] هذا الأسلوب قد يفبرك صورة جميلة لنساء "متحررات"، لكنه لا يحقّق العدالة، ولا يتعامل بجديّة مع العنف القائم على الجندر ومع استغلال العمل المنزلي والرعائي واليد العاملة الرخيصة. وربما يكرّس الربح المادي والنظام الاستهلاكي بيئة مصطنعة جميلة وآمنة لبعض الناس،[٦] ولكنه لا يحافظ على بيئة قابلة للحياة، ولا بيئة تكون حقًّا للجميع، مثلما الشمس والماء والهواء للجميع، أو يجب أن تكون. كما يمكن أن يشير المنظور النسوي هنا إلى أنّ الرجال هم المُسيطِرون على عالمَي الاقتصاد والسياسة، مع منظومة تتوارث السلطة من الأب إلى الابن، لكن نعود إلى فكرة الأنظمة وكيفَ تغذّي بعضها، وإلى الالتحاق بنموذج نيوليبرالي للتطور بدلًا من العلاقة العضوية المتكاملة مع تاريخنا وقصصنا، كما تشير صفاء في مقالها في هذا الكتاب (الفصل ١١).

والاقتصاد والإيكولوجيا يعبران الحدود. ربما في السنوات الأخيرة، أصبحنا عالقين أكثر في مستنقع أزماتنا بين جائحة الكورونا والانهيار الاقتصادي ونقص البنزين، وبقينا في منازلنا معظم الوقت. لكنَّ الجوانب الإيكولوجية والاقتصادية تتحدّى الحدود المكانية (والزمنية). أعطي مثالًا عن ذلك في بحث أسمى الحجل (الفصل ١٠) وهي تعرض كيف أنّ أضرار تلوّث نهر الليطاني لا تتجلّى فقط عند ضفة النهر؛ فهناك جوانب عابرة لحدود الأوطان، وهذا واضح في نص زينب عن الأنظمة الغذائية وعلاقتنا كنساء بأجسادنا (الفصل الأوّل). وبالطبع الموضوع البيئي أصبح من أكثر المواضيع طرحًا على الصعيد العالمي، إنَّما هنا في لبنان اليوم، هذه القضية لها أولويات أخرى، وهذا ينطبق على الدول غير الصناعية وتلك التي تمرّ في أزمات اقتصادية كبيرة، حيث الاهتمام بالأمن الغذائي، وضرورة تطبيق سياسات متوازنة، والاستفادة المتوازنة من مواردنا، بدلًا من تدمير البيئة وتهجير النّاس ذوي المهارات المُختلفة وتجويعهم.

---

٣. "صعود الاستهلاك المُقدّس في لبنان ما بعد الحرب." منى خنيصر وسارة محيو. بدايات. العدد ٣٢. ٢٠٢١. ٥٠-٥٨.

٤. "مجتمع الاستهلاك أو رسملة القيم" عبد الإله بلقزيز. بدايات. العدد ٣٢. ٢٠٢١. ٥٩-٦٨.

٥. "ثقافة الاتكال على السيارات الخاصة في بيروت." مارك بيري. ترجمة فيفيان عقيقي. بدايات. العدد ٣٣. ٢٠٢١. ٢٤-٣٧.

٦. "أسوار الحرب وأسوار ما بعد الحرب." مات ناش. ترجمة فيفيان عقيقي. بدايات. العدد ٣٣. ١٤, ٢٠٢١-١٦ .

زينب:
نعم، ففي صيدا، هناك جبل الزبالة. نراه، ونشمّه. في بعض الأحيان، قد لا نراه، لكن نشمّه من بعيد. وجوده يتخطى مساحته، بالروائح والأمراض الّتي ينشرها، وبالتلوث الناجم عنه، وبالعنف الذي يمارسه على البحر والهواء والأرض والمياه والكائنات الحية. عندما كنت صغيرة، كنت أظن أنَّ لكل مدينة جبل النّفايات الخاص بها. كنت أود زيارته، لكنَّ رائحته زارتني أوّلًا. الآن، طُمرَ جبل الزبالة وأعيد تأهيله ليصبح حديقة عامة مقفلة معظم الوقت، لا يزورها أحد بسبب رائحتها الكريهة نتيجة عدم تأهيلها بالحرفية والمعايير المطلوبة. يوجد معمل إعادة تدوير بُنِيَ في صيدا، بقي غير مستخدم لفترة طويلة، بسبب عدم اتفاق القوى السياسية في المنطقة على كيفية تحاصصه. وبعدما بدأ العمل فيه، لا يزال يُستغَلّ في دورات الانتخابات البلدية والنيابية،[٧] حيث يتم التفريط بصحة أهالي المنطقة على حساب مصالح سياسية وشخصية في كل معركة انتخابية.

كلّ ما هو في الكتاب جعلني أفكّر في ارتباط حياتنا بالبيئة، وبكم كان مؤذيًا هذا الانفصال المفروض علينا، بطرائق قد ندركها أو لا ندركها. أفكّر أيضًا في عملنا كلّه في ورشة المعارف في الأشهر الماضية، وبتركيزنا في مشروع الحكايا والتاريخ الشفوي النسوي السنة الماضية على علاقة النساء بالبحر، والتجارب المكانية الخاصة بالأشخاص الكوير، وبكيفيّة ظهور القصص الشخصية للنساء والأشخاص غير النمطيين/ات، حول علاقتهنَّ/هم بالبيئة والأرض حتّى حيث لم نكن نبحث عنها.

ديمة:
وحين نظّمنا في ٢٠٢١ كذلك ورشة عمل حول المطويات، قرّرنا أن يكون موضوعها الأساسي علاقة الأشخاص، خاصة النساء والأشخاص الترانس، بالأرض والأكل والتعافي. وبعد إنهاء العمل على المطوية، خطرت لنا فكرة نشرها في هذا الكتاب، نظرًا إلى ترابط المواضيع.

صفاء:
تختلف موضوعات هذا الكتاب وتتنوّع بشكل غني أيضًا، من الأرض إلى النهر، إلى الأجساد، إلى نص ريم جودي عن الأعمال الثقافية والفنية (الفصل ٤)، ونص مهاد حيدر (الفصل ٥) عن الأعمال الأدبية والروايات، ومحاولة رؤيتها من منظور نسوي بيئي. أدهشني نص إليزابيث صالح أيضًا، بما يحمله من ابتكار في الفكرة نفسها وشجاعة في معالجة موضوع "الباركينغ في بيروت" (الفصل ٣). تتمكن إليزابيث من تحدي مفهومنا للمساحات المشترَكة، ومن توسيع إدراكنا ما نخسره كلما كبرت شركة أو مصرف.

منذ بداية الدعوة إلى الكتابة، بحثنا عن تنوع في الأساليب الكتابيّة والمقاربات. أطلقنا دعوتين، واحدة تتعلّق بنصوص ومساهمات شخصية وفنية[٨] وأخرى بمقالات وأوراق بحثية، وتركنا للمؤلفات حرية

٧. "جبل الزبالة يدشّن معركة صيدا الانتخابية." آمال خليل. الأخبار. الاثنين ٢٣ تشرين الأوّل ٢٠١٧.
https://al-akhbar.com/Politics/239548

٨. "دعوة لتقديم قصص ونصوص شخصية عن النساء والبيئة".
https://www.alwarsha.org/call-for-personal-stories-ar/

اقتراح الموضوعات كما يرين هُنَّ الإيكولوجيا وتقاطعها مع النسوية أو حتى حيواتهنّ كنساء و/ أو أشخاص كوير. وضعنا كذلك دعوة مخصصة للباحثين/ات، عرّفتنا إلى أسمى الحجل الّتي عملنا معها على بحثها المتطرّق إلى نهر الليطاني. أردنا أيضًا أن يكون الكتاب مفتوحًا لمختلف وسائل التعبير وأنواع الفنون وليس الكتابة فقط. لذلك، تضمَّن هذا الكتاب ثلاثة أعمال فنية منها الرسم الذي أنجزته رنا علوش (الفصل ٩)، والتصوير الفوتوغرافي الذي استعملته لين عون للتأمل في علاقتها بأوراق الكركديه وجسدها (الفصل ٢)، كما الرقمي مع ابتسام بأسلوبها الفريد (الفصل ١٤). وقد عملنا لاحقًا مع ابتسام كمصممة للكتاب ككل، وكان هذا التعاون ممتعًا لنا، للتوصّل إلى تصميم بصري يعبّر عن الروحية التي أردناها لهذه الإصدارة.

العمل مع المساهمات في الكتاب كان رحلة تعلُّم لنا كفريق تحرير، وكشف عن اتساع المقاربات للكتابة عن النسوية البيئَية. كذلك، أضاف العمل مع فريق المراجعات نظرة نقدية إلى النصوص ووسّع آفاقنا للتحليل.

أشعر وأنا أقرأ كلّ مساهمة بأنها تزيدني معرفة جديدة بطرائق جديدة، وبأنَّ كلّ أسلوب كتابة مختلف عن الآخر؛ فمنها ما هو شاعريّ أو سرديّ، ومنها ما يميل إلى الأسلوب البحثي العلمي، وهناك ما يميل إلى أسلوب المقال أو التقرير، وهذا ما شجّعنا عليه منذ البداية، إذ أردنا لهذا الكتاب أن يكون أداة متعددة الأوجه في إيجاد طريق أو رابط للقراء والقارئات مع موضوعه.

حين أفكر في ما أنجزناه من خلال هذا الكتاب، أستحضر ما كتبته ديمة (الفصل ١٥)، عن مسؤوليتنا تجاه الأجيال القادمة، وأرجو أن نكون، بتوثيقنا تجاربنا هذه، اليوم، قد أوجدنا المساحة لشيء ما في المستقبل.

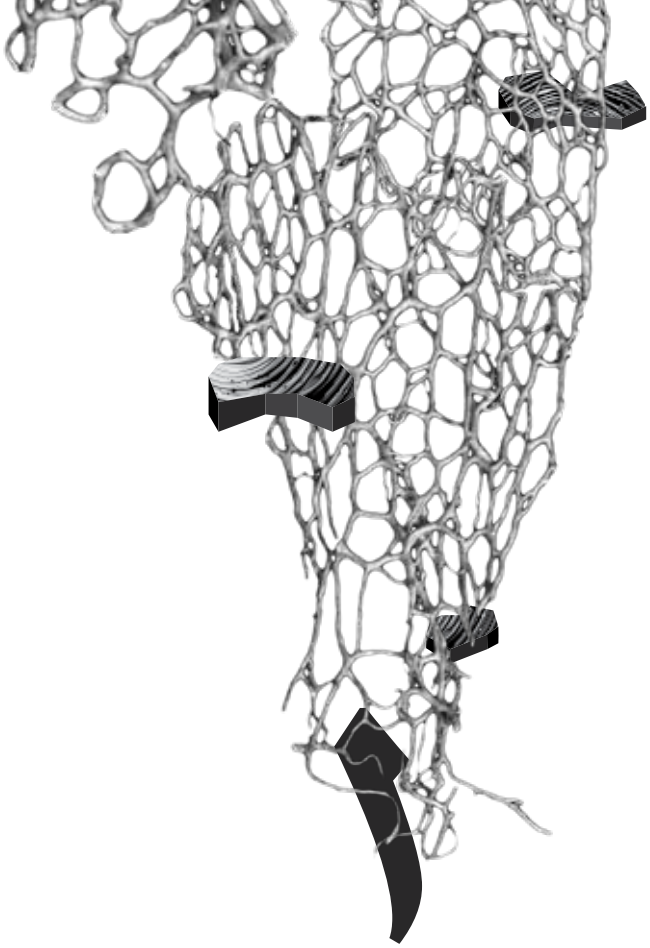

زينب ديراني

ترجمة: ايلينا مهنا

مركزة مشاريع في ورشة المعارف (٢٠١٩-٢٠٢٢)، مهتمة بالتاريخ الشفوي النسوي، والبسينات والنباتات.

ما بين المبيض والنظام الغذائيّ

هذا نصّ شخصيّ، لكنّه جماعيّ أيضًا.[١] فالشخصيّ فيه يكمن في نقل تجربتي الشخصيّة الأوليّة وتجارب بعض الأشخاص من حولي مع متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات (متلازمة تكيُّس المبايض)؛ هي مرض محيّر ومحبط طبيًا يبدأ في إظهار الأعراض عند سنّ البلوغ، وهذه الفترة محيّرة ومحبطة للكثيرين/ات في حدّ ذاتها. وهذا النصّ هو جماعيّ أيضًا، في محاولته تجميع هذه المتلازمة الفرديّة في عدد من الظواهر الأخرى التي سبّبها نظام الغذاء والزراعة العالمي أو زادها سوءًا، ولو جزئيًا.

"يتجذّر نموذج الزراعة الصناعيّة في الحرب، فهو يستخدم حرفيًّا المواد الكيميائيّة نفسها التي كانت تستخدم في السابق لإبادة الناس لتدمير الطبيعة. ويستند إلى تصوّر أنّ كلّ حشرة ونبات هما عدو يجب إبادته بالسموم، ويبحث باستمرار عن أدوات عنف جديدة وأكثر قوّة، بما في ذلك مبيدات الآفات ومبيدات الأعشاب والنباتات المعدّلة وراثيًّا المنتجة لمبيدات الآفات. وفي حين تزداد تقنيات العنف تعقيدًا، تتقلّص المعرفة بالنظم البيئيّة والتنوّع البيولوجي. كلّما ازداد الجهل بالتنوّع البيولوجي الغني والعمليات البيئية في الكوكب، ازدادت غطرسة السُّعاة إلى تدمير الشركات الكبرى الذين يدّعون الإبداع. وهكذا يعيدون تعريف الحياة على أنّها اختراع أولئك الذين رغبتهم وقدرتهم الوحيدة هي تسميمها وقتلها". – فاندانا شيفا، "مَن يغذّي العالم حقًّا: إخفاقات الأعمال التجاريّة الزراعيّة ووعد الإيكولوجيا الزراعيّة".

ماكدونالدز: أنا أحبّه

افتُتح مطعم ماكدونالدز الأوّل في لبنان في العام ١٩٩٨. وأنا وُلِدت في العام ١٩٩٧. يتذكّر جيل والديّ "المرّة الأولى" لتناولهم وجبة ماكدونالدز.

أطلق جدّو على الهمبرجر في البداية اسم "هنجر بنغر" لأنّه كان مفهومًا غريبًا للمزارع المسنّ، ثم تمسّك به كطريقته لقول إنّ "هذا ليس طعامًا حقيقيًا". وقال إنّه لم يكن مباركًا وهو طعام مضرّ بالصحّة. كما ذكر أنَّ العالم الغربي يحاول غزو مطابخنا. ضحكت عندما سمعت تعليقه هذا، معتبرة إيّاه "حديث رجل عجوز". وشكّلت المجدّرة والحساء طعامَيه المفضَّلَين، مع أنه أخبرنا أيضًا أنّ مذاقهما لم يعد كما قبل منذ أن ماتت تيتا بسرطان الكبد.

١. شكرًا خالصًا من القلب وتقديرًا عميقًا للأشخاص الذين/اللواتي لم تكن هذه القطعة لولاهم/هنَّ، من أولئك الذين/اللواتي أخذوا/ذن الوقت لمشاركة قصصهم/هنَّ الشخصية، إلى ديمة وصفاء على دعمهما وتفهّمهما حتّى عندما تصبح الأمور محبطة، وتعليقاتهما الثاقبة، وإلى تالة لإضفائها لمسة جميلة وراقية على هذا النص وعليّ.

أجلس في سريري حيث يشاركني شريكي في ذلك الوقت المرّة الأولى التي تناول فيها طعام ماكدونالدز. هو شعور حميميّ للغاية لأنّني أتذكر تجربتي أيضًا، ولا أطيق صبرًا لأسرد له قصّة تناولي وجبة ماكدونالدز للمرّة الأولى، وكيف لم يتوفّر الكثير من الأماكن الأخرى للذهاب إليها في صيدا إذا كان عمرك أربع سنوات وأردت الاستمتاع بوقتك. لم يعنِ الماك برغر شيئًا بالنسبة إليّ، لكنّ الماك سلايدز (زحليطة) كانت مذهلة.

كنت أتردّد إلى المستشفى عندما كنت طفلة بسبب مزيج من التهاب اللوزتين الحاد ووالدين شديدَي القلق. كانوا يحقنونني بالكثير من الكورتيزون في المستشفى. على الرغم من صغري، أدركت أنّ الجميع من أصدقائي وأساتذتي وأقاربي وغرباء بدأوا يعاملونني بشكل مختلف الآن بعدما أصبحت "أكبر" حجمًا. وبدأ المرض في تشكيل علاقتي بجسدي ومحيطي، وربطت المرض بالعار كما ربطت السمنة بالمرض، إذًا السمنة بالعار والمرض. شُخّصَتْ حالتي بمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات لاحقًا.

ولكن، مش الحق على الهمبرغر وبس. فعلاقتنا مع الطعام تبدأ أيضًا بما تأكله الحيوانات الموجودة فيه، وبكيفيّة تربيتها، وبكيفيّة معالجة لحومها، ورحلة التجهيز التي مرّت بها قبل وضعها في طبقي، وبطريقة استهلاكها مِن قِبلي: ما هي الأطعمة التي آكلها دائمًا، ولماذا آكلها بتواتر سوى غيرها؟

التعرّف إلى متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات

متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات هي مرض يصيب ٤٪ إلى ٢٠٪ من الأفراد الذين/اللواتي لديهم/ هنَّ رحم، والذين/اللواتي هم/هُنَّ في سنّ الإنجاب (Deswal, Narwal and Dang A 2020).
والمسؤول الرئيس عن متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، بالإضافة إلى زيادة عدد البصيلات التي تتوقّف عن النمو وتبقى في المبيضين مشكّلة الكيسات، هو الإفراز المفرط للهرمونات الأندروجينية في أجسام الأشخاص المصابين/ات، ما يؤدي بدوره إلى الشعرانية (نمو الشعر المفرط) وحب الشباب وفرط الوزن أو البدانة. كما أنّها مسؤولة عن الخلل في الحيض، على سبيل المثال عدم انتظام الدورة الشهرية والعقم الفرعي بسبب انقطاع الإباضة، وكذلك حالات الإجهاض العفوي. وتشهد بعض الأجسام مقاومة عالية للأنسولين وتصبح معرّضة لخطر الإصابة بداء السكري من النوع الثاني، ومرض الكبد الدهني غير الكحولي، واحتمال تراجع صحة القلب والأوعية الدمويّة. وما يزيد الطين بلّة هو أنّ المتلازمة تسبّب الاكتئاب والقلق لدى المصابين/ات بها. وتشير الدراسات الحديثة إلى أنّ متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات وراثية، ويساهم كلّ من عوامل الحمل و/أو نمط الحياة في احتماليّة الإصابة بها، لكنّ الأسباب المباشرة لا تزال مجهولة (Norman et al. 2007).

ويحيط الغموض بأصل متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات وتاريخها، حيث لا تزال أصولها مجهولة في نظام الرعاية الصحيّة لدينا، ما يؤدّي إلى عدم وجود علاج مختصّ بمعالَجتها، حيث يستهدف النهج الطبي علاج الأعراض فقط (Barthelmess and Naz 2014). وفي كتاب "Undrowned"، تشرح أليكسيس بولين غامبز Alexis Pauline Gumbs أنَّ لا يمكن عزل المنتج الجانبيّ للنظام عن

العملية الداخلية لهذا النظام. فبهذا يمكننا فهم كيف يُسمح لمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات بالوجود كمنتج جانبيّ لأنظمة الغذاء والرعاية الصحيّة لدينا لأنَّ أنظمتنا الغذائية هي التي أنشأتها، وتسمح لها أنظمة الرعاية الصحيّة الأبويّة بالاستمرار في الوجود. تمامًا كما ينتج نظامنا الزراعي النفايات ويدمّر المناظر الطبيعيّة؛ بالإضافة إلى علاقتنا بالأرض، فإنّه ينتج هرمونات زائدة ويدمّر علاقات النساء بأجسادهنّ. تمامًا مثلما تستمرّ أنظمة الرعاية الصحية لدينا في تجاهل جدّية متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات ومدى شيوعها، فتصبح متواطئة في ازدياد أعداد الأشخاص الذين/اللواتي يصابون/بنَ بها.

تحاول إحدى الدراسات تتبُّع هذه المتلازمة من خلال ردّها إلى المجتمعات البدائيّة (Azziz, Dumesic and Goodarzi 2011) بينما تسميها أخرى "ظاهرة القرن العشرين" (Rodgers et al. 2019). وتتساءل الدراسة اللاحقة عمّا إذا كانت متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات موجودة في أوائل القرن العشرين بشكل سائد كما هي اليوم، وإذا كانت كذلك، فلماذا لم يتم وصف تكيُّس المبايض في التشريح الذي أُجريَ قبل ذلك بكثير، كما في حالة ٣٠,٠٠٠ تشريح نفّذها عالِم الأمراض البوهيمي الشهير روجيتانسكي (Rojitansky 1804-1878)، خصوصًا أنّه وصف فرصه في فحص المبايض بأنّها "كثيفة للغاية". وتثير هذه الدراسة وجهة نظر مهمّة حول أصول متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، فتقول: "ظهر الكثير من العمليات الصناعيّة الجديدة، والمكونات الغذائية، وحفظ الأغذية، وطرائق الطّهو، والمواد الكيميائيّة البيئيّة الجديدة، والسموم والأدوية، وتغلغل في الثقافة البشرية منذ ذلك الحين [بداية القرن الـ ٢١]. وقد يشكّل أيّ من هذه العوامل، بمفردها أم مجتمعةً، عاملًا سببيًّا مرشحًا – وللكثير منها سمات وإجراءات بيولوجية وأنماط تعرّض تستدعي التحقيق" (Rodgers et al. 2019).

ويشرح المؤرّخ كريستوفر أوتر في كتابه "النظام الغذائي لكوكب كبير: بريطانيا الصناعية وأنظمة الغذاء وعلم البيئة العالمية"، كيف أنَّ بريطانيا، باعتبارها القوة العالميّة المهيمنة في القرن التاسع عشر، أسَّست النظم الغذائية الحديثة من خلال السيطرة على الموارد العالمية الهائلة، وإنشاء سلاسل غذائية بعيدة المدى للإمداد بكميات من اللحوم والقمح والسكر. وبريطانيا كذلك هي التي نظَّمت فكرة استخدام الكوكب بأكمله كمصدر للغذاء (Otter 2020).

يوضح أوتر أنَّ المؤرّخ:

> "لا يفترض أيّ نوع من فاصل حازم يقسم الماضي عن الحاضر. ولا يحظى الكثير من الظواهر التي تدرسها بنقطة ظهور محدّدة، ومن هذه الظواهر نذكر تصلّب الشرايين، ودورة النيتروجين البشرية المصدر، وتجهيز الأغذية، وحب اللحوم، واضطرابات التمثيل الغذائي، وتسوّس الأسنان، والتنمية الاقتصادية، وتغيُّر المناخ، بل تتكشف هذه الظواهر ببطء داخل الأجسام وعبر الفضاء الكوكبي، وتكون تأثيراتها تدريجيّة وتراكميّة وتستغرق عقودًا، بل حتى قرونًا، لتظهر بشكل كامل".

وبالطريقة نفسها، إنَّ تقسيم الزمن بين ماضٍ وحاضر ليس دقيقًا للغاية لوصف مسببات متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات ونسبها إلى أنظمة الغذاء المعاصرة وحسب. إلّا أنني أقترح أنّ هذه الأنظمة الغذائية تساهم في الانتشار الناشئ لمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، خصوصًا أنَّ الارتفاع المفاجئ

في أعداد المصابين/ات يأتي بسهولة بعد إنشاء الأنظمة الغذائية الحالية، ويضعها في فئة الظواهر المختلفة نفسها المرتبطة بالوجبات الغذائية الغنية بالسكر واللحوم والحبوب المصنَّعة.

في قلب الحدث: نظام غذائيّ لا مفرّ منه

اعتبارًا من العام ٢٠١٩، تمكنت أربع شركات فقط من السيطرة على أكثر من ٥٠٪ من البذور في العالَم، ما أدَّى إلى احتكارها من قِبل المورّدين الذين يندمجون باستمرار، ويتحكّمون في إمداداتها في العالَم. هذه الشركات هي: باير Bayer وكورتيفا Corteva وكيم شاينا ChemChina وليماغراين Limagrain. كما تسيطر الشركات نفسها على سوق المبيدات في العالم. وعلى الرغم من أنَّ البذور المعدّلة وراثيًّا لها غلة أعلى من المحاصيل الأصيلة المتنوعة، إلَّا أنها أكثر عرضة للإصابة بالأمراض وتتطلب المبيدات لتنمو (Schauenberg 2019).

لا يظهر نظام الرعاية الصحية في فراغ سياسيّ، ولا طبيعة أكلنا كذلك، ولا السمنة وما نعدّه سمنة. تبلغ قيمة الصناعات الزراعيّة وشركات الأدوية الكبرى والصناعات الغذائية المليارات، والتريليونات في بعض الحالات، مع قدرتها على التلاعب بالناس واحتكار الأسواق. ويحمل فعل الأكل اليوميّ ثقل مَن شارَكَ في وَضع هذا الطعام على المائدة وكيفيّة المُشارَكة؛ فيصبح الطعام الذي نأكله جزءًا منّا، ونصبح جزءًا من النظام الغذائيّ الذي نتّبعه –أو لا نتّبعه– مع كلّ وجبة.

يستورد لبنان ٨٥٪ من احتياجاته الغذائية حسب برنامج الأغذية العالميّ (WFP 2020). ويتم شحن ٨٥٪ من المواد الغذائية من بلدان أخرى (ما يساهم في التغيّر المناخيّ فضلًا عن التبعية الاقتصادية). وتُشحَنُ من دول العالم الأوّل التي تستغل الموارد والأراضي والشعوب، بينما يكافح المزارعون المحليون للعثور على وسائل العيش المناسبة.

ومثال آخَر عن ذلك، وفقًا لتقرير صدر في العام ٢٠١٦ (Mikhael and Daou 2016)، فحتّى حين تنتج صناعة الدواجن في لبنان ما يكفي لإرضاء السوق المحلية، لا نزال نستورد الدواجن المجمَّدة والماشية من بلدان مثل البرازيل وفرنسا. ويرجع هذا التشبُّع المفرط لسوق الدواجن إلى الأسعار التنافسية التي توفرها قدرة هذه البلدان على إطعام مواشيها من الحبوب المحلية، على عكس لبنان، وإلى الافتقار إلى اللوائح التي تحمي المنتجين المحليين.

أمّا محليًا، فتسيطر أربع شركات إنتاج وحسب معًا على أكثر من ٥٠٪ من سوق الدواجن، وهي: هوا تشيكن، وويلكو، وشومان، وتنمية. ووفقًا لمنظمة الأغذية والزراعة، يتم تكريس ما يصل إلى ٧٠٪ من تكلفة إنتاج الدواجن لتغطية تكلفة الأعلاف (Ravindran 2013). وفي لبنان، يشكّل العلف المستورد ٩٥٪ ممَّا يأكله دجاجنا حاليًا. ويتم استيراد جميع المواد الخام من الشعير والشوفان والذرة وفول الصويا من الأرجنتين، وأوروبا الشرقية، والولايات المتحدة الأمريكية.

وحتى عندما نعتزم تناول الطعام المحلي، تبقى هذه عملية صعبة للغاية، لأنَّ معظم بذور الخضروات التي نأكلها مستورَد، مع كلفة تلوُّث عالية نتيجة ضريبة آثار الكربون على تلوُّث الهواء، والمياه، والتربة.

هذا بالإضافة إلى استيراد كلّ الحبوب التي تذهب لتغذية الماشية التي نأكلها من الوحوش نفسها التي تتحكّم في إمداد العالم بالغذاء، وتلويث مياهه وأراضيه ومزارعه وشعوبه من خلال التحكم بسوق البذور العالميّة، البذور نفسها التي تتطلب المبيدات السامة التي تنهش من صحة التربة بشكل متزايد وغير مستدام مع كل استخدام، وصحّة الطعام الذي نستهلكه.

إنّ النظام الزراعيّ الذي يسمح بتلويث مصادرنا الغذائية وترابنا من أجل الربح، هو نتاج تواطؤ للنظام الرأسمالي الأبوي نفسه الذي يوافق على تعريض الناس لجميع أنواع الأمراض بهدف الربح. وتعدّ متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات مربحة لشركات الأدوية الكبرى، وشركات التأمين، وخدمات الرعاية الصحية المخصخصة، ومجالي الموضة والحميات الغذائية؛ فهي مفيدة لتشجيع صورة غير صحيّة لأجسام النساء. ويصبح الأمر أكثر ربحية إذا كنت ترغب/ين في إنجاب طفل وتطلب/ين العلاج. ويكون أكثر ربحية بعد من خلال إصابة هؤلاء الأفراد بالاكتئاب والقلق. وأخيرًا، تزداد الرّبحية أكثر عندما يصاب هؤلاء الأشخاص بداء السكري من النوع الثاني. وفي المقابل، يتجاهل نظام الرعاية الصحية الأبويّ الذي يتوخّى الربح هذا الألم الذي تعانيه النساء، ويربح من الأمراض الناتجة عن التحوّل الصناعيّ لكلّ شيء بما في ذلك الزراعة.

"الأنا" الجماعيّة

تكمن وراء هذه القصة عن أساليب الحياة الصناعية المتزايدة والأنظمة الأبوية قصص لكثيرات من النساء والأشخاص غير المنتمين/المنتميات إلى الثّنائيّة الجندرية، الذين/اللواتي تأثروا/نَ بهذه المتلازمة. وهذا بعض من قصصنا: في ما يأتي بعض الروايات عن الصراعهم/هنَّ مع متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات والأعراض الكامنة وراءها، وسجلاتهم/هنَّ لمحاوَلة الحصول على التشخيص والعلاج المناسبَين، فضلًا عن صراعاتهم/هنَّ اللاحقة مع العلاج الأكثر انتشارًا المقدّم للأشخاص المصابين/ المصابات بهذه المتلازمة، وهو حبوب منع الحمل الهرمونيّة.

ألين - الجمعة ١١ كانون الثاني ٢٠٢١

علمت بإصابتي بمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات للمرّة الأولى في العام ٢٠١٦ أو ٢٠١٧ وكان عمري ثماني عشرة سنة، ولم أسمع بها من قبل.

كنت بدينة للغاية، وبغضّ النظر عن عدد الحميات الغذائية التي اتبعتها أو مقدار الوقت الذي أمضيته في صالة الألعاب الرياضية، لم أستطع أن أفقد أيًّا من وزني. كما أنَّ التوقعات المجتمعيّة المتعلّقة بجسدي وبشكله (كيف يجب أن يبدوَ)، مقترنة بصور غير واقعية اجتاحت باستمرار كلّ ما أراه على وسائل التواصل الاجتماعي، أدّت إلى تطور بعض المشكلات حول علاقتي بجسمي وتصوّري له. وفي المقابل، أصبت بالاكتئاب الشديد وكأنَّ كلّ ما كنت أفعله يذهب سدى ولا أعرف السبب.

وفي نهاية المطاف، قررت أن أستشير طبيبًا حول هذا الموضوع، وبعد إجراء بعض الفحوص الطبيّة، تلقيت تشخيصًا مفاده أنّ السبب وراء ذلك هو إصابتي بمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، ما يصعّب على جسدي فقدان الدهون. كما أنّها جعلت دورتي الشهرية غير منتظمة. أعطوني دواءً مصحوبًا بكثير من الآثار الجانبية التي كان من الصعب جدًّا التغلب عليها. وبدأت في تناول حبوب منع الحمل، بالإضافة إلى شيء يسمّى "سيوفور"[٢] وكان لهذا المزيج تأثير مزدوج على مزاجي، وجعلني أشعر بالتعب الشديد طوال الوقت. وكان من المفترض أن تساعدني حبوب سيوفور على إنقاص الوزن عن طريق تنظيم مستويات الأنسولين غير المتوازنة بسبب المتلازمة.

كان الشهر الأوّل من تناول الدواء صعبًا. عانيت تقلبات مزاجية، وشعرت بالاكتئاب والغضب أكثر فأكثر، وأرهقني ذلك على المستوى العاطفي. وحتى الآن، تنهار أعصابي كلما يخبرني أحد المتخصّصين الصحيّين أنّني بحاجة إلى تناول حبوب منع الحمل مرة أخرى. عجزتُ عَن التحرّك أو فعل أيّ شيء أستمتع به في أثناء تناول الدواء، كما أنني لم أستطع تناول الطعام على الإطلاق بسبب الشعور بالغثيان طوال الوقت، وكنت آكل وجبة واحدة في اليوم وحسب، هيدا إذا أكلت. واستمرّ ذلك مدّة ثمانية أشهر، ما تسبَّب في كثير من حالات نقص الفيتامينات. واضطررت إلى إجراء المزيد من الفحوص بسبب ذلك، وأخذ المزيد من الأدوية لتغطية فقدان الفيتامينات.

وفي الوقت الحالي، توقفت عن تناول الأدوية بسبب نقصها،[٣] لكنني ما زلت أشعر بأنّ الأكياس تنفجر في منطقة الرحم عندما أتحرك أو أعطس. ولا يزال ذلك يؤثر على دورتي الشهرية ووزني، ولم أتخلص منه كليًّا. ومهما فعلنا، أشعر أننا لا نستطيع الوصول إلى الرضا والراحة في ما يخصّ متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات؛ فنحن إمّا نواجه آثارها الجانبية وإمّا الآثار الجانبية لعلاجها.

أخبرني الطبيب أنني قد أواجه صعوبة في الحمل أو في إبقائه حتى نهايته في المستقبل، وبكت أمي عند سماعها ذلك. وعلى الرغم من أنني لا أفكر في إنجاب أيّ أطفال الآن، إلّا أنّني ما زلت أرغب في أن يكون هذا الخيار متاحًا لي، وألّا أقلق بشأن هذا كما لو أنّ الحمل لم يكن صعبًا بما يكفي من تلقاء نفسه.

---

٢. يُستخدَم سيوفور Siofor وغلوكوفاج Glucophage والأدوية الأخرى التي تحتوي على المادة الفعالة ميتفورمين لعلاج داء السكري من النوع الثاني. وتتسبب متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات في مقاومة الأنسولين، وبالتالي ارتفاع مستويات الجلوكوز في الدم، ما يساعد الميتفورمين على تنظيمه.

٣. توقف استيرادات الأدوية بأنواعها كافّة بسبب الأزمة الاقتصادية التي يواجهها لبنان، وبسبب نقص العملة الأجنبية لدفع أجور المورّدين الأجانب. https://www.bbc.com/news/world-middle-east-57714304
انتهى هذا النقص في تشرين الثاني من العام ٢٠٢١ بسبب رفع الدعم عن الأدوية، وبينما يتوفر الدواء الآن، لا يستطيع معظم الناس تحمل كلفة شرائه.
thenationalnews.com/mena/lebanon/2021/11/16/lebanon-lifts-most-medicine-subsidies/
في أواخر ٢٠٢١، بلغت تكلفة حبوب منع الحمل في أيّ مكان من ١٦١,٣٨٧ ليرة لبنانية لحبوب منع الحمل "ياسمين" إلى ٢٨٢,٦٦٦ ليرة لبنانية لحبوب "ياز" وفقًا لقائمة الأسعار العامة لأدوية وزارة الصحة العامة المعدلة بتاريخ ٢٠٢١/١٢/١٣:
https://moph.gov.lb/userfiles/files/HealthCareSystem/Pharmaceuticals/DrugsPublic-PriceList/7-12-2021/WebMarketed20211207-2.xls
في حين كانت تكلفتها أقل من ١٠,٠٠٠ ليرة لبنانية قبل رفع الدعم.

فرح - الجمعة ١١ حزيران ٢٠٢١

في المرة الأولى التي سمعت فيها عن متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، كانت محادثة بين أمي وبعض أقاربنا حول إحدى بنات أقاربي. كانوا يستخدمون عبارة "عندها أكياس على المبيض" و"عندها ليفة على المبيض" وأنها كانت ضخمة جدًّا، وكان عليها إجراء عملية جراحية لإزالتها. واضطروا إلى فتح جلدها بدلًا من تصريف الكيس من خلال مهبلها لأنها كانت لا تزال عذراء، وبالتالي تركوا ندبة دائمة على جسدها، وأجروا العملية بشكل اقتحامي أكثر بكثير من الضرورة الطبيّة. وبدا هذا كلّه مخيفًا جدًّا بالنسبة إليّ.

وكنت في سنتي الأولى في الجامعة عندما اكتشفت أنَّ لديَّ حالة ذات صلة بالمتلازمة؛ قالت الدكتورة: "هيدي بداية المتلازمة" بس ما شرحتلي شو يعني. فكانت دورتي غير منتظمة. وأبلغتني الطبيبة أنَّ حالتي ليست بالضبط متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، بل قد تتطور لتصبح تلك المتلازمة. وما زلت لا أعرف بالتّحديد ماهيّة الحبوب التي وصفتها، إذ إنّها لم تخبرني أبدًا بأيّ تفاصيل، لكنّها كانت شيئًا هرمونيًا. لقد دمَّرتني هذه الحبوب حقًّا، على الرَّغم من أنَّ مدة العلاج استمرّت أسبوعين وحسب.

لطالما اعتقدت أنني مصابة بالاكتئاب، لكن بعد هذه الحبوب شعرت أنَّ ما كان لدي من قبل كان نعمة. لا أحد يحب الاستيقاظ وحضور الصفوف عند الثامنة صباحًا، لكنّني كنت أفعل ذلك على ما يرام حتى بدأت في تناولها. ما كنت عم بقدر قوم من التخت. وأتذكر في أحد صفوفي أنني كنت سارحة جدًّا في فكَري، وكان كل شيء كئيبًا ولم أستطع فهم ما قاله الأستاذ، ولم أستطع حتى رؤية أي شيء. كان كل شيء كَئيبًا للغاية. حاولت طرح سؤال ولكن في منتصفه توقفت موَقّتًا مدة دقيقتين، ولم يكن عقلي يعمل على الإطلاق، فلم أكن منغمسة في أيّ شيء بالتحديد.

ثم انتهى العلاج الأوليّ "للحبوب الغامضة" وبدأت بتناول حبوب منع الحمل، ولكنّني تركتها بعد شهرين من دون استشارة أيّ متخصّص في الصحة. وفي الآونة الأخيرة، كان عليَّ أن أعالج نفسي من تناول حبوب منع الحمل مرة أخرى، إذ لم تكن ثمّة فائدة من استشارة أيّ شخص، لأنّ كل ما سيفعله هو وصف الحبوب نفسها.

يافا - الاثنين ١٤ حزيران ٢٠٢١

إذا كنت أرغب في التفكير في الذكرى الأولى لديَّ مع جسدي، فإنَّ عقلي يعيدني إلى سن البلوغ. وطوال سنوات مراهقتي، لم أشعر بالراحة تجاه جسدي والشّعر فيه. لقد بلغت مبكرًا قليلًا وكانت دورتي الشهرية غير منتظمة. ما كنت عارفة ليش أو شو عم بصير.

في العام الماضي، علمت للمرّة الأولى أنني مصابة بمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات وكنت أبلغ اثنين وعشرين عامًا على الرغم من أنني ذهبت إلى الطبيب في الوقت الذي وصلت فيه إلى سن البلوغ

لاستشارته بخصوص عدم انتظام الدورة الشهريّة. حينها لم يقل لي سوى أنني أعاني مشاكل هرمونية. أتذكر ذكر "انسداد المبيض"، ولكن لم تُذكر متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات. في الواقع، عندما سألته عمَّا إذا كان هذا هو الأمر، قال لا، ولكن من المحتمَل أنني أعانيها منذ ذلك الحين. وبعد بضع سنوات، سيُؤَكَّد ذلك من خلال تشخيص اختصاصية صحّيّة.

لقد أجريت بحثًا عن الأعراض الخاصة بي في سنّ الثّامنة عشرة، وقرأت القليل عن المتلازمة قبل أن أعرف أنني مصابة بها. وحتى عندما قيل لي أنني مصابة بها، فكّرت: "حسنًا، لكنني ما زلت لا أعلم بالضبط ماذا يعني ذلك بالنسبة إليّ". وما زلت أجهل كيف تُترجم إلى العربية. وأعتقد أنَّ ذلك من الأمور التي لا نتحدث عنها، ومن الصعب عليّ أن أجد المفردات لأتحدث عن جسدي باللغة العربيّة.

لقد مررت بتجربة مع إحدى زميلاتي في الجامعة التي تعاني متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات أيضًا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أجري فيها محادَثة عن الأمر مع شخص ما. ولم أكن أعلم أبدًا أنها شائعة لهذه الدرجة. وكانت تلك المحادَثة التي ولّدت المزيد من المحادَثات مع الصديقات الأخريات اللواتي يمررن بالتجربة نفسها بمَنزلة نداء إيقاظ، مفاده أنني لست وحدي في هذه التجربة. ومن أحد الأشياء الشائعة التي تظهر في خلال هذه المحادَثات هو أنَّ متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات لا تؤخذ على محمل الجدّ بما فيه الكفاية، سواء من الأشخاص الذين/اللواتي يعانون/ينها أنفسهم/هنَّ أم بين المتخصّصين الصحيين، ويرتبط ذلك بعدم دراستها جيّدًا. ويسود أيضًا الكثير من الإحباط حول العلاج الوحيد المقدم، ودومًا ما يكون حبوب منع الحمل، وحول سبب إعطائنا هذه الحبوب عشوائيًّا في كلّ شيء تمرُّ به المرأة، بالإضافة إلى عدم نشر الوعي الكافي حولها.

في المرة الأولى التي تناولت فيها هذه الحبوب، كان ردّ فعلي رهيبًا؛ كنت أبكي كثيرًا وأشعر بالغثيان الدائم. وكنت أكابد أيضًا تقلبات مزاجية مزعجة، ولكن لكي أكون منصفة، كنت أعاني الاكتئاب قبل تناول الحبوب، ولم أكن أعلم أنّها قد تزيد الأمر سوءًا. وما لم أكن أعرفه أيضًا من قبل، هو أنَّ متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات نفسها تعزّز حالَتَي الاكتئاب والقلق.

ولم يكن الاختصاصيّون الصحيّون الذين ذهبت إليهم يتكبَّدون عناء شرح أيّ شيء عن أيّ شيء، من أعراض متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات إلى الآثار الجانبية للعلاج. لقد قرأت الكتيب الذي يأتي مع حبوب منع الحمل بدافع الفضول واكتشفت ما أعرفه بمفردي؛ فالشيء الوحيد الذي كان يهمّ الطبيب هو إخباري بعدم القلق بشأن الخصوبة، وبأنني سأتمكن من إعطاء أمي الأحفاد الذين تريدهم، لكنّ الخصوبة لم تشكّل مشكلة بالنسبة إليَّ على الإطلاق. وشعرت بأنَّ لا مكان لي في هذه المحادَثة كشخص خارج "وظيفتي الإنجابية"، فقد أردت أن أشعر بصحة جيدة ولم أكن كذلك. ولم يكن الطبيب متعاونًا جدًّا بشأن بعض الأمور أيضًا عندما كنت أشتكي من الآثار الجانبية للدواء، ما جعلني أيضًا أشعر بتوعُّك.

دفعني هذا كلّه إلى تجربة أنواع مختلفة من حبوب منع الحمل قبل الإقلاع عنها بالكامل.

مروة - الثلاثاء ١٥ حزيران ٢٠٢١

بصفتي شخصًا عابرًا، لم تكن علاقتي بجسدي رائعة أبدًا. فالنشأة مع الجسد الخطأ قاسية جدًّا. وليس لديَّ ذكريات محدَّدة حول تلك الفترة. ولم أفهم ما كان يجري. وشعرت كأنني صبي طوال الوقت ولم أفهم كيف.

اكتشفت أنني مصاب بمتلازمة المبيض المتعدّد الكيسات بعد ذهابي إلى المستشفى عندما كان عمري ستّة عشر عامًا. كنت في الحمَّام، وأصبت فجأة بنوبة من انخفاض ضغط الدم، وشعرت بأنني على وشك الإغماء. اتصلت بوالديّ وساعداني لأقف مجدَّدًا ولأذهب إلى المستشفى. قضيت ثلاث ساعات هناك، واعتقدوا أنني مصاب بالتهاب الزائدة الدودية لأنَّ الأعراض كانت مماثلة لتلك التي كنت أقاسيها مع الكيس الممزّق. انتهى بي الأمر بالنوم ثلاثة أيام في المستشفى شعرت وكأنّها ثلاث سنوات. ولكن لم أسمع عن متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات قطّ قبل تلك الحادثة.

بدأت بتناول الأدوية، وكان الأمر جيّدًا بالنسبة إليّ. لقد أعطوني الكثير من الأدوية هيك مخلوطة إشياء ما بعرف شو هي، ربما ٤ أو ٥، لكنّني لا أتذكر حقيقة ما كانت عليه. وبقدر ما تُحدِث الآثار الجانبية، أنا أيضًا لا أذكر أنّ أيًّا منها أصابني.

أشعر بأنَّ متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات ناتجة عن الطعام الذي نتناوله، أو على الأقلّ يفاقمها. وسمعت من اختصاصيّ التغذية أنَّ شعيرية إندومي تسبّب أيضًا هذه المتلازمة. لست متأكّدًا من مدى صحة ذلك، لكنني بالتأكيد أعتقد أنَّ الأطعمة التي نستهلكها تشكّل عاملًا مُساعِدًا في تزايُدها بطريقة ما.

وختامًا...

القاسم المشترَك بين هذه القصص هو غياب الحديث عن متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، سواء بين أولئك الذين/اللواتي يعانون/ينَ منها، ومقدّمي الرعاية الصحيّة، أم بين الآخرين/الأخريات الذين/اللواتي يكابدونَ/دنَ أعراضها. لا توجد نقاشات ومحاوَلات لمعرفة معنى هذه الحالة وأسباب ظهورها في أجسامنا، وما هي خيارات العلاج المتاحة غير حبوب منع الحمل الهرمونية، وما الآثار الجانبية لهذه العلاجات.

تُظهِر القصص أعلاه مدى عزلة هذه التجربة. هي "مرض نسائيّ"[٤] آخَر يتم تجاهله، ولا تُفتح مجالات لسمَاع تجاربنا حوله وإشراكها في عملية البحث عن التعافي. هناك شعور بأنَّ الآباء يهتمُّون بأحفادهم الذين يتخيلونهم أكثر من صحة أطفالهم الحاليين. كما يهتمّ الأطباء بوصف الحبوب التي من شأنها

٤. نسائيّ لأنه يصيب الأشخاص ذوي/ذوات المبايض، أي أنه يتم تعيينهم/هنّ نساء عند الولادة.

المساعَدة في الخصوبة وحسب، وإعطاء الأهميّة الكبرى للقدرة الإنجابية للمريض/ة على حساب صحته/ها الجسدية والعقلية من دون إعطائه/ها أيّ تفسير لما تفعله هذه الحبوب بالضبط وما قد تكون آثارها الجانبية، أو إيلاء الحالات الصحيّة السّابقة أيّ اهتمام. وثمّة علاقة متبادلة بين غياب المحادَثات حول متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات وعدم الاهتمام بها من قبل المتخصّصين الصحيين ونقص البحث عنها. وطالما لم تتم تغطية هذه الأساسيات، فلن تُنشَأ مساحة لإجراء محادَثات أوسع حول علاقة هذه المتلازمة بأنظمة الغذاء العالمية.

يتداخل الطعام وأجسادنا، وتضعهما أنظمة الغذاء الحالية في وضعيّة التصادم. ولا يمكننا فصل أجسادنا عمّا نأكله، وما نأكله من مصدره، فالغذاء يدعمنا ويغذّينا. ويساعد هذا القوت نفسه أيضًا في الحفاظ على الكثير من التفاوتات والأمراض التي نعانيها نحن كأفراد، والكوكب. واحد من هذه هو متلازمة المبيض المتعدّد الكيسات، وهي متلازمة تعدّ مرَضًا وتُختبر كمرض. وفي الوقت الذي نحتاج إلى مساحات طبية نشعر فيها بالأمان، يخبرنا الطب القليل جدًّا عن هذه المتلازمة، بصرف النظر عن سماتها الفسيولوجية، ولا يقدّم لنا أيّ حلول حقيقية؛ فـ"الخطأ" في أجسادنا هو الخطأ في أنظمتنا.

لائحة المراجع

Azziz, R., Dumesic, D.A., & Goodarzi. M.O. (2011). Polycystic ovary syndrome: an ancient disorder? Fertility and sterility, 1544–1548.

Deswal, R., Narwal, V., Dang, A., & S. Pundir, C. (2020). The Prevalence of Polycystic Ovary Syndrome: A Brief Systematic Review. Journal of Human Reproductive Sciences, 261-271.

J., Rodgers, R., L., Suturina, D., Lizneva, J. Davies, M., K. Hummitzsch, H., Irving-Rodgers, F., & A. Robertson, S. (2019). Is Polycystic Ovary Syndrome a 20th Century Phenomenon? Medical hypotheses, 31–34.

K. Barthelmess, Erin, & K. Rajesh, Naz. (2014). Polycystic Ovary Syndrome: Current Status and Future Perspective. Frontiers in bioscience, Elite edition, 104-19.

R. Norman, J., Dewailly, D., S. Legro, R., & E. Hickey, T. (2007). Polycystic Ovary Syndrome. Lancet, 685–697.

Marwan, Mikhael, & Daou, Riwa. (2016). Poultry Industry in Lebanon – Facing Foreign Competition. Bank Report, Beirut: BLOMINVEST Bank.

Otter, Christopher. (2020). Diet for a Large Planet: Industrial Britain, Food Systems, and World Ecology. Chicago: University of Chicago Press.

Ravindran, Velmurugu. (2013). Poultry Feed Availability and Nutrition in Developing Countries. Poultry Development Review, 60-63.

Schauenberg, Tim. (2019, 09 03). dw.com. Retrieved 12 15, 2021, from https://www.dw.com/en/patents-on-plants-is-the-sellout-of-genes-a-threat-to-farmers-and-global-food-security/a-49906072.

WFP. (2020, 08 06). wfp.org. Retrieved 12 22, 2021, from https://www.wfp.org/stories/world-food-programme-scale-lebanon-blast-destroys-beiruts-port.

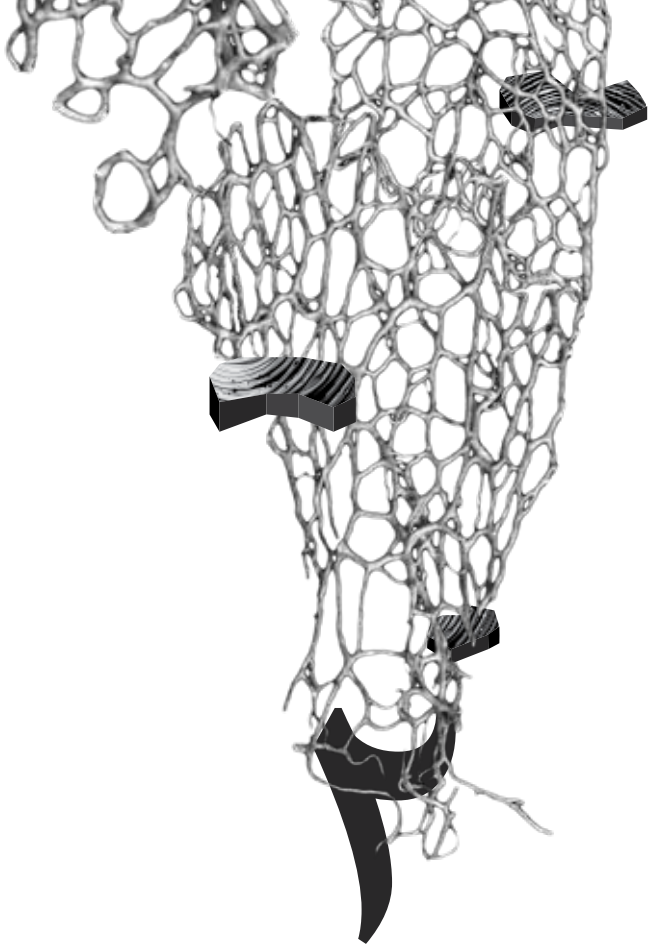

لين عون

ترجمة: ايلينا مهنا

طالبة تصوير سينمائيّ في الجامعة اللبنانية، تعمل كمخرجة فنّية مستقلّة ومساعدة مخرج بدوام كامل. في الآونة الأخيرة، اكتشفت حبّها لفنون الوسائط المتعدّدة الّتي تشمل الفنّ المفاهيميّ أو الأداء الفنّي على وجه التّحديد. تطمح لين إلى أن تكون فنّانة وسائط متعددّة، تعكس قوّة روح المرأة وجسدها ووجودها وعلاقتها بالطّبيعة، عبر استخدام طرق مختلفة مثل التّصويرالفوتوغرافيّ والفيديو والتنصيبات والفنّ الرّقميّ.

إلى الطفلة داخلي

هذه الصورة هي انعكاسٌ لإدراكٍ انتابني، عندما اشتريت كيسًا من الكركديه المجفّف.

نشأت في الكويت، في بيئة محافظة إلى حدٍّ ما. ومنذ حوالي خمس سنوات، انتقلت وأمّي وإخوتي إلى لبنان، من دون والدي. شكّلت تجربة البدء من جديد، في بلد مختلف، عبئًا بالتّأكيد. كنت في السّادسة عشرة من عمري والابنة البكر لأهلي. لم أفكّر مطلقًا في أنّني سأواجه مرحلةً صعبة كتلك، لكنّني في الوقت ذاته شعرت بأنّني ولدت من جديد، لدرجة أنّني الآن لا أتذكّر كيف كانت حياتي قبل ذلك كلّه. هذا التحول دفعني لأصبح أكثر وعيًا لذاتي كأنثى وحبًّا ولطفًا معها.

ولكن لنقفز سريعًا نحو الحاضر، أي منذ حوالي أشهر، حين ذهبت مع والدتي إلى أسواق صيدا الشّعبيّة لشراء شاي الأعشاب. عند العطّار، أمسكت والدتي حفنةً من نبتة مجفّفة وسألتني إذا ما كنت أذكر ما هي هذه النّبتة وأين كنّا نحتسيها. قبل أن أتمكّن من الإجابة، قالت والدتي بحماسة: "لين، هيدي الكركديه". هي نبتة اعتدنا شربها في الكويت لتدفئة أنفسنا عندما كنّا نذهب للتّخييم. شخصيًا، أعرف النّبتة بمسمّاها الأجنبيّ (Hibiscus) على كيس الشّاي المغلّف، ولذلك لم أدركها بشكلها المجفّف عند العطّار حينها.

كان مشروب الكركديه يسحرني دائمًا بلونه الأحمرالمركّز. وبإحتسائه، خاصّةً خلال فترة الحيض، كنت أشعر بأنّه من نبتة ذات قدسيّةٍ خاصّةٍ بالنّساء.

أمّا بالنّسبة إلى ما لا تعرفه أمّي، فهو أنّ الذّاكرة الوحيدة الّتي أحملها عن التّخييم في الكويت، هي حين أتتني الدّورة الشّهريّة للمرّة الأولى. كان الجوّ شديد البرودة وجسدي يؤلمني، فشعرت أنّ الجزء السفلي منه سيتمزّق. لم أكن على دراية بـ "أعراض ما قبل الحيض". والمضحك أنّها كانت المرّة الأولى الّتي اعتقدت فيها أنّني أعجبت بشابٍّ، والمرّة الأولى الّتي شعرت فيها بقلق شديد بشأن مظهري، والمرّة الأولى الّتي أحسست فيها بتحوّل في شخصيّتي. كنت متحمّسةً لأنّني حصلت أخيرًا على الشّيء الّذي تحظى به الفتيات في سنّي، لكنّني كنت أجهل تمامًا طبيعة هذا التّغيير ومدى قدسيّته. أصابتني فرحةٌ عارمةٌ لأنّني قد بلغت سنّ الرّشد، حتّى بدأت تصيبني خيبات الأمل حول مفهوم الدّورة الشّهريّة، بسبب منظورٍ اجتماعيٍّ مغلّفٍ بالعيب، كانت على الشّكل الآتي:

"– لين، قولي إنّك مريضة.
– لين، ما تخلّي حدا يشوفك حاملة علبة الفوط الصحيّة، خبّيها بكيس نايلون أسود.
– النّسوان كتير بيعانوا، نيّالن الرجال ما بيقطعوا بكلّ هالقرف.
– شو هالقرف، غيروا الحديث."

إنّ إعادة تصوّرهذه السّلسلة من الذّكريات، جعلتني أدرك إلى أيّ مدى قد وصلت في رحلة اكتشاف ذاتي، وأنّ رحلتي كانت قائمةً على كسر التّنميط في مواجهة مستمرّة لأكون "نفسي". و أنّ رحلتي جعلتني محاربة تحاول اليوم شفاء الطّفلة الصّغيرة في داخلها، الطّفلة الّتي شعرت بالخجل من نضوجها.

إلى تلك الطّفلة الصّغيرة، أودّ أن أقول: "أنت بأمانٍ الآن ولن يؤذيك أحدٌ. أنت انعكاسٌ لدورة الحياة. فأنت الطّبيعة بهيئة إنسانٍ".

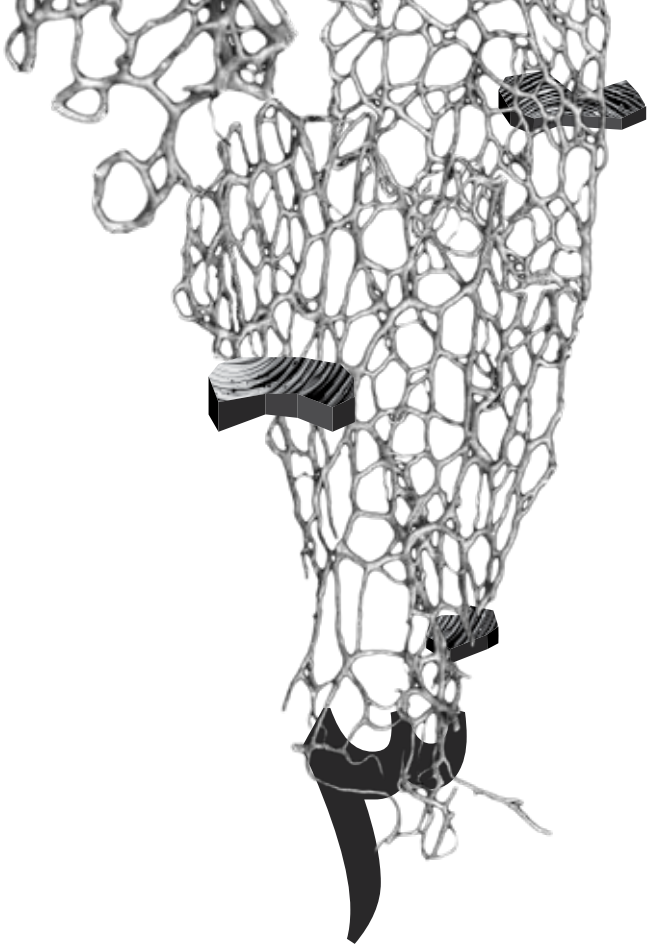

٢

إليزابيت صالح

أستاذة مساعدة في الأنتروبولوجيا في الجامعة الأميركية في بيروت.

ترجمة: سيلفانا الخوري

"باركينغ" في لبنان:
الثنائيات الكاذبة والتجارب في التشاركية

لا نعرف كم من الوقت بقيَت القطط تنازع قبل أن تموت. لكن عندما وصلتْ فاديا إلى عملها في ذلك الصباح ووجدت القطط تحت شجرة الصفصاف، كانت جثثها قد دخلت مرحلة التخشّب. في اللّيلة السابقة، وُضِعَ مبيدٌ للجرذان في "الباركينغ". قد يكون موظّفو الأمن هناك هم مَن وضعوه أو الرهبان الكبّوشيون. لكن لا يهم. فالقطط الغالية على قلب فاديا هي الّتي ابتلعت السموم التي دُسَّت بين قطع اللّحم المدهنة. كانت فاديا تنظر غير مصدّقة. صارت القطط جثثًا ممدّدة تحت الصفصافة، وعيونها الزجاجيّة الثاقبة مرفوعة إليها.[١]

يقول رفّول، صاحب محلّ المنتوجات الطازجة القريب، إنَّ الرهبان الكبوشيين فعلوها أخيرًا ووضعوا السمّ. ظلّوا طوال شهور يعلنون أنهم سيفعلون ذلك من دون أن يفعلوا. قالوا لرفّول إنَّ لا خيار لديهم، فقد كثرت الثعابين والجرذان وسوف تدخل الكنيسة عاجلاً أم آجلاً. كان رفّول مذهولاً بقدر فاديا تقريبًا، لا سيّما مِن موت القطّ "مايتي". وبرقت عيناه عندما قال: "كان مايتي يقتل الجرذان والصراصير".

قبل أيّام، صاحَ راهب كبّوشي برجل ينزّه كلبه ليحذّره من أنَّ سمًّا قد رُشّ على طول أجمة أزهار الكابّوسين المحاذية لموقف السيارات الكبير قرب مسكن الرّهبان. فأجابه الرّجل نصف مازح بأنَّ هناك ربما مشاكل أهم من الجرذان والثعابين. قال ذلك وهو يشير إلى الكتابات الحمر على الجدران المتهدّمة، والتي تقول: "الموت! الشيطان!". تنهّد الراهب ثم التفت إلى الرجل وقال بلهجة قاسية: "في كل الأحوال، ممنوع دخول الكلاب إلى هنا" فردّ الرّجل هذه المرّة: "ألهذا السّبب وضعتم السمّ؟"

في آخر "الباركينغ"، وقفت فاديا تنظر إلى الرجل وكلبه. كانت تُفرغ قدورًا كبيرة من بقايا عدس مطبوخ وأرزّ غير بعيد من شجرة الصفصاف، والقطط اللّاحمة تنظر إليها بخيبة. فاديا انزعجت أيضًا، ولكن من جواب الرّجل للرّاهب، ولم تتوانَ عن التعبير عن انزعاجها، بقولها: "أنت تقلّل من احترام أبينا الكاهن".

رفع الرجل كتفيه وقال: "لا أفهم لمَ يُمنع الناس من استخدام المكان، فلا سيارات هنا هذه الأيام". تجاهلت فاديا الرّجل وصبّت ما تبقّى من الطعام. ثم استدارت وتوجّهت صوب مكتبها حيث تعمل لدى منظمة مسيحية تؤمّن الإعاشة للفقراء. ومن نافذتها، ألقت نظرها على "الباركينغ" الفارغ. كان الفصل ربيعًا وزهور الكابّوسين البرتقالية القانية في أوج ازهرارها.

١. شكرًا لكل شخصٍ من روّاد الباركينغ، ولورشة المعارف، ولميمي خصوصًا.

لم يكن واضحًا تمامًا مَن يملك قطعة الأرض الشاسعة هذه المستخدمة كموقف للسيارات متعدّد المستويات في قلب بيروت. يقول الكبّوشيون إنهم يملكون قسمًا منه. وسرت إشاعات مفادها أنَّ مصارف عدّة لها حصّة فيه أيضًا. ورغم الضبابية المحيطة بموضوع ملكيّة "الباركينغ"، اتّخذ أحدهم في مكانٍ ما قرارًا بتأجير كل هذه المساحة الواسعة الخالية لشركة "باركينغ". هكذا وصلت أوّل شركة في نهايةً التسعينيّات لكنّها أنهت عقدها حين لم تحقّق أرباحًا تُذكَر. وصلت الشركة التي خلَفَتْها في صيف ٢٠١٩. كانت إحدى أكبر شركات "الباركينغ". أتت ومعها كثير من الخطط والفِكَر التجارية لإعادة الحياة إلى موقف السيارات العملاق هذا، فاتّخذت إجراءات أكبر لمنع الأشخاص والأطفال والكلاب وكل شكل من أشكال الحياة من الدخول إلى الموقع. فهل نجحت؟

لم يكن "الباركينغ" مكانًا فردوسيًّا. بالعكس، كان بمستوياته الثلاثة موقعًا متنازعًا عليه تتواجه فيه بُنًى أبويّة في جوهرها مع شبكات عفويّة من الروابط البشرية وغير البشرية. كانت هذه حال المستوى السفلي من "الباركينغ" خصوصًا. في الزاوية، نبتت شجرة تين تعيش في ظلّها سيّدة منذ ما لا يقلّ عن عقد من الزمن. كانت "سيّدة شجرة التين"، كما يُطلَق عليها أحيانًا، متروكة غالبًا لشأنها. ومع ذلك لم تكن وحيدة. فقد اعتاد الأطفال أن يدوروا حولها بدرّاجاتهم. ويواظب فريق كريكت بنغلادشي على تنظيم مباراة كل يوم أحد تقريبًا. وتمارس نساء فيليبينيات رقص الزومبا بحرص كبير في ساعات الصباح المبكرة. ثمّ يقطفن، في أيام العطلة، النباتات الصالحة للأكل التي زرعت بعضًا منها امرأةٌ سأشير إليها باسم "سيّدة الكابّوسين". كانت هي وغُلاة اللّياقة البدنية يشكّلون جزءًا من مجموعة عفوية يصعب تحديدها من النساء والرجال اللّواتي/الذين يأتين/ون بكلابهنَّ/هم لتلعب في هذا المكان النائي نسبيًّا الذي يسمّونه "باركينغ"، مستبدلين/ات حرف p اللّاتيني بالباء العربية.

ورغم أنَّ الشركة الجديدة تسلّمت مهامها قبل وقت قصير من بلوغ الانهيار المالي الزاحف في لبنان ذروته في ٢٠١٩، فقد بدت غافلة عنه. ذات يوم، وجدتُ أحد "مُديري" الشركة واقفًا على قمة التلة الصغيرة التي تنحدر باتّجاه المستوى السفلي من "الباركينغ". كان مكانه مرتفعًا بما يكفي لمراقبة العمّال المهاجرين وهم يزحفون على مضض تحت أغصان شجرة التين. أخرجوا كل أغراض "سيّدة شجرة التين" ورموها، فشكّلت كومةً بدأت تنحني ببطء باتّجاه الجدار الكلسي العتيق. كانت "سيّدة شجرة التين" تصرخ. لم يسبق أن سمعتُ صوتها يعلو على هذه الشاكلة. وعندما حاولتُ التدخّل، التفت "المدير" صوبي وأنذرني: "أنتم جميعًا سيحين دوركم من بعدها". "أنتم جميعًا" أي "نحن": النساء مع كلابهنّ، والأطفال مع درّاجاتهم، وفريق الكريكت البنغلادشيّ. قال لي بنبرة تقريريّة إننا كلّنا قذرون.

بعد بضعة أيّام، أطلقت شركة "الباركينغ" حملتها. راح موظّفو الأمن يصرخون في الناس ويتوعّدونهم، واقتُلعت الزهور. ثم بدأ التهديد بالسمّ قبل أن يُنَفَّذ أخيرًا. مع ذلك، ورغم الخطة الاقتصادية الواعدة بالنموّ، لم تأتِ السيّارات. كان ذلك ربما بسبب الجائحة والانهيار الاقتصادي. لكنَّ الرهبان ورجال الأمن واظبوا على حظر أي شكل من أشكال الحياة في فردوسهم الإسمنتيّ القاحل والأجرد. حاولوا محو كل ما يشير إلى التفاعل المرح الذي كان يحصل في قطعة الأرض هذه، وخنق التواصل اللعوب الذي كان في

الواقع محاولة لممارسة تجارب في التشاركية، وإن لم يكن مثاليًا.[٢]

التشاركية

في الصفحات التالية، سأحاول من خلال السرد الإثنوغرافي تبيان أنه يمكن عدّ بعض أنواع اللّعب واللّهو في "الباركينغ" نوعًا من ممارسة التجارب في التشاركية. في عملها التكويني، تميّز عالمة الأنتروبولوجيا سمر كنفاني بشكل تحليليّ بين الأماكن العامة وأشكال التلاقي فيها في السياق اللّبناني.[٣] فتشير إلى أنَّ ما بات يستقطب الباحثين والفنانين والناشطين أكثر فأكثر في لبنان للتفكير والحوار والنقاش هو المساحات العامة، لا فعل التجارب في التلاقي والتشاركية. ذلك أنَّ هذا الالتفات للأماكن العامة يسمح بالتصدّي للنهج المريع الذي يُقفَل بموجبه (وبشكل غير قانوني غالبًا) نوع محدّد من الأراضي المسمّاة "مشاعات" لإفساح المجال أمام الملكية الخاصة.[٤] نجد مثالًا عن ذلك في صيّادي راس بيروت الدالية الذين هُدّمت منازلهم بالجرّافات في ٢٠١٥.[٥] لكنَّ كنفاني تشير كذلك إلى أنَّ في حين تكشف الأماكن العامة عادةً عن أطُر علاقات الملكية وإمكان الوصول إلى الأراضي "العامّة"، فإنَّ فعل التجارب في التشاركية في هذه الأماكن يفتح المجال لـ"التفكير بالتركيب المعقّد للعلاقات الاجتماعية والبيئية والمادية والالتزامات المتبادلة، حيث يناضل الناس من أجل الصالح العام".[٦] تشدّد كنفاني على أنّ أسلوب الاستحواذ على الأراضي في لبنان لا يترك إلّا القليل من الأماكن العامة، لذلك فمن الأفضل برأيها التركيز على ممارسات التشاركية نفسها.

إنَّ التمييز بين الأمرين مهم في حالة "الباركينغ". يُزعم أنَّ الأرض ملكية خاصة. هذا على الأقل ما يؤكده موظّفو الأمن الموكلون تعليق لوحات تشير إلى ذلك. سرت كذلك إشاعات فحواها أنَّ المصارف استحوذت على الأرض بعدما تخلّفت مدرسة عن الدفع، مدرسة هُدم مبناها منذ وقت طويل. وفي جزء آخر من القصة أنَّ الرهبان الكبوشيين يملكون حصصًا فيها؛ فمطبعة الرهبان بأقواسها البديعة وحديقتها الغنّاء والتي لم يتبقَّ منها اليوم سوى أنقاض اكتست بالعشب، تشهد على ما يبدو على علاقتهم بقطعة الأرض الضخمة. إلّا أنه لم يكن واضحًا في يوم أي جزء منها بالضبط هو لهم وأي منها للمصارف. هذا إذا ما صحّت إحدى الروايتين. آمل أن أتمكّن يومًا ما من الغوص في تعقيدات مسألة الملكية هذه، لأفهم بشكل أفضل المنطق الذي شرّع على أساسه بعض المعنيّين لأنفسهم اللّجوء إلى أساليب عنيفة على غرار الطرد والتسميم.

---

٢. مفهوم "التشاركية" هو لسمر كنفاني. وقد ارتأيت استعمال هذا المصطلح لأنَّ هذا النص هو أيضًا حوار مع عملها. بناء على نقاشات مع كنفاني، نؤكد أنَّ هذا المصطلح قد لا يكون في شكله النهائي، إنما هو مفتوح للنقاش والتفكير. ومن هنا أيضًا، أستخدم مصطلح "تجارب في التشاركية" في مقابل (playful commoning) في النص بالإنكليزية.

٣. Kanafani 2021

٤. وثّق تجمُّع "مشاع"، على سبيل المثال، كيف أنَّ لطالما استولى مستثمرو القطاع الخاص، بشكل عنيف غالبًا، على المناطق الساحلية على امتداد لبنان. www.masha3.org

٥. على سبيل المثال: Saksouk-Sasso 2015

٦. المصدر السابق: ١٢

أمَّا الآن فسأتفادى مسألة الملكية بهدف التركيز على ممارسات التجارب في التشاركية لما يسمح به ذلك من معاينة سلوكيّات مخصوصة. وفي حالة "الباركينغ"، أتحدّث عن أفعال وتعابير وسلوكيات مرحة وعفوية على الأغلب، وأشكال ناشئة من الفردانية تسهّل العناية المتبادلة، لا بين البشر فحسب، ولكن أيضًا تجاه كائنات أخرى كالنباتات والحيوانات. تفرض التجارب في التشاركية نفسها بشكل يتخطّى قسوة المنطق النيوليبرالي القبيح الذي يكتسح جزءًا كبيرًا من الحياة اليومية في بيروت. من هنا، فإنَّ هذه التجارب تفسح المجال للأشخاص للتفاعل بطرائق تخرج عن نمط السوق.

لا تنحصر التجارب في التشاركية طبعًا في اقتسام الموارد. يبيّن باحثون على غرار فيديريتشي وكنفاني أنَّ التشاركية في الأماكن العامة مرتبطة بكوكبة من العلاقات الاجتماعية والسلوكيات.[٧] تعتبر فيديريتشي في أطروحتها أنَّ ممارسات التشاركية تكتسب كذلك أهمية تاريخية كبيرة؛[٨] فعند التحوّل من الإقطاعية إلى الرأسمالية في أوروبا، لم تكن عمليات تسييج المشاعات الأولى مجرّد استئثار بالأراضي المستخدمة جماعيًا؛ فهذا الاستحواذ على الأراضي الذي جرّد العديد من الفلاحين من أراضيهم، كان ذا طبيعة جندرية أيضًا، لأنَّ العنف الكاره للنساء دفعهنّ- هنّ وكل ما يُعَدّ مؤنّثًا - خارج الأراضي المشتركة إلى الحيّز المنزليّ.

تشدّد فيديريتشي أخيرًا على أنَّ لحظة التراكم البدئي المفترضة هذه، ليست هي اللّحظة الممهّدة للرأسمالية كما يعتقد ماركس، بل إنَّ أوّل إجراء رأسمالي كان التسييج الذي رسم الحدود بين حيّز التكاثر من جهة وحيّز الإنتاج من جهة أخرى، ونسب إلى كلّ منها أنماطًا معيّنة من الأجساد المجندرة ثُبّتت بوصفها أنثوية أو ذكورية. وقد شكّل هذا الإجراء في النهاية العلاقة بين الخاص والعام؛ فالتسييج لا يرسم فقط حدود الملكية الخاصة، بل يكشف أيضًا عن كوكبة مخصوصة من العلاقات الاجتماعية والسلوكيات. وبالنسبة إلى فيديريتشي، ترسم العلاقات الناتجة من فعل التسييج ثنائية جندرية لا بين أدوات التكاثر والإنتاج فحسب، بل بين الجسد والذات كذلك. في هذه النقطة، تستكشف فيديريتشي في جزء كبير من عملها التبعات الجندرية للمشاريع الرأسمالية المختلفة، ومن ضمنها المشروعان الاستعماري والنيوليبرالي اللّذان لا يهدفان إلى نزع الملكية فحسب، ولكن إلى تفكيك أنماط الإنتاج الاجتماعي الجماعيّة أيضًا. وبالتالي تصير التجارب في التشاركية عملية دمجٍ لحيّزَي الإنتاج والتكاثر.[٩]

---

٧. Federici 2003, Kanafani 2021

٨. Federici 2003

٩. إذا كان الإسكان قضية يجب أن تحمل النساء لواءها كما تشرح حسن وحيدر، فمن الممكن أن نبيّن أنّ التجارب في التشاركية هي قضية نسوية أيضًا. تعتبر حسن وحيدر أنَّ السكن (أو الافتقار إليه) هو جوهريًا قضية نسوية. يرجع ذلك إلى الطريقة التي تكشف فيها الأبوية الرأسمالية في لبنان عن التفاوت الاجتماعي من خلال سياسات التملّك السكني (٢٠٢١). تبيّن الكاتبتان أنَّ إمكان الدفاع عن الإسكان منوط بتقاطع طول أمد الملكية الخاصة مع الأبوية والسياسات النيوليبرالية المؤيّدة للمنفعة الخاصة (المصدر السابق). من هنا فإنَّ التفاوت الجندري والجنساني في تجارب الوصول إلى السكن (فضلًا عن الوصول إلى مساحة خاصة داخل المنزل الواحد) مثله مثل عمليات الإخلاء، يحكمه هذا التقاطع بين الرأسمالية والأبوية. إذًا إنَّ اعتبار التجارب في التشاركية في الأماكن العامة قضية نسوية، عائد إلى الطريقة التي يزعزع فيها ميادين محكومة من الأبوية والرأسمالية.

تجارب في التشاركية

عندما تنتقد فيديريتشي الطابع التقدمي الضمني للفكر التاريخي الماركسي، فإنّ تحليلها يلتقي بشكلٍ غير مقصود مع "الأناركية" الّتي تصفها إيما غولدمان بأنها ليست "نظرية للمستقبل تتحقّق بالوحي الإلهي".[١٠]

وعندما تعدّ التجارب التشاركية مجموعة من السلوكيات والروابط الاجتماعية من خارج الرأسمالية، فهي تقترب بذلك من "الفكر الأناركي" بوصفه إمكانًا "لخلق ظروف جديدة".[١١] مع ذلك، تبقى فروق أساسية بين أناركية غولدمان وعمل فيديريتشي؛ فبرأيي إنَّ شرط وجود المرأة عند فيديريتشي ليس جوهرًا طبيعيًا. أمَّا غولدمان فقد أرست طابعًا ثنائيًا للجندر عندما أشارت إلى أنَّ النساء يجذبهنّ الحمل والإنجاب بشكلٍ غريزيّ (إنَّما ليس الزواج).[١٢]

مع ذلك، يمكن العثور عندها على بعض فِكَر غولدمان التحليلية. برأيي إنَّ التجارب في التشاركية كما تتحدّث عنها فيديريتشي في جزء كبير من عملها، يمكن أن نجد فيها أشكالًا تلازم تصوّر غولدمان للفردانية – وهنا يخطر لي وصف فيديريتشي الطريقة التي أقامت فيها النساء المُستَرَقّات في الكاريبي حدائق بهدف إطعام أسرهنّ.[١٣] فهذا يمكن وضعه في خانة الإحساس الفطري والخلّاق بالذّات، وربما حتى المحبّ للّعب والمختلف عن "الفردانية الفظّة" التي تزدهر في ظلّ الرأسمالية.[١٤] (تعتبر غولدمان أنَّ هذا الحس بالفردانية مرتبط بشكل وثيق بالنظم السياسية والاقتصادية التي ترفع حماية الملكية الخاصة إلى مصافّ الناموس الأخلاقي الأساسي الذي يجب احترامه).[١٥]

إنَّ الفردانية بوصفها أمرًا عفويًا ومحبًا للّعب مهمّةٌ في سياق "الباركينغ". سأحاول أن أبيّن أنَّ مرتادي "الباركينغ" كانوا أشخاصًا من المشارب شتّى، لا يتشارك معظمهم حسًّا واحدًا بالذات. أمّا الرغبة في اللّعب فهي أمر مشترك بين البشر وبعض الحيوانات على الأقلّ. من هنا، ربما كان اللّعب وخوض التجارب أحد أهم الموارد المشتركة التي تقاسمها مرتادو "الباركينغ". كان ثمة أطفال يلعبون، وكلاب تركض لجلب القضبان، وحركات زومبا، وكُرات كريكت، وحفلات أعياد ميلاد، وكان ثمة حتى محاولات لممارسة اليوغا الضاحكة.

---

١٠. Day 133: 2010

١١. المصدر السابق.

١٢. Day 2010

١٣. على سبيل المِثال، 2003:113

١٤. Day 2010

١٥. المصدر السابق.

أظهرت عالمة الأنتروبولوجيا روبرتة هامايون في أحد أبحاثها أنَّ اللّعب جزءٌ أصيل من السلوك البشري.[١٦] وهو، بمختلف أساليبه، يستلزم أطرًا تخييليّة متعدّدة تسمح للأشخاص بالانتباه إلى إمكانات وقيَم تتجاوز الواقع العَمَلي الذي يعيشون فيه. هذا لا يعني أنَّ اللّعب غير مرتبط بالعالم كما نعاينه بالتجربة؛ فحسب تصوّر بايتسن، ينطوي اللّعب على بُعدٍ مُفارِق بوصفه حقيقيًا وكاذبًا في الأوان ذاته.[١٧]

المثال الأشهر الذي يعطيه بايتسن هو الكلاب التي تلعب "متظاهرةً" بأنها تعضّ بعضها بعضًا.[١٨] يتضمّن اللّعب هنا سرديّة عليا، حيث إنَّ الأشكال المختلفة التي يمكن أن يتّخذها، تفتح إمكانيّات لما يمكن أن يحصل فعليًا في العالم الحقيقي؛ فالكلب الذي لا يميل بشكل مخصوص إلى العضّ في الواقع ويفعل ذلك بشدّة خلال اللّعب، يمكنه ذات يوم أن يردّ العضّة بعضّة حقيقية خارج إطار اللّعب، أو ربما يمكن أن يتحوّل العضّ بالنسبة إليه إلى سلوك غير مؤلم أو عنيف. من هنا، قد يكون الواقع هو نوع العضّة التي نستشفّ في لحظةٍ معيّنة أنها في الحقيقة تَظاهرٌ بالعضّ.

إنَّ مفهوم اللّعب والكيفية التي يعيد فيها تأطير فهمنا للعالم ومقاربته مطروحان أيضًا في قلب أطروحة وينيكوت.[١٩] بالنسبة إليه، يشكّل اللّعب الطريق الأهمّ إلى الذات الحقيقية؛ هو طريقٌ كفّت عن إعاقته أحكام العالم الخارجيّ.[٢٠] أمَّا اللّعب كما تصوّره هامايون، فيمكن أن يتّخذ مضامين أكثر مراوغةً؛ ففي "الباركينغ"، على سبيل المثال، ظلّ الرهبان ورجال الأمن يدّعون طوال شهور أنهم وضعوا سمًّا في المكان. وعندما فعلوا ذلك فعلًا، ظنّ الجميع أنهم لا يزالون يلعبون لعبة التهديد.

فكيف تنتهك ألعاب التهديد هذه مسار التلاقي الهش بين مرتادي "الباركينغ"؟ إحدى النتائج غير المتوقعة كانت طرد سيّدة شجرة التين. في خاتمة هذه المقالة، نبذة عن حياتها أو ما أعرفه عنها على الأقلّ. أريد أن أشير هنا إلى أن لا أحد كان يعتقد أنّ المرأة يمكن أن تُطرد، على الرّغم من أنَّ رجال الأمن قالوا إنهم سيفعلون ذلك. حتى أنَّ أحدهم سألني من دون أن ينتظر إجابة: "كيف يمكن أن يسمح الرهبان بأمر مخالف للقيم المسيحية مثل هذا؟ هذا بَشِع". كان الأمر يفوق التصوّر، على الأقلّ بالنسبة إلى الذين يعيشون أو يعملون في محيط "الباركينغ".

على النقيض من هذه الألعاب البشعة والمؤذية التي تعزّز هرميّة "الفردانية المتوحّشة"، كان اللّعب بين مرتادي "الباركينغ" محاوَلةً أو تجارب لابتداع تصوّر عن موقف السيارات، بوصفه مكانًا أجمل من مجرّد موقف للسيارات. هنا، لم يعد اللّعب وسيلة لتدعيم طرائق المواجهة القسرية، بل كان مقاربةً موجّهة أكثر صوب إمكانيّة السماح ببروز إحساس بالذات خارج ما يفرضه الآخرون. كانت هذه فقط نماذج

---

١٦. Hamayon 2016

١٧. Hamayon 1972, Bateson 2016

١٨. المصدر السابق.

١٩. Winnicott 2005

٢٠. المصدر السابق.

من المرح، لحظات مضيئة خاطفة. ومع ذلك فقد منح اللّعب الأشخاص مساحات ليختبروا الإحساس بالحرية والاستقلالية. بناءً على ذلك، إنَّ التجارب في التشاركية تحيل إلى ممارسات أفسحت المجال للآخرين لكي يلعبوا داخل أطر تخييلية مختلفة، بدلاً من أن تمنعهم من ذلك.

وقبل أن نلتفت إلى أمثلة عن بعض التجارب في التشاركية، نقدّم ملحوظة عن المنهج الإثنوغرافي: فقد باتت الإثنوغرافيا تعني أمورًا كثيرة ومثلها المنهج الإثنوغرافي. بالنسبة إليّ، الفكر والمراس الإثنوغرافيان يستوجبان نوعًا من الالتزام عفويًّا ومبتكرًا وانعكاسيًّا[٢١] وجماعيًّا يتجاوز الحساسيات الفردية رغم حاجته دومًا إلى قدر من الحس بالفردانية.[٢٢]

في الواقع، لم يكن لقائي "بالباركينغ" وروّاده مقصودًا. فقد دخلته ذات يوم مصادفةً عندما كنتُ أنزّه ميمي، كلبتي المتوسّطة الحجم، ثم واظبتُ على ارتياده كل يوم، صباحًا ومساءً طوال خمس سنوات تقريبًا. وفيه كوّنتُ صداقات مع الناس والكلاب، ومع أحد القطط أيضًا: إنه مايتي، حبيب قلب رفّول. طوال سنوات لهوتُ مع أصدقائي البشر وغير البشر، وبكيت، وناقشت، وحزنت (يخطر على بالي هنا اليوم الذي طردت فيه ميمي كلبًا آخر من "الباركينغ". لم أعثر مجدّدًا على ذلك الكلب وصاحبته). الحياة حافلة بتلك اللّحظات كلّها. وهكذا هي الإثنوغرافيا. ومثلها، لم يكن "الباركينغ" يومًا مجرّد ميدانٍ بحتيّ. كان ميدانًا للعيش.

بالتواؤم مع روحية "الباركينغ"، يتشابك شكل الكتابة الإثنوغرافية الذي اخترته هنا مع قدرٍ من التخييل؛ فقد دمجتُ شخصيات متعدّدة ببعضها، وبدّلتُ اسم الرهبنة لكي أحاول بالشكل أن أرسم صورةً عن الروابط الوجدانية التي بُنيَت في "الباركينغ"، ولأعتّم في الأوان ذاته على الوجوه القادرة تلقائيًّا على انتزاع هذه الأواصر بشكل عنيف وتحطيمها. حاولتُ أن أخلق حيّزًا للغفليّة في مدينة يعيش فيها الناس بعضهم مع بعض بشكلٍ وثيق، وقد جرت محاولات كثيرة لتفريقنا.

في الأسلوب الذي أكتب به، ثمّة سعيٌ إلى اللّعب والتسلية؛ فمن خلال قصة سيّدة أزهار الكابّوسين آمل أن يتّضح أكثر لماذا الفردانية أمرٌ فطريّ ومحبّ للّعب. ونحن نعتقد أنَّ الفردانية في سعيها إلى المرح واللّعب إنما تحاول جعل العالم أجمل. يختلف هذا التجميل عن التجميل السياسي الذي يتحدّث عنه بنيامين، ويعتبر أنه في أساس كلٍّ من الرأسمالية والفاشية.[٢٣] (الجمالية أو الاستاطيقا مصوّرة في هذه الحالة كشيء خالٍ من السياسة). أمَّا الجمال الذي أتحدّث عنه، فيكمن في تسييس الاستاطيقي الذي يفضح حسب بنيامين التوحّش القاهر الملازم للاستبداد والطغيان. في القسم المعنون "القذارة" سوف نرى حالات أكثر من عمليات تسييس الجمالي (الاستاطيقي)، على غرار عملية إزالة براز الكلاب طوعًا من جهة، ثم تعليق أكياس من البراز احتجاجًا أمام كاميرات المراقبة في فعلٍ تجريبي لعبيّ من جهة أخرى.

---

٢١. أي أنه يقول عن الباحث نفسه بقدر ما يقول عن موضوع البحث (المترجمة).

٢٢. Ethnographic Collective 2021

٢٣. Benjamin 2008

من أجل جعل القبيح (أي المستبدّ والمتعسّف) جميلًا، تقتضي عملية تسييس الاستاطيقي أو الجمالي الاعتراف بأنَّ ثمة سبلًا متعدّدة لرؤية العالم. وفي "الباركينغ" لم يكن مسموحًا بأن تعتدي أساليب اللّهو والفرح المختلفة على لهو الآخرين وفرحهم. هذا بالمبدأ. وقد احتدمت أحاديث كثيرة (وحتى جدالات) بسبب التساؤل عمَّا إذا كان هناك تجاوزٌ للأصول في إعطاء كلاب الآخرين الحلوى، رغم أنّها لم تكن تجد مشكلة في هذه الحلوى التي تنالها مجّانًا. في القسم المخصّص للقذارة من المقال، أعاين اعتداءً أخطر على فرح الناس، يمارسه أشخاصٌ من خارج روّاد "الباركينغ" المألوفين. وفي النهاية، لا نهاية صريحة لهذه المقالة وذلك في محاولة منّي لأعكس صورة عن الروحية التي كتب بها هذا النص. إنه محاولة لتتبُّع الحياة في انسيابها. إنه بشكلٍ من الأشكال ناقص وغير مكتمل.

لكن ثمة مقطع ختامي لهذه المقالة، أحكي فيه قصة سيّدة شجرة التين التي عاشت ظاهريًّا حياة مخترعة ولكنها اختفت فجأة من دون أن تترك أثرًا. وحتى لو اخترتُ أن أجعل من قصتها القصة الأخيرة في المقالة، فسنلاحظ أنَّ هذا لا يعني مطلقًا نهاية قصة "الباركينغ" الملحمية. لقد اخترتُ لقصتها هذا الموضع المخصوص في نهاية النص، لأظهّر الألاعيب العنيفة التي تعرّض لها الناس والحيوانات والنباتات، لصالح الملكية الخاصة لهذا المكان، الذي يحدث أن يكون موقفًا للسيارات أحيانًا. كما أنّني أسلّط الضوء على الانهيار المالي الذي تزامن مع اختفاء سيدة شجرة التين، على أمل أن أنجح في إظهار أنَّ لعبة العنف هذه هي عملٌ مُبغَض استهدفنا جميعًا.

في الأجَمَة

عندما تحكي سيّدة أزهار الكابّوسين عن تقنياتها للعناية بالنبات، تفعل ذلك باللّغة العربية، ولكنها تستخدم الاسم الفرنسي لهذه الأزهار. وقد سمّيت capucine لأنّها تشبه ثوب الرهبان الكبوشيين ذا القلنسوة. وهذا المعنى لا يفوتنا؛ فعندما نكون منصرفين إلى نشاطاتنا المختلفة في "الباركينغ"، ينظر إلينا الرهبان حسدًا من غرفهم في البناية الكلسية التي تشرف على موقف السيارات. حاولنا تجاهل تلصّصهم، ولكننا كنا نواظب على إلقاء التحية عندما يمرّ أحد منهم سيرًا.

كنا أنا وسيدة أزهار الكابّوسين على علاقة طيبة. والعلاقة بين كلبينا كانت وثيقة أكثر بعد. ظللنا نلتقي كل يوم على مدى خمس سنوات، ولكنها بدأت تعتني بأزهار الكابّوسين قبل ذلك بكثير، أي منذ ثلاثين سنة حسب ما تقول. ذات يوم، وفي الشّتاء، وبينما كنتُ أنظر إليها تحرث التراب بحذائها المُستَعمَل، حدّثتني عن بدايات عهدها في الزراعة، فأشارت إلى بناية قديمة متداعية متاخمة لموقف السيارات. كانت هذه البناية على الأرجح إسطبلًا قبل أن تُهجَر وتصير مكانًا يرمي فيه الناس نفاياتهم (وذلك قبل أزمة النفايات في ٢٠١٥ بكثير).

رمت بذور الكابّوسين أوّل مرّة على الأكياس المتسبّخة.[٢٤] لا تعرف لمَ فعلت ذلك، لكنها تذكّرت أنَّ مشهد النفايات كان يزعجها، فاكتفت برمي البذور بين الأكياس، ثم قالت إنه عندما تفتّحت أزهار الكابّوسين توقّف الناس عن رمي النفايات. ومنذ تلك اللّحظة، صارت تتعمّد رمي البذور على تلال الركام المنحدرة التي تحدّ أقسام موقف السيارات الواسع. ولا يتوقّف عملها في فصل الشتاء، إذ تنهمك في جمع بذور الأزهار اليابسة، ثم تذهب برفقة كلبها – البدين بصراحة – لتجول في باقي أنحاء المدينة، وتنثر بذور الأزهار في الأماكن المهجورة.

كانت عملية التزهير هذه التي تضطلع بها تجلب لها الكثير من الفرح. عاشت في هذا الحي طوال حياتها. كبرت في المنزل الذي تسكنه حاليًا، ولم تغب عنه طويلًا إلّا مرة واحدة. كان ذلك خلال الحرب الأهلية عندما اضطرّت إلى الهرب مع والديها وأشقّائها وشقيقاتها. عادوا بعد عدّة أشهر ليجدوا كلّ شيء منهوبًا باستثناء فنجان قهوة صغير وفستان كانت قد خاطته لنفسها. لم تكن بارعة في الخياطة يومًا، لكنها تجيد الاهتمام بالحيوانات والنبات؛ شتلات السرخس تتدلّى من شرفتها، كما أنّها كانت تجوب المدينة كلّها بحثًا عن التوت والبرتقال وإكليل الجبل. وفي بداية الربيع تتوقّف أمام أشجار اللّيمون المتناثرة على طول أحد الأرصفة لتشمّ عطرَ زهرها. كلبها الحاليّ ينتمي إلى سلسلة طويلة من الحيوانات المشرّدة التي تبنّتها. جيوبها ملأى دومًا بوجبات صغيرة تعدّها من بقايا الطعام لتوزّعها على الكلاب الأخرى، لا سيّما المهمَلة منها.

ساعدها أشخاصٌ آخرون، وأنا منهم، في عملية التكثير هذه، رغم أنَّ أحدًا منّا لم يكن بمثل حرصها ومواظبتها؛ إنها هي سيدة الكابّوسين. كانت الأزهار أزهارها، ولكنها زرعتها ليستفيد منها الجميع وليأكلها بعضهم/هنّ، إلّا أنَّ استحسان الأزهار كان خاضعًا لقواعد مضمرة. وقد برزت قوانين التعايش هذه في المكان العام خلال فترة الحجر الذي فرضته جائحة كوفيد-١٩، عندما بدأ المزيد من الناس يستخدمون "الباركينغ" على أنه مكان عام. لم يكن هناك اهتمام كبير بالاستمرار بالعناية بالأجمات الخضر والبرتقالية. بالعكس، قُطفت الأزهار باقات باقات، وحملها الناس إلى منازلهم ليضعوها في مزهريات زجاجية رقيقة أو ليزيّنوا بها قوالب الحلوى المثلّجة اللّذيذة. لا مشكلة بالضرورة في الباقات أو في الحلوى المزيّنة، لكن وكما قالت لي جينيفر، السيدة الفيليبينية: "إنهم يأخذون من دون أن يعطوا". ولكن كيف يفترض أن تحصل المعاملة بالمثل؟

القذارة

كان أصحاب الكلاب من مرتادي "الباركينغ" يشكّلون مجموعة غير متجانسة، مؤلّفة بشكل خاصّ من النساء ومن بعض الرجال اللّواتي/الذين يأتين/ون بكلابهنّ/هم – أو بكلاب أرباب عملهنّ/هم – لتتنشّق الهواء وتلعب خلال ساعات الصباح والعصر الهادئة. وبينما تلعب الكلاب، يعتني أصحابها بموقف

٢٤. الّتي فترت أو خفّ حرُّها

السيارات. لم تكن أعمال التصليح هذه منظّمة بشكلٍ واضح، إذ كان يحصل أن ينزع أحدهم أكياس النفايات العشوائية المعلّقة بمسامير صدئة نتأت منَ الجدران المتداعية، ويحملها إلى مستوعب قريب للنفايات. وأحيانًا تُرفع أكياس البلاستيك وبقايا علب الطعام التي رماها في الليلة السابقة سائقون متهوّرون على طول الجدران المتداعية التي تحيط "بالباركينغ".

كانت جماعة محبّي الكلاب هذه شديدة التنبّه لموضوع البراز، وليس فقط ذلك الخاص بالكلاب؛ فمنذ وصول الشركة، تفاقمت مشكلة البراز البشري. ويؤكّد شهود عيان أنَّ رجال أمن الشركة كانوا يستخدمون الجزء السفلي من موقف السيارات ليقضوا حاجتهم. وهذا متيسّر في الواقع. لكن أيضًا، ولمّا كان الانهيار المالي في ذروته، بدا "الباركينغ" أنه يتحوّل إلى مرحاض لأولئك الذين صاروا بلا بيوت. بعضهم كان يأتي ليحصل على الطعام من الجمعية الخيرية التي تعمل فيها فاديا. لكنَّ أيًّا منهم لم يطل البقاء، على الأقل في النهار. ومع ذلك فالرأي الشائع كان أنَّ "الباركينغ" قد صار حمّامًا عامًّا لكثيرين ممَّن يمرّون به من موظّفي الشركات أو سواهم.

وكأنّ قذارة المراحيض لم تكن كافية؛ فقد كان مرتادو "الباركينغ" يصطدمون برجالٍ يجدون متعةً في التعرّي أمام الآخرين، لا سيّما أمام النساء، الفيليبينيات منهنّ على وجه الخصوص، اللّواتي ينزّهن كلاب "ماداماتهنّ". وهذا الميل الرجالي إلى جنسيّة معيَّنة مهم هنا، لا سيّما بسبب الاستسلام الإكراهي المفروض على عمّال المنازل وعاملاتها، على غرار الفيليبينيين/ات؛ فالنساء الفيليبينيّات مثلهنّ مثل فريق الكريكت البنغلادشي، هُنَّ من فئة العمّال المهاجرين في لبنان، لكن عندما يلعبون/نَ الكريكت في "الباركينغ" أو يرقصون/نَ الزومبا يكفّون/يكففنَ عن كونهم/هنَّ عمّالًا/عاملات لوقتٍ قصير. من هنا، فالسؤال الذي برز كان: "كيف نوقف الانتهاك العنيف لأوقات تسليتهم/هنّ؟"

حاولَتْ سيدة الكابّوسين أن تصرخ في أحد هؤلاء الرجال المتطفّلين. حتى أنَّ كلابًا أُرسلت على أمل إخافته وإبعاده. لكن عبثًا. كلّما اتّخذ مرتادو "الباركينغ" موقفًا جديًّا، ازداد تعنّت الرجل الكريه. لكن ذات يوم هُدّد واحد منهم بطريقة مازحة، إذ صرخ أحدهم: "إن لم يُخْفِ(ه) فسوف يُقطعُ له!" وراح الجميع في "الباركينغ" يضحكون، فانكمش الرجل على نفسه وغاب ولم يرجع قطّ. هل الضحك هو ما أخافه؟ طبعًا، لن نعرف ذلك أبدًا. ولكن ربما كانت هناك قوة جماعية في تجارب التشاركية.

أفاعٍ في الأجمات

لم يكن هذا التّمييز في المعاملة الذي يتعرّض له العمّال المهاجرون في أوقات لهوهم، يصدر فقط عن رجال يعكفون على سلوكيات منحرفة؛ فمنهم أشخاصٌ لا ينتمون فعليًّا إلى مجموعة مرتادي "الباركينغ" الاعتياديين، كانوا يقصدون المكان للتسلية وتبدر منهم سلوكيات فظّة. على سبيل المثال، كانت لعبة الكريكت تجري بعد ظهر أيّام الآحاد، في يوم عطلة الرجال البنغلادشيين. وخلال تلك الساعات، كان الجزء السفلي من "الباركينغ" يصير لهم، إلّا أنه كان يحصل أن يُطلَب منهم أن يتوقّفوا عن اللّعب. استخدم

أحد الرجال كلمة "قذرون" لوصف الرجال البنغلادشيين؛ هذا الرجل الذي يأتي بانتظام إلى "الباركينغ" لينزّه كلبه ولا ينظّف قطّ براز هذا الأخير، ادّعى أنَّ فريق الكريكت يترك خلفه العلامات التي يستخدمها لتحديد قواعد اللعبة. كانت تلك العلامات أغصانًا من شجرة التين القريبة.

لم تكن الدناءة سوى واحدة من أساليب كثيرة تكشف فيها العنصرية المقيتة عن وجهها. أمَّا مضايقات موظّفي الأمن فكانت أكثر فظاظةً، إذ كانوا يهدّدون العمّال المهاجرين بالشرطة. وأحيانًا، لم يكن يُسمح لغير اللّبنانيين بالدخول إلى "الباركينغ"، وفقط لكي يتمكّنوا من عبور الحيّ. ثم استعرت حملة الشركة من جديد.

في أيلول ٢٠١٩، أرسل مسؤولو موقف السيارات "المدير" ليشرف على العمّال الموكلين قلع كلّ زهور الكابّوسين. وقبل أن يتمكّن من الصراخ في وجهي ويطلب منّي مغادرة "الباركينغ" الخالي، سألته ماذا يفعلون، فقال إنه يجب نزع كلّ أزهار الكابّوسين. كما أكّد أنَّ الأفاعي تأتي لتضع بيوضها الكبيرة في الأجمات. وبينما كان يحكي، سُمع صوت امرأةٍ من بعيد. كانت هذه سيدة أزهار الكابّوسين وهي تنظر من شقّ في البوابة الحديدية المغلقة. كانت ترجو المدير كي يعفو عن بعضٍ من أزهارها، فشخر وصاح عليَّ مهدّدًا لكي أرحل.

في السنة التّالية، طرد موظّفو الأمن الجميع من "الباركينغ". أُقفلت البوّابات وسُدَّت المداخل الأخرى بأحجار الإسمنت والشرائط الشائكة، وعُلّقت إشعارات تُعلن لأهالي الحيّ أنّ الأرض ملكية خاصة. مُنع الجميع من الدخول، البَشَر وغير البشر. وحدهم الرهبان كان بإمكانهم اجتياز موقف السيارات للوصول إلى بنايتهم. ورُفعت كاميرات مُراقبة على الأعمدة. قال لي أحد موظّفي الأمن إنَّ ذلك لأخذ الحيطة والحذر تحسُّبًا لحدوث سرقات للسّيّارات. ولمّا أشرتُ إلى أنَّ الكاميرات موجّهَة صوب بوّابة دخول المشاة، أبدى امتعاضه وصرخ فِيَّ كي أخرج. عرفتُ أيضًا أنَّ مجموعة من محبّي الكلاب علّقَتْ، احتجاجًا على بشاعة المكان، أكياس براز كلاب على طول جدران موقف السيارات الفارغ. لا أعرف من هم هؤلاء المحتجّون، أيكونون تجمُّعًا آخر من روّاد "الباركينغ"؟

لكن تم تجاهل اعتراضهم، فنشف البراز وطارت الأكياس البلاستيكية، أو ربما نظّفها أحدهم!

إلّا أنَّ حملات إبعاد الحياة منَ "الباركينغ" شهدت فترات من الهدوء. امّحت المنشورات المرفوعة على الصفائح لتذكّر الجميع بأنّها لم تعد مقروءة، وبأنَّ الأرض ملكية خاصة. مرض الحرّاس أو تأخّروا في إحدى وظائفهم المتعدّدة الأخرى التي يشغلونها ليكسبوا أجرًا يسمح لهم بالعيش. وخلال هذه الفترات القصيرة من غياب المراقبة، كانت الحياة تبدو كأنها عادت إلى "الباركينغ". وعندما عاودنا ارتياده أدركنا أنَّ بعضًا من الحياة كان قد بقي فيه. انتبهنا إلى أنَّ هناك أزهارًا لا تزال على أهبة التفتّح، وإلى أنَّ الأفاعي لا تزال تقطن في الأجمات. فتساءلنا عمّا إذا كان الرهبان قد لاحظوها وهم ينظرون إلى حديقتهم الفردوسيّة.

خاتمة: سيدة شجرة التين

لمحتُ السيّدة المسنّة التي عاشت تحت شجرة التين. كانت تعبر أحد المستويات الوسطى لموقف السيارات. كان ذلك في أحد أيام تشرين الثاني المشمسة من العام ٢٠١٩. كانت ترتدي ملابسها الشتوية نفسها التي لم تبدّلها منذ السنة الفائتة. وكانت قد مرّت عدّة أسابيع على آخر مرة رأيتها فيها. ارتاح بالي وهتفتُ بها: "بونجور تانت!" فالتفتت ورحّبت بميمي، رفيقتي الدائمة. سألتُها كيف حالها، فهزّت رأسها وابتسمت وسألت عن أحوالنا من دون أن ترفع نظرها لحظةً عن ميمي.

كانت تحمل بيديها الكالحتين[٢٥] عدة أكياس بلاستيكية امّحت عنها حروف أسماء المخازن – وبعضها لم يعد موجودًا منذ زمن طويل؛ أكياس ملأى بالملابس، وتبعًا لردّ فعل ميمي، كان هناك طعام مُخبّأٌ فيها أيضًا.

تنهّدت السيدة المسنّة وقالت: "لقد أخذوا حقيبتي". أحنت ميمي رأسها. بدا وكأنّ السيدة المسنّة قد رأت في ذلك دعوة إلى المتابعة، فأكملت: "أجل، كان عندي حقيبة صغيرة. ليست صغيرة كثيرًا في الواقع لكنها عندي منذ عدة سنوات. وضعتُ فيها كل أموالي، كل مدّخراتي ودولاراتي". وعليه، استدارت وابتعدت شيئًا فشيئًا. بدا لي أنَّ قبقابها الكبير المهترئ يثقل مشيتها. كانت خطواتها بطيئة ومتأنّية.

ناديتها لكنها لم تعرني انتباهًا، أو ربما لم تسمعني. تابعَت المشي على الحصى. وعندما مرّت تحت إحدى الشجرات الباقية في "الباركينغ" المفتوح، استلقت ورقةٌ بهدوء على كتفها. بدا أنها لم تنتبه لها. بقيَت الورقة جاثمة هناك بخفّة. كان لمعانها يتعارض بشدة مع الياقة الكحليّة العالية. كنتُ واثقة مِن أنني لا أزال أرى الورقة تلمع، حتى عندما باتت سيدة شجرة التين نقطة صغيرة في البعيد.

تقول القصة إنَّ السيدة المسنة عاشت تحت شجرة التين أكثر من عقدٍ من الزمن. كانت تتحدّر من "عائلة محترمة". كانت زوجةً وأمًّا إلى أن تبدّل كل شيء بين ليلة وضحاها؛ استيقظت ذات يوم وراحت تجوب الشوارع وتلتقط العيدان. لم يعرف أحد السبب. عثرت أخيرًا على شجرة التين في "الباركينغ"، فرتّبت بطانياتها تحتها وصارت تمضي هناك لياليها والجزء الأكبر من أنهُرها. وكانت أكياس بلاستيكية مملوءة طعامًا، جُمع معظمه من النفايات الّتي تحيط بهذا السرير المرتجل الذي تقاسمته حكمًا مع الحيوانات السائبة في المدينة.

كانت شجرة التين تلك من النوع الذي لا تؤكل ثماره، من الإنسان على الأقل. أمَّا العصافير والجرذان فكانت مولعة بها. والثعبان الكبير المراوغ (كان ثمة واحد فقط على ما يبدو) مولعٌ بالعصافير والجرذان. أمَّا المرأة فبدت دومًا لامبالية بهذا كلّه، حتى بالناس الذين حاولوا غالبًا مساعدتها. كان صمتها أشبه برفض ضمنيّ للمساعدة. إلى أن حدّثتني عن حقيبتها. فهل يعقل أن تكون سيدة شجرة التين قد خبأت تحت الأوراق والفاكهة المتحلّلة حقيبة مملوءة بالدولارات؟

---

٢٥. اليدان المتعبَتان والمتشقّقتان مِن شدّة البُرودة

كانت قصتها مع الحقيبة أشبه بنذيرٍ لما سيأتي؛ فبشكلٍ أم بآخَر كانت المصارف في لبنان، ومن ضمنها المصرف المركزيّ، تتعامل هي أيضًا بدولاراتٍ وهمية. وبينما كانت سيدة شجرة التين تسألني عن حقيبتها، كان المودعون يلاحظون اختفاء أموالهم من حساباتهم المصرفية بشكلٍ غريب. كانت المصارف عاجزة عن ضخّ دولاراتٍ من لا شيء. في هذا الوقت، استمرّت سيدة شجرة التين تبحث عن أموالها في الأجمة المحيطة ببيتها. ثمّ، وبعد بضعة أشهر، طُردت من تحت شجرتها، تلك الشجرة التي ربما كانت فاتحةً للتلاقي. ولم أرَها مجدَّدًا.

○ ● ○ ● ○ ● ○

لائحة المراجع

Bateson, Gregory. (1972). Steps to an Ecology of Mind: Collected Essays in Anthropology, Psychiatry, Evolution, and Epistemology. San Francisco: Chandler Pub. Co.

Benjamin, Walter. (2008). The work of art in the age of mechanical reproduction (J. A. Underwood, Trans.). Penguin Books.

Day., E. Janet. (2010). The Individual in Goldman's Anarchist Theory in Loretta Kensinger, Penny A. Weiss (eds). Feminist Interpretations of Emma Goldman. Pennsylvania State University Press.

Federici, Silvia. (2003). Caliban and the witch: Women, the body and primitive accumulation. Autonomedia: Pluto.

Hamayon, Roberte. (2016). Why We Play: An Anthropological Study, trans. Damien Simon Chicago.

Hassan, Rana, & Haidar, Jana. (2021). Housing as a Feminist Cause: Stories from the Housing Monitor. Public Works, from https://publicworksstudio.com/en/articles/housing-feminist-cause

Kanafani, Samar. (2021). Commoning Mansion: Precarity as a Possibility. Working Paper #19. Arab Council for Social Sciences.

Saksouk-Sasso, A. (2015). Making Spaces for Communal Sovereignty: The Story of Beirut's Dalieh. The Arab Studies Journal, 23(1), 296–318, from http://www.jstor.org/stable/44744909

The Ethnographic Collective (Al-Masri, Muzna, Kanafani, Samar, Moghnie, Lamia, Nassif, Helena, Saleh, Elizabeth & Sawwaf, Zina). (2021). On Reflexivity in Ethnographic Practice and Knowledge Production: Thoughts from the Arabic World. Commoning Ethnography. 4(1).

Winnicott, D. W. (2005). Playing and Reality (2nd ed.). Routledge.

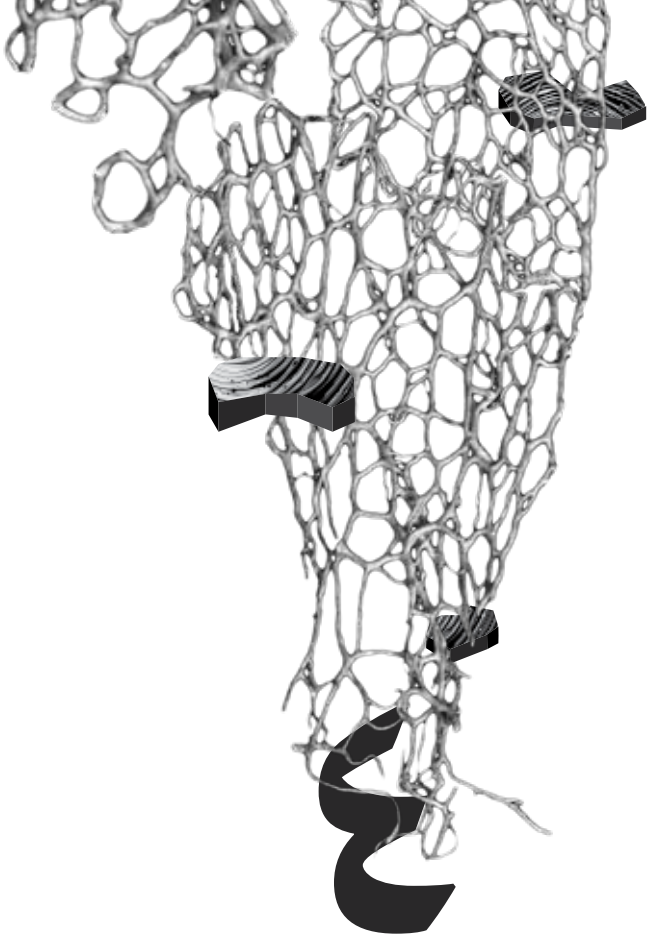

ريم جوديه

ترجمة: مايا العمّار

باحثة في الإعلام وكاتبة مقيمة في لبنان. حائزة شهادة عليا في دراسات الإعلام من الجامعة الأميركية في بيروت وشهادة جامعية في الاقتصادات الدوليّة من جامعة جورج تاون. يصبّ اهتمامها البحثي في التقاطعات ما بين الثقافة البصرية، والمساحات الحضريّة، ونظريّات تأثير العاطفة. تركّز أعمالها بشكل خاص على لبنان ومنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

أرشيفٌ من الأشباح

في ما يلي أرشيفٌ شخصي وتجريبي يبدأ مع الموت وينتهي به؛ الموت بأشكاله المتنوّعة، بغائيّته، ودنيويّته، وأوجاعه، ووعده بالتجديد. هو موت البيئات المُحيطة، وموت الفضاءات والأمكنة، وموت أساليب الحياة. يبدأ هذا الأرشيف مع نهاية رحلة شخصيّة تتشابك بداياتها مع حدودها ومشاهدها الحسّية والمجازيّة أكثر فأكثر. هي رحلة تنقيب - مع كلّ الجهد الذي يتطلّبه ذلك - حيث الذاكرة تُحرث لتُقتلع الأشباح وتُزرع التصوّرات البديلة. حتّى حين تتحقّق تلك التصوّرات -هذا إن تحقّقت في الأصل- فهي تنبثق من البقايا الشبَحيّة، أحيانًا بسبب تلك البقايا، وأحيانًا أخرى بالرغم منها، لكن دائمًا معها، وكأنّها طبقة ماكثة فيها.

أتصوّر هذا الأرشيف كجردة أمكنة ومشاعر ولحظات تركَتْ فيّ آثارًا ملموسة وغير ملموسة. يُلهمني في جردتي كتابُ جولييتا سينغ الرائع، No Archive Will Restore You (لا أرشيف سيرمّمك)، الذي تجمع فيه الكاتبة النظريّة بالسيرة الذاتيّة والنثر الشعري، تأسيسًا لضرورة خلق أرشيف خاص بالجسد. تنطلق الكاتبة من دعوة أنطونيو غرامشي إلى تجميع الآثار التاريخيّة ضمن جردة واحدة؛ تلك اللّحظات الصغيرة والكبيرة اللّامتناهية التي تعمل على إنتاج الفرد، فيعرف نفسه أكثر. إنّ أرشيف الجسد لدى سينغ هو "تناغمٌ، اجتماعٌ يبعث على الأمل، فعل حبّ في وجه تعويقات العقل. هو طريقة لمعرفة الجسد-النفس كشيء قد يصبح شيئًا آخر، وطريقة لمصارعة الوقت والمادّة، والانقلاب من أجل الذات لا ضدّها" (٢٩، ٢٠١٨). لا يركّز أرشيفي على الجسد فحسب، بل إنّه يتأمّل في الطرائق التي يتفاعل عبرها الجسد مع المشاهد المحيطة به والمناظر الخاصّة بالمدينة المُتغيّرة، ويُبرز كيف تعكس البيئة الّتي تحيط بي هويّتي كامرأة، وكيف تردّ لي تلك انعكاسَها.

الأهمّ من ذلك كلّه أنّ الأرشيف التالي هو مسعى للتصالح مع الخسارات التي تأتي بأشكال مختلفة، ومحاولة للتعامل معها؛ تلك الخسارات التي تجيء على مراحل، وتتأرجح بين الحداد فينةً والأمل فينةً أخرى، على سبيل المثال: خسارة البيت/الانتماء، وخسارة النبض الثوري، وخسارة البيئات الطبيعيّة والعائليّة، وخسارة النفس في المسار، ثمّ شجاعة لملمة ما تبقّى من ذلك كلّه. يجمع الأرشيف عددًا من النصوص التي إمّا تستحضر الذكريات الشخصيّة وإمّا تنصهر فيها وتتداخل معها. هذا الأرشيف "شخصي"، و"عاطفي"، و"عائم": "شخصي"، بفعل المشاعر التي تشدني إلى المختارات النصيّة التي تشكّله، و"عاطفي" لأنّ ما من مساحة أو زمن يحدّانه، ولأنّه يتألّف من آثار تاريخيّة منها ما بمقدوره أن يفيض، ومنها ما يمكث وقتًا طويلًا، ومنها ما ينتقل، فنصبح أمام نصوص يربطها خيط غير مرئي من الظهورات الشبحيّة. وأخيرًا، هذا الأرشيف "عائم" بفضل قاسم البحر والتجمّعات المائيّة المشترك بين المختارات النصيّة التي تشكّله.

- **ملحوظة حول الأشباح:** المقصود بالأشباح والطبيعة الشبحيّة في سياق هذا النص معانٍ عدّة تشتمل على: أغراض ماديّة وأمكنة ملموسة، ومعانٍ تسجّل حدّة الخسارة، والطرائق التي بها تمكث هذه الخسارة معنا طويلًا وتجتاحنا، عاكسةً حالةً من التعليق الموقّت حيث الأزمنة الماضية والحاضرة والمستقبليّة تبقى معلّقة. تُحيل الأشباح إلى ما ليس من هذا العالم، وتحيا في زمكانيّة (زمان–مكان) مختلفة من تلك التي نألفها. حين نعي ظهور الأشباح، ندرك أنَّ شيئًا ما ليس على ما يرام، وهذا الشعور بالذات هو الذي أرغب في استكشافه أكثر. وعادةً ما يربك ظهور الأشباح أو العناصر الشبحيّة الجسد والعقل خالقًا شعورًا بأنّ شيئًا ما يجتاحهما، الأمر الذي وصفته أفيري غوردون (٢٠٠٨) بكونه اللّحظة التي "تتكشف فيها الشقوق وأنظمة التشغيل" التي تُسيّر نظامًا معيّنًا (xvi)، والتي من خلالها ندرك أنّ الأمور لم تعد تسير كما ينبغي، وفي ذلك أعراض تُحيل إلى مشكلةٍ بنيويّة عميقة. من هنا، يأتي الأرشيف ليسأل، متى تظهر تلك الأشباح؟ وما هي ظروف انبثاقها والتداعيات الناتجة عنه؟

- **ملحوظة حول المياه:** ينظر الأرشيف إلى البحر والتجمّعات المائية كوسيلة تربط نصوصًا مختلفة ببعضها، بالمعنَيين الحرفي والمجازي. هي فضاءات تتيح التأمّل حول الذات والآخر، حول البيت والغربة، حول الماضي والحاضر والمستقبل. فما الذي يحدث حين تختفي بحورنا وأنهارنا؟ ما الذي يحدث حين تُفقد المساحات المألوفة بسبب الاستغلال والإهمال والتدهور البيئي؟ تُنشئ التجمّعات المائيّة، الشاسعة والمحدودة في آن، لأساليب العيش والرؤية والوجهة – أو بيئيّات الذات – التي تطوف بين ما هو حميمي جدًا وجماعي جدًا. لطالما مثّلت المياه محيطًا تتشكّل حوله المجتمعات وتعتمد عليه لتأمين حاجاتها الاقتصاديّة والبيئيّة والحضريّة. غالبًا ما ترسم المياه الحدود الوطنيّة والإقليميّة وتُملي على أطراف شتّى شروط العلاقات السياسيّة في ما بينها. تُستحضر المياه لدى المطالبة بالاعتراف بهويّات عميقة، إذ تسمح للمجتمعات أو للأفراد بالتعريف عن نفسها/أنفسهم من حيث علاقتهما بالبحر (روحٌ متوسّطية، ماضٍ فينيقي، إلخ). أخيرًا، تمثّل المياه عنصرًا مركزيًا في تكويننا وتكوين الأرض، وعنصرًا يتحكّم في وظائف أجسادنا. لذلك، هي عنصرٌ أساسي – بالمعنَيين البيولوجي والوجودي – لكينونتنا. من هنا، ربّما نجد أنّ المياه غالبًا ما تغدو فضاءً مكرّسًا لاجترار الفكَر وأحلام الفنّانين/ات وتأمّلاتهم/هنّ، فتبدو لنا كمساحة مألوفة جدًا، حتّى حين نخفق في إيجاد الكلمات المناسبة لوصف الحالة التي تعترينا أمامها.

في هذا الأرشيف الوجداني دعوةٌ للقارئات والقرّاء إلى زيارة أربعة نصوص والتأمّل فيها (ليس ضروريًا الالتزام بترتيب معيّن لدى تصفّحها): مقتبس من قصيدة إيتيل عدنان The Spring Flowers Own (1990)، وفيلم منية عقل القصير Submarine (2016)، وقصّة لينا مرهج المُصوَّرة Salam (2019)، ومعرض فيديو للمياء جريج بعنوان The River (2013).

يستكشف كل عمل من هذه الأعمال العلاقة بين الجغرافيا والمنفى والبيت، ويتأمّل في تداخل كل عنصر بالآخر وفي اللّحظات التي تؤدّي إلى انشقاق العناصر عن بعضها. هذا الأرشيف المنظّم ضمن خانات بيانيّة تتضمّن محتويات تتعلّق بذكرى شخصيّة أو بتجربة، هو في الحقيقة يسأل أكثر ممّا يجيب، ليضيء

بأسئلته على مساحات الصمت الكامنة فيه. أحاول عبر هذه النصوص التعامل مع الأشباح الخاصّة بي أيضًا: ماذا يعني أن أكبر مهاجرةً ثمّ أكتشف بلدي الأمّ – لبنان – كبيرة؟ كيف تتدبّر/ين طريقةً للعيش في البلد الأمّ ثمّ تضطرّ/ين إلى تدبّر طريقة لاستيعاب انهياره التدريجي؟ لماذا هي ثقيلة إلى هذا الحدّ خيبات احتجاجات ١٧ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠١٩ ولِمَ لا تزال أشباحُها تسافر معي أينما ذهبت، مصعّبةً عليّ زرع أي جذور جديدة في مكانٍ آخر؟ كيف نتعامل، نحن البشر الذين نحتلّ هذه الأرض، مع رابطٍ يختفي مع محيطنا الطبيعي، ومع وعيٍ متصاعد بالتدهور البيئي، ومع الذنب الّذي يرافقهما؟ أين فضاءات الشفاء، وما السبيل إليها؟

○ ● ○

النص الأول: ذوبان
١٦ تشرين الثاني، نوفمبر ٢٠٢١

Entry 1: Melting
November 16, 202

The gardener is planting
blue and white flowers
some angel moved in with me
to flee the cold
temperatures on earth are rising
but we wear upon us some immovable frost
everyone carries his dying as
a growing shadow.

- Etel Adnan -
The Spring Flowers Own

تفتتح إيتيل عدنان قصيدتها The Spring Flowers Own بالجملة الآتية: "The morning after/my death/we will sit in cafes/but I will not/be there/I will not be."
(في الصباح الذي يتلو موتي/ سوف نجلس في القهاوي/ لكنّني لن أكون هناك/لن أكون). من المحزن وغير المفاجئ في آن أنّني عدتُ وعاينتُ هذا النصّ بعد وفاة إيتيل عدنان منذ فترة وجيزة. عندما يصبح شخص ما غير موجود جسديًّا على هذه الأرض، هل جلّ ما يبقى منه هو أشباح ذواته الماضية، وذكرياته، وكلماته؟ منذ سنوات وأنا أتفاعل مع أعمال عدنان: تأمّلاتها، وفنّها، وشِعرها، وتكريسها للبحر كانت عوامل ساعدتني على الشفاء في الأوقات العصيبة. كانت تكتب من "الما–بين"، دائمةَ التأرجح بين "الشرق" و"الغرب" والانتماء إلى العالمَين انتماء غير مكتمل في معظم الأوقات. في تكوينها المركّب، وجدتُ ملجأً لتباينات أوضاعي كلبنانيّة ترعرعت في الخارج، وكعربيّة لم تجد مساحةً لها في أيّ من الدول العربيّة أو الأوروبيّة. وجدتُني أعود إلى أعمالها عقب انفجار بيروت في ٤ آب/أغسطس ٢٠٢٠،

حين أصبحت مدينتي مدينةً غريبة. احتجتُ إلى كلمات إيتيل وبحرها لأذكّر نفسي بأنّ الأمل لا يزال مرسومًا في آفاق بحرنا. ثمّ جاء خبر وفاتها كطبقة ألم إضافيّة بعد عامين شديدَي الصعوبة في العالم أجمع. ليتني أستطيع أن أخبرها أنّني في الصباح الذي تلا وفاتها، كانت لا تزال معي. لا يمكنني التأمّل في البحر من دون أن أفكّر بها.

في المقتبس أعلاه، تصف عدنان مشهد دفنها، هي الراوية العليمة الحكيمة التي تراقب أزهارًا متوهّجة مزروعة فوق قبرها. في المكان بردٌ قارس لدرجة أنّ الملائكة نفسها صارت تبحث عن ملجأ. في كلماتٍ قليلة، عرّجت عدنان على قضيّة التغيّر المناخي وارتفاع حرارة الأرض. أمّا تعبيرها "الجليد الراسخ" فترك فيّ انطباعًا دامغًا، إذ يذكّر بذاك الجمود الذي يستحضر قرب الموت الدائم ولادواميّة الحياة، وفي الوقت نفسه يفتح المجال أمام احتمالات بديلة أخرى. فهل يمكن أن يحمل الجليد أشباح الماضي العالق، كذكريات الطفولة التي صارعتها عدنان من خلال أعمالها؟ وهل يكون لنا الجليد درعًا يحمينا من عالم تزداد غربته ووحشيّته، أم هو أقرب إلى حمل يُثقل كاهلنا؟ هل يمكن أن تظهر ظروفٌ تليّن طبيعة الجليد الجامدة فتسمح له بأن يذوب؟ وفي حال وُجدت، هل يغرق الجليد الذائب في التربة ويعود إلى الأرض ليخوض حيواتٍ بديلة بعد الموت؟

النص الثاني: نفايات
١٨ آذار/ مارس ٢٠٢٠

Entry 2: Waste
March 18, 2020

شاهدتُ فيلم منية عقل القصير، Submarine، للمرّة الأولى في العام ٢٠١٨، بعدما تزايد اهتمامي بالحركات الاجتماعيّة في لبنان. يعالج الفيلم أزمة النفايات التي تفاقمت في العام ٢٠١٥ في بيروت، تحديدًا خلال الفترة التي غمرت النفايات سطح العاصمة بيروت إثر إقفال أحد المطامر الكبرى. دفعت الأزمة بكثيرين من الأشخاص إلى تنظيم تظاهرات في وجه الطبقة الحاكمة للتنديد بفشلها في حلّ المشكلة، تخلّلتها مواجهات عدّة مع الشرطة وتبعها استمرارٌ لغياب الحلول المستدامة. لم أكن في لبنان آنذاك، إنّما شاركتُ في احتجاجات تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٩ التي امتدّت إلى معظم المناطق اللبنانيّة للمطالبة بتغيير جذري في الواقعَين السياسيّ والاجتماعيّ السَّائدَين. أربعة أعوام فصلت بين موجتَي الاحتجاج، إلّا أنّ كلتيهما ربطها السأمُ الاجتماعي نفسه، والنظامُ الطائفي–السياسي نفسه الذي يهيمن على الحياة في لبنان ويشلّها، وأشباحُ التقدّم المنقطع. في المقابل، تشهد الحركات الاجتماعيّة تحوّلات عدّة مع مرور الوقت، حتّى حين يبدو أنّ نبضها الثوري قد خفت. فمكوّناتها تبقى وتتراكم وتنتج أشكالًا أخرى من الكفاح. قد تتراجع حركة المدّ والجزر، لكنّها تعود دومًا إلى الشاطئ.

يتعقّب فيلم Submarine "هلا"، وهي شابّة تأبى مغادَرة منزلها المُهدَّد بأزمة النفايات المحيطة به من كل حدب وصوب، علمًا أنّ جميع مَن حولها قرّروا الرحيل والإبحار إلى مكانٍ آخر. تعمّ الشوارع حيث تقيم "هلا" كميّاتٌ هائلة من النفايات. مهما حاولت أن تحمي بيتها منها، فإنّها تبقى عاجزة عن تلافي المشكلة

الكبيرة. يبدأ الفيلم بتقرير إخباري يتناول خطورة الوضع المستجدّ، ويتكلّم فيه رجل ينظر مباشرةً إلى عدسة الكاميرا على خطّتهً للخروج من البلاد محذّرًا من المطر الحمضي السّامّ الذي سيهطل قريبًا – علمًا أنّ المياه كان من المفترض أن تجلب الحياة لا الموت – ومن آثاره الكارثيّة على السكّان. يبكي الرجل من شدّة خيبته وغضبه، ويسأل: "مين بدو يفتح أبوابه لشعب إلو ٣ سنين غرقان بالزبالة؟" ويؤنّب الطبقة الحاكمة التي فشلت في إيجاد حلٍ للأزمة، ومعها الشعب الذي لم يستطع إحراز التغيير، ويقول، "لشو بدنا نبقى؟ ما حدا اتطلع فينا... بس تظاهرنا طنّشوا وكذبوا وقرطونا قتلة وقرّفونا هالعيشة. وكل واحد منهن ضب كلاكيشه ومشي. وعايشين أحلى عيشة".

ومع أنّ ستّة أعوام مرّت على إطلاق هذا الفيلم الروائي، إلّا أنّه لا يزال راهنًا اليوم إلى ناحية طبيعة الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة التي يعالجها في البلاد، حيث ظلّت الهواجس الطائفيّة–السياسيّة والبنيويّة هي نفسها مهيمنة على المشهد. يكشف عجزي عن التفريق بين الواقع والخيال في الفيلم، بالإضافة إلى راهنيّته الواضحة اليوم، أشباح وضع سياسي ثابت، لا يتغيّر، ويستمرّ في التغلغل في صفوف شعبٍ كامل. تتجاوز أشباح النموّ النيوليبرالي وسيادة الفساد وتوزيع الحصص الطائفيّة، الأبعادَ الزمكانيّة، إذ تعود بجذورها إلى ماضٍ بعيد، إلى تأسيس الدولة اللبنانيّة كدولة مستقلّة، لتتصاعد وتيرة ظهور هذه الأشباح عقب نهاية الحربِ الأهليّة اللبنانيّة. هي أشباحٌ معلّقة تسكن الأمكنة وتثقل الكواهل طويلاً، مثل "جليد راسخ"، لكن من نوع آخر. تُمثّل النفايات العواقب المادّية لنظام لم يعد قادرًا على العمل بالشكل الذي هو عليه، وهي شهادة حيّة على حجم الضرر الذي يلحقه البشر بالكرة الأرضيّة.

تتمسّك "هلا" بمنزلها بكلّ قوّتها، بمساحتها الخاصّة والحميمة، حيث تحتلّ ذكرياتها عن والدها كلّ زاوية في البيت تقريبًا. بالنسبة إليها، هو ربّما وجودٌ تشعر به، وشبحُه ذكرى شديدة الحضور تظلّ تحملها معها. صراعها هو صراعٌ أواجهه كل يوم؛ فأنا غادرتُ لبنان بحثًا عن حياةٍ أفضل في الخارج، إلّا أنّ إحساسي بالذنب تجاه رحيلي ظلّ ينهكني. وتبقى جاذبيّة البيت/الانتماء – بصرف النظر عن مدى هشاشة البنية أو "رَمْنَستها" (التطلّع اليها برومانسية) – جاذبيّةً قادرة على إغراق المرساة في عمق مياه الندم. أفكّر في العائلة التي اخترتُ تركها ورائي، وفي المدينة – بيروت – التي صقلتني. هل من العدل أن أتركها فقط لأنّها مكسورة، أم أنّ هناك أملًا، بل حتّى مسؤوليّة، في إعادة بنائها؟ أرى لبنان وأشعر به حيثما ذهبت – يجلس معي في كلّ مقهى أرتاده، وينضمّ إلى نزهاتي الصباحيّة والمسائيّة. بتُّ أرى كل حديقة عامة كفرصة ضائعة في بلادي، وكلّ محطّة ميترو كسؤال "ماذا لو كان لبنان على هذا الشكل؟"، وكل حانة في أي زاوية كخيبة ("لا يبيعون الصعتر هنا"). ثمّ أذكّر نفسي بأنّ الحياة يجب أن تستمرّ – لا يمكنني رَمْنسة كارثة لبنان، وفي الوقت نفسه، لا أجد نفسي قادرةً على الهروب منها. عليّ إيجاد الأدوات التي ستساعدني في اجتياز الأعاصير، لكن ما من خارطة ترشدني. قد يكون هذا الذنب، بتجليّاته شتّى، هو "جليدي الراسخ".

نكتشف في فيلم منية عقل أنّ "هلا" متمرّدة، وناشطة حقوقيّة على طريقتها الخاصّة. تزيّن حيطانَها التي نراها على الشاشة معلّقاتٌ حول إسقاط النظام وأخرى حول قضايا نسويّة. تريدنا أن نفهم أنّها حاولت، لكنّها فشلت في إحداث الفارق المرجو. عندما شاهدتُ الفيلم مجدَّدًا في آذار/مارس ٢٠٢٠،

شعرتُ بخيبة "هلا" ووجعها في أعماقي. وبعد احتجاجات تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠١٩ الصاخبة والمفعمة بالأمل، أحسستُ أنا أيضًا بأنّ أشباحًا لم أتمكّن من سكبها قد هزمتني. تذكّرتُ كتاب أروى صالح "المبتسرون"، وفيه تشكو فشل اليسار والحركة الطلّابية في مصر، وتقول: "نبحث في الحاضر 'اللئيم' عن ثغرة قد تنبعث منها أشباح الماضي – أشباح... هي على وجه التحديد 'وطنية'". وحين تغيّرت الظروف وتلاشى الدور القديم لليسار وقد "كان الدور القديم دورًا على أية حال... احتفظ أبناء جيلنا بأيقوناته تعويذة يتمتعون بها، يحفظون بها كيانهم المهدّد بالفناء في غياب الدور القديم..." (٦–٧). وعلى هذا النحو، تتمسّك "هلا" بمكانها، آملةً أن ينتج عن تعلّقها العنيد بمنزلٍ مهدّد بالاختفاء شيءٌ له معنى. أشباح الماضي هي التي تبقيها متعلّقة ببيتها وتحضّها على الرحيل فيَ آن: ذكرى والدها، وكفاحها الذي لم يفضِ إلى نتيجة، والنظام السياسي الذي يغرق البلاد، حرفيًّا، في النفايات.

مع بدء هطول المطر، وبعد نظرة طويلة وقاسية إلى منزلها، اتّجهت "هلا" إلى البحر باحثةً عن الوجهة الذي سيقصدها جيرانها وأصدقاؤها الذين قرّروا الرحيل. أخذت تسير، لكن في الاتّجاه المعاكس للطريق الذي سلكه جيرانها، من دون أن تحزم أيّ أمتعة. سارت مع خيبة حسيّة يمكن لمسها. تتوقّف هنيهة محاولةً التصالح مع حقيقة أنّ الآمال كلها ضاعت، ثمّ تعود لتنضمّ إلى قافلة الجيران والأصدقاء الّذين يسيرون، على ما يبدو، في اتّجاه حياة أخرى مختلفة، حاملين القليل من ممتلكاتهم، باستثناء "هلا" التي كانت تسير خالية الوفاض. نفهم من المشهد أنّ الحشد يمشي في اتّجاه البحر والقارب الذي سينقله إلى مكانٍ آخر، لكنّنا لا نرى المياه في الفيلم، إنّما فقط نسمع صوت الموج الذي يصطدم بصافرة القارب في الخلفيّة. يمثّل البحر، إذًا، فرصةً للمغادرة ومساحةً شاسعةً لآفاق وفرص جديدة. هل يمكن أن تُبلسم المياه المالحة جروحَنا؟ هل تستطيع استخراج أشباحنا منّا وإغراقها فيها؟

Submarine فيلم يسير على حبلٍ مشدود بين الأمل واليأس. يمكن النظر إليه كتجسيدٍ للمرحلة الانتقاليّة التي تناولها غرامشي، أو ربّما لتلك التي تليها، أي عندما يكون النظام القديم قد مات، والجديد عاجزًا عن الولادة، والعوارض السقيمة التي حذّر منها ملأت الشوارع كلّها.

النص الثالث: التنفيس/التطهّر

١٥ آب/أغسطس ٢٠٢١

Entry 3: Catharsis

August 15, 2021

إلى أين تلجأ/ين حين لا تعود أرض الانتماء جنّةً آمنة؟ ما الذي يحدث حين تُدمَّر الأمكنة التي خلتها بيتًا، وتُشوّه، وتُغرَّب؟ كنتُ خلال سنوات طفولتي أقيم مع عائلتي المهاجرة في الخليج، في دولةٍ لم تكن لتعاملني كفردٍ من مواطنيها أبدًا، مهما حاولت وكافحتُ. وعليه، يكمن القول إنني أدركتُ منذ سنّ صغيرة عبثيّةَ مفهوم الدولة القوميّة وحدودها والعنف الناجم عنها. بعد سنوات من مغادرتي الخليج، علمتُ أنّ المنزل الذي كنّا نقطن به هُدم لتحلّ مكانه منشآت تجاريّة، ما جعل تعلّقي بالمنزل الذي صنعته لنفسي في لبنان يتوطّد أكثر، على الرّغم مِن مشقّة العيش فيه الناتجة عن استمرار انقطاع الكهرباء يوميًّا،

وغياب شبكات النقل العام، وانعدام الاستقرار السياسيّ. في أعقاب انتفاضة ١٧ تشرين/أكتوبر وقمعها، شعرتُ مرّة أخرى بأنّني أفقد لبنان ومعه جهودي في إعادة بناء بيت أنتمي إليه. وعلى الرّغم من عنادي في التزام التمسّك، لم يعد بإمكاني أن أشعر بلبنان كمكانٍ مألوف؛ فالشوارع لم تعد تحوي ذكرياتي كما في السابق، والأماكن التي كنتُ أرتادها أقفلت، وشعورٌ بحزنٍ عام غير قابل للشرح أرخى بثقله على قلوب الناس والمباني، وأشباح المحاولات الفاشلة لإحداث تغيير سياسي ظلّت جاسمة... وفي تلك الدوّامة من الشعور وانعدام الوضوح، صرتُ أبحث عن ملجإٍ، وطريقة لِلتطهّر، فوجدتهما في كتاب لينا مرهج، "سلام – Salam".

يبدو كتاب "الرسوم" الذي نُشر في العام ٢٠١٩ كقصيدةٍ مُصوّرة. لا تتضمّن رسوم مرهج الكلمات، ما يترك مساحةً أكبر للتأمّل بصمت. يبدأ الكتاب بقصيدة قصيرة لمرهج، تضع فيها إطارًا لوحدتها ولعمليّة التنفيس/التطهّر التي ستتبعها. تنطلق الكاتبة من ولادتها خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة التي شكّلت محطّةً مفصليّة تبعتْها في مجمل مراحل حياتها. تظلّ الحرب تومئ إليها، وككائن أسطوري، تتبدّل أشكالها لتصوغ كلّ مرحلة من حياتها. في الثالثة عشرة من عمرها، كانت الطفولة التي طبعها القصف الإسرائيلي والموت المرافق له. وفي الثامنة عشرة، حدثت مجزرة قانا. وفي العشرين، كانت نيويورك حيث انتظرتها أحداث ١١ أيلول/سبتمبر. وفي التاسعة والعشرين، نشبت حرب تموز ورافقها الاجتياح الإسرائيليّ للبنان. إنّ أحداث العنف والحروب التي ظلّت تحاوطها رمَتها في حالة انتقالٍ دائم من مدينةٍ إلى مدينة ومن بلدٍ إلى بلد، بحثًا عن الانتماء والسلام.

"ومن وقتها، أركض. بريمن، دورهام، برلين والآن مرسيليا، البحر، الضوء الأمل.
بيروت على بالي والأمل يأتي مع الموج. أتخيلهم يتأملون البحر هناك، أولاد بحري المتوسط.
هنا بدأت أتعلم، أتعلم النظر إلى الموت، وجهًا لوجه."

يبدأ كتاب "سلام" مع رسمة لشابّة – الكاتبة – وهي تسبح في البحر وحدها، مستسلمةً لأمواج تركتها تحملها كيفما شاءت. حالةٌ من الاحتضان جعلتها تشعر بأنّها في اتّحاد مع محيطها. لكن في لحظة الانغماس تلك، اجتاحتها مشاهد العنف الساكنة في ذاكرتها، من جيوش قادمة وقذائف منفجرة ومدينة مدمّرة بشكل كامل (بيروت). رسوم أخرى أظهرت ضحايا حروب وأزمات يجتازون المحيط بأعداد كبيرة بحثًا عن حياةٍ أفضل، وفيها تذكير بأنّ البحر ليس دومًا آمنًا، إنّما غالبًا ما يكون معبرًا محفوفًا بالمخاطر بالنسبة إلى مجتمعات كثيرة تطلب اللجوء. وفي مقابل الرسوم التي تجسّد اللاجئين/ات، نرى رسومًا لعدد من الدبلوماسيّين، الأمر الذي يذكّر القارئات والقرّاء بالخطاب الدولي والإنساني المزيّف الذي يحيطُ بأزمات النزوح والهجرة العالميّة. في أحد الرسوم، نرى صورة الطفل السوري المُلقى على الشاطئ، آلان كردي. لكن في المشهد الذي تنقله مرهج، يعود آلان إلى الحياة؛ يقف ثمّ يمشي بعيدًا، الأرجح نحو مكانٍ أفضل لا يعرف عنف الحدود.

كتاب "سلام" هو بمنزلة تطهّر عاطفي وتمرين على صناعة العوالم البديلة. تجعلني صور مرهج الصامتة أتأمّل في الأسباب وراء إحساسي براحةٍ أكبر خلال وجودي في مدنٍ مجاورة للبحر، ووراء شعوري

بالانتماء إلى أيّ مكان في جوار المتوسّط، بصرف النظر عن الحدود الوطنيّة التي تفصل بين دوله. ربّما تمثّل لي المياه ملجأً ألوذ به حين أفقد إحساسي بذاتي وبمعنى الانتماء في حياتي؛ فالبحر دائم الحركيّة والتغيير، وفي الوقت نفسه، يبقى علامةً جغرافية ثابتة على كوكب الأرض. لا يطالب بالارتباط بأحد، بل يتجاوز حدود الدول الوطنيّة ليكون مساحةً تُصقَل فيها الأحلام الفرديّة والجماعيّة. هل ينتهي البحث عن البيت والانتماء حين نتعلّم كيف ننظر في وجه العنف، كما توحي لنا مرهج في قصيدتها التمهيديّة؟ هل بإمكان المياه المالحة أن تغسل الرواسب الماكثة بجلد الأطفال الذين وُلدوا في الحروب و/أو أُجبروا على مكابدة أعقابها العنيفة؟

النص الرابع: نهرٌ يجري في الداخل

٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٠

Entry 4: A River Runs Within

January 21, 2020

ثمّة مشاهد تترك أثرها في ذاكرة الفرد وتستحيل سمةً من سمات الحياة اليوميّة الدائمة. وهناك مشاهد أخرى تُمحى ببطء، فتختفي بشكل تدريجيّ من حقل الفرد الإدراكيّ إلى أن تُنسى وتُفقد بالكامل، ونهر بيروت نموذج من تلك المشاهد المنسيّة. هو نهر يبلغ طوله خمسةً وعشرينَ كيلومترًا ويمرّ في قلب العاصمة بيروت، ويصبّ في البحر الأبيض المتوسّط. وحسب ماجد يوسف وبشير أبو علي (٢٠٢٠)، يتألّف النهر من ثلاثة نطاقات أساسيّة: نطاق أوّل غمره مطمر نفايات إلى ناحية الواجهة البحريّة ومسلخ وميناء للصيّادين/ات، بموازاة شاطئ ومصبّ لوّثته المخلّفات الصناعيّة. ونطاق ثانٍ حضري يمتدّ على برج حمّود وسنّ الفيل والأشرفيّة. ونطاق ثالث للأنشطة الزراعيّة مفتوح بمجمله. مًا شكّل يومًا مصدر عيش ومكان تجمّع وتفاعل بين الناس، بات الآن مكانًا جافًّا تملؤه النفايات نتيجة سنوات طويلة من سوء إدارته مِن قِبَلِ الدولة، ونسب التلوّث العالية، وغياب التخطيط المدني المتجانس وأي إنفاذ جدّيّ للقانون.

في معرض تفكيرها في حال النهر واستحالة الوصول إليه، تغوص لمياء جريج في مفاهيم الانتماء، والمنفى، والحالة المعلّقة، والمساحات المُتنازع عليها من خلال معرض فيديو بعنوان The River (٢٠١٣)، وهو جزء من مشروعها الأوسع Under-Writing Beirut. الفيديو عبارة عن لقطة واحدة مستمرّة للنهر الجاف والملوّث، مع شرح صوتيّ لجريج نفسها. تبدأ جريج الفيديو بالجملة الآتية: "مرّ زمن طويل على انكسار شيء، على انفصالي عمّا كان الأقرب إليّ، وعلى كون هذا الانكسار نهائي". تفترض هذه الجملة الافتتاحيّة سؤالًا مهمًّا: هل تتحدّث جريج عن تجربتها الشخصيّة أم أنّها تتحدّث عن النهر؟ هل يمكن أن تكون أشباحُ مساحة مهملة ومَنسيّة متشابكةً إلى هذا الحدّ مع سيرنا الذاتيّة، لدرجة أن لا حدود يُمكن أن تُرسم بينها؟ يذكّر الانقطاع الذي تشير إليه جريج بأشباح غوردون- Gordon؛ النهر أو الشقّ في النظام الذي يصبح مكشوفًا على نحوٍ فاضح.

تتأمّل جريج في موقعها كلبنانيّة تقيم في الخارج، فتسقط إحساسها بالفقدان على نهرٍ جاف ومُهمَل.

في منفاها، تشعر كأنَّ شيئًا ما ناقصٌ دائمًا، لكنّ حدّة هذا النقصان تتلاشى في بيروت حيث "الضوء... يخفّف من حزنها وأفق البحر، مع شاطئه المشوّه، يحملها إلى زمن آخر". تبحث جريج عن ذاك "المكان الآخر"، حالُها حال مرهج، فتختار السفر بحثًا عن مكان "حيث الطبيعة شاسعة لدرجة أنّها تصبح قادرة على ابتلاعها"، وحيث بإمكان الأنهار والجبال والبحر أن تهدئها، فلا تعود مضطرة إلى التفكير بنفسها أو ببيروت. تربط جريج بشكل حميمي بين النهر وأشباح الماضي التي تلاحقها إلى بلدانٍ عدّة. أينما ذهبَتْ، يظلّ لبنان وسنوات اضطرابه الطويلة يلاحقانها، فلا تجد راحةً إلّا في الطبيعة وجوارها. تبحث عن مساحاتٍ تُغرق نفسها فيها. وحده الغرق الكامل يستطيع أن يشفي اضطرابها الداخلي.

لو كان بإمكان النهر أن يتكلّم، لربّما شكّلت كلماتُه مرآةً لمشاعر جريج. لكان النهر صلّى من أجل انغماسٍ مطلق، ومن أجل أن تملأه، مرّةً أخرى، مياه لها القدرة على إغراق ماضيه المتعثّر وغسل الأشباح عنه.

معرض الفيديو الذي أنتجته جريج هو في آن تعليق على النهر وحالة الإهمال التي يعيشها ودعوة إلى تخيّل مستقبل بديل لمساحة مهملة. يحمل نهر بيروت، كسائر أنهار لبنان، في فضاءيه الملموس والمُتخيّل، تاريخًا من العنف والإهمال المزمن. ويحمل أيضًا قصص مجتمعات بَنَتْ منازلها بمحاذاة مجرى النهر، لتستفيد من المياه التي تتيح العيش والأنشطة التجاريّة.

تنتقل هذه السير التاريخيّة من دون أدنى شكّ من النهر إلى البحر، فتطوف بقاياها على سطح المياه المالحة تاركةً آثارها على الأغراض والأجسام التي تسبح في البحر الأبيض المتوسّط. هل يمكن إعادة تشكيل نهر بيروت عن طريق احتمالات جديدة؟ وإذا كان ذلك ممكنًا، متى سيحدث، ومِن أجل مَن؟ وهل تظهر هذه المساحات المعلّقة – بين الماضي والمستقبل المتوقّف – فقط في سياق المنفى؟

يبدأ هذا الأرشيف بالموت وينتهي معه، وفي ما يجري مع النهر والبحر، والمكان والزمان، ويغوص في معاني الانتماء والمنفى والهويّة والذات منقّبًا عن الأشباح الكامنة في مسيرته. يخلق الأرشيف أيضًا مساحات للراحة والتأمّل، مُفسحًا المجال أمام متخيّلاتٍ بديلة وإعادة صناعة العالم. وبين حالات الموت المتعدّدة، تظهر سرديّة المُمكن.

لائحة المراجع

Adnan, Etel. (1990). The Spring Flowers Own & The Manifestations of the Voyage. Sausalito: The Post-Apollo Press.

Akl, Mounia, director. (2016). Submarine.

Aoun, Charbel Samuel. (2021). Le Salut. Site-specific art installation for Temporary Art Platform's "Art, Ecology, and the Commons" project.

Gordon, Avery. (2008). Ghostly Matters: Haunting and the Sociological Imagination. Minnesota: University of Minnesota Press.

Joreige, Lamia. (2017). The River, from https://lamiajoreige.com/work/the-river-2013/?m=videos

Merhej, Lena. (2019). Salam. Beirut: Samandal Association.

Sellin, Eric. (2002). Etel Adnan: A Cosmic Poet in Etel Adnan: Critical Essays on the Arab-American Artist (eds. Lisa Suhair Majaj and Amal Amireh). Jefferson, North Carolina: McFarland and Company.

Singh, Julietta. (2018). No Archive Will Restore You. California: Punctum Books.

Youssef, Maged, & Abou Ali, Bashir. Revival of Forgotten Rivers Through Recreating the Cultural Promenade: A Case Study of the Revival of Beirut River, Lebanon. WIT Transactions on Ecology and the Environment, 226, 725-737.

صالح، أروى. (١٩٩٧). المبتسرون: دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية. دار النهر للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

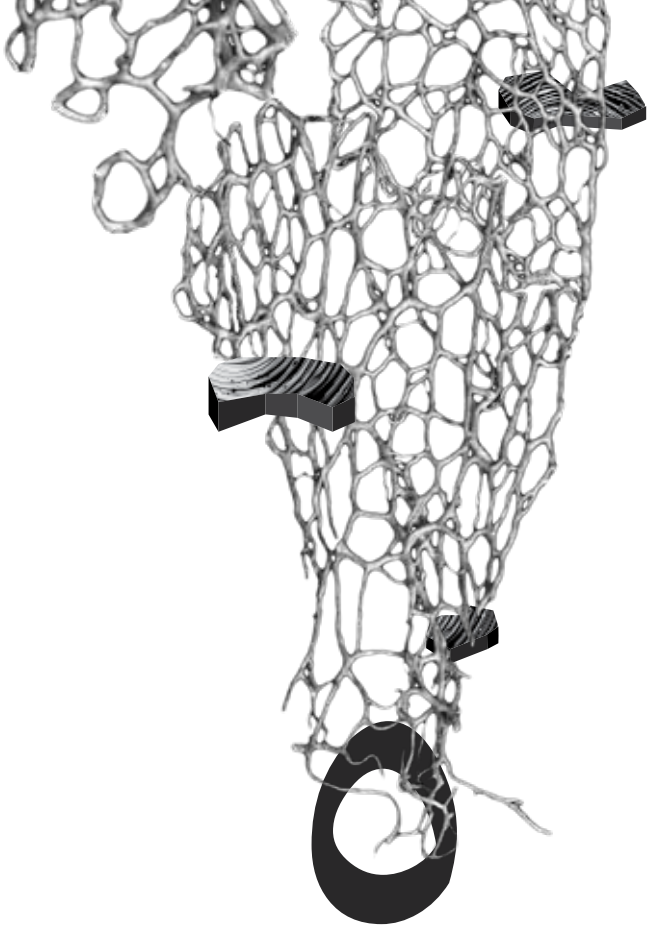

مهاد حيدر

طالبة ماجستير في الفلسفة، مهتمّة بالقضايا النسويّة، ومدرّسة إجتماعيّات.

نوستالجيا المُرجأ

الطبيعة والنساء في روايتَي "برتقال مُرّ" و"مريم الحكايا"

يرتبط تاريخ الهيمنة على النساء بتاريخ الهيمنة على الطبيعة، حيث كانتا لأمد ليس ببعيد في ديانات الخصب القديمة وبعض المجتمَعات الأموميّة منها، رمزي التوالد والتجدّد، فكانت الأرض هي الأمّ؛ الأمّ المقدَّسة والمدمِّرة في آن، التي يُخشى غضبها، في إشارة إلى خوف الإنسان البدائي من جموحها المفاجئ. ومع الثورة العلميّة الحديثة، أزيحت استعارة القداسة عنها (رغم الحفاظ على رومنسية مفهوم الأمومة)، وأضيفت السّمة البراغماتيّة إليها، لتصبح الأرض بمَن وبما عليها، آلة صمّاء ضخمة يجب استثمارها وإيجاد الطّرائق لأنتَجَتها، بهدف الوصول إلى التنمية المستدامة (باعتبار أنَّ النساء والطبيعة مَوردان قابلانِ للاستغلال). فَي الوقت ذاته، استمرت صورة الأرض الوحشيّة التي يجب كبحها وتقويضها وبالتالي السيطرة عليها وإخضاعها، وتم تكريس صورة النساء ككائنات عاطفيات يجب السيطرة على رغباتهن.

وبما أنّ لا يمكن فصل الأدب عن التصوُّر الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، كان لا بد من إثارة السؤال الإيكولوجي وعلاقته بالأدب، السؤال الذي أثاره وليام روكرت حول "كيفيّة الجمع ما بين هذين الحقلين المعرفيَّين: "الإيكولوجيا" وهي تُصنَّف من العلوم الدقيقة، وفي المقابل "الأدب" ومجاله الخيال والإبداع، واللّغة في حدّ ذاتها".[١] والأدب أحيانًا هو المرآة التي حاولت بعض النساء التعبير من خلالها بلغاتهنَّ وأدواتهنَّ عن علاقاتهنَّ بذاتهنَّ و ببيئاتهنَّ؛ إذَ نجد بعضهنَّ وقد حاولن، وإن بطريقة لا واعية، فهم تركيبة النظام البطريركيّ، مُستغربات ما يتعرضَن له سواء أنفسهنَّ أم البيئة التي ينتمين إليها، إشارة منهنَّ إلى أنهنّ يحملنَ بذور الرفضَ لما هو سائد في كتابات أقرانهن الأدبيّة المعاصرات لها، فيواجهنه بالنقد، باحثات عن عالمهنَّ الذي يطمحن إليه، وهي الفكرة التي تدفعنا إلى السُّؤال: هل عدم الرضا بالواقع ورفضه (وإن نسبيًا) هُما الدافع للكتابة؟ وكيف يرتبط مشروع كتاباتهنَّ بمشروع عالَم آخَر تُحتَرم فيه النساء والطبيعة (وهو ما يشابه فكَرَ النّسويّة البيئيّة)؟ فطوباويّة الأفكار منشؤها الرغبة بالتغيير. وانطلاقًا من هذا التساؤل الأوّليّ، كان اَختيار روايتَي "مريم الحكايا" للكاتبة علويّة صبح، و"برتقال مُرّ" لبسمة الخطيب، لأنَّ هذه النزعة التغييريّة ظهرت فيهما، وذلك في أكثر من موضع، بفرادة لُغتيهما، وارتباط سرديّاتهما بالطبيعة وفهمهما المغاير لها، وذلك على خلاف ما هو سائد في الإنتاجات الأدبيّة[٢] التي ترتكز على جماليات الطبيعة، وغيرها من السرديّات الشائعة التي تعزّز أنثويّة الطبيعة بالمنحى السلبي، وتعيد توليد المنظومة نفسها.

---

١. وليام روكرت، الفلسفة البيئيّة: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذريّة، ج٢، ت: معين رومية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٣٣، ٢٠٠٦.

٢. نضرب على سبيل المثال السرديّات الروائيّة التي تربط ما بين قدسيّة النساء أو الطبيعة "الطبيعة العذراء"، أو التي تربط المرأة بالصور المستهلكة "المرأة رقيقة كالوردة"، أو التي تحتوي على غزليات بصورة المرأة المثاليّة، أو التي تعزّز دور المرأة الرعائي، أو تذهب لأسطرة مفهوم الحب وغيرها ...

فكيف يظهر الترابط ما بين الأدب والإيكولوجيا في الرّوايتين ومدى مقاربتهما البيئية ومفاهيمهما حولها؟ ما الكيفيّة التي تعيد من خلالها الكاتبتان إدخال التصوّر البيئيّ إلى نصوصهما؟ وإلامَ ترمز الانفعالات الوجدانيّة في الرّوايَتَين بامتزاجها مع السرد البيئيّ سواء من خلال الأمثلة الشعبيّة، أم السرديات النسائية الشفويّة، أم الأشكال النوستالجيّة للطبيعة التي ترعرعتا فيها، وعَمَّ تعبّر تجلّيات أساطير النساء القديمة؟ وماذا عن تجربتهما المكانيّة سواء في القرية أم المدينة؟

هذا ما سنحاول ترصّده من خلال تحليل السرديات الأدبيّة المذكورة، عبر إظهار أدوات العنف وأشكاله ضد الطبيعة والنساء فيها، والتّقصي في تمفصلات النّصوص عن أنماط العلاقة بين النساء والطبيعة سواء كانت في انسجام واتفاق أم في افتراق، بتبنّي الموروثات الثقافيّة السائدة، والبحث عن الأفكار المشترَكة المتعلّقة بالإيكولوجيا بين هذه الكتابات النسائية، وتحليل مواضع الاختلاف بينَ الرّوايَتين السّابقتين.

سرديّات مختلِفة

بدايةً في "مريم الحكايا"،[٣] الرواية التي استتبعت بسلسلة من الروايات: "دنيا" و" اسمه الغرام". وكما في "ألف ليلة وليلة"، تستعيد علويّة صبح، وهي صحافيّة وكاتبة لبنانيّة، نسبها الحكّاء.[٤] تتخفى في سردها بصوت مريم؛ مريم وهي تروي، تتذكر، تعاتب وربما تغضب، في سرد شفهيّ يطال كل اللّواتي عرفتهنَّ علويّة من نساء، تتحدث باسمهنَّ، وتنقل خبراتهنَّ وتجاربهنَّ، تحكي وتحكي كأنها بئر ترمي فيه النساء ماءهنَّ بتعبيرها. مَن يبحث عن علويّة في الرواية كمَن يبحث عن مريم؛ تتقاطع كلتاهما، فتصيران شخصًا واحدًا، علويّة المولودة في بيروت، ذات الأصل الجنوبيّ القرويّ، ومريم بنت الأشرفيّة وبرج حمود. في مقابلة لها،[٥] تعدُّ علويّة صبح الكتابة إعادة اكتشاف للذات، فهي تعيد إنتاج نفسها بأدواتها، وترفض، بتعبيرها، أن تكتب بطريقة ذكوريّة. تبحث عن لغتها الخاصة، عن مريم التي لا تنفصل عنها، تقصّ مريم الحكايا وعلويّة تكتب، فتصير البطلة هي الساردة والكاتبة على حدّ سواء، تجمع وجوهها المتعدّدة لتقول إنّها هي بكل أبعادها. تتقاطع قصص النساء في الرواية، مثلما تتقاطع أحلامهنَّ ومخاوفهنّ وأنماط العنف الّذي يتعرّضن له. وفي سردياتهنّ تكون الطبيعة والمدينة هما المسرح لذاكرتهنَّ الحيّة، تتحرّك فيهما المَشاهد وتتنقّل الشخصيّات، وتتبدّل الإيحاءات، وتتبدى ديناميكيّة العلاقات من خلالهنَّ لتشكّل نواة الرؤية العامة للرواية. من هنا، لا تَظهرُ تمفصلات هذا التأثير للعين بشكل منفرد، بل كتركيبة كاملة تكون فيها البيئة بتأثيراتها جزءًا لا يتجزأ من السرد إذا ما تغيّرت تغيّر فحواه.

---

٣. علوية صبح، مريم الحكايا، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.

٤. تُرجمت رواية "مريم الحكايا" أيضًا إلى اللغتين الفرنسيّة والألمانيّة

٥. مقابَلة مع الإعلاميّ المغربيّ ياسين عدنان في برنامجه بيت ياسين الموسم الثاني، شاشة الغد.

وفي مقابل رواية "مريم الحكايا"، تتجلّى في رواية "برتقال مُرّ" للكاتبة بسمة الخطيب،[٦] وهي أيضًا كاتبة وصحافيّة من لبنان، الدّالات الأموميّة. تظهر الدّالات من خلال تعلّقها بجدتها وبحكاياها باختلاف السرد، فصوت البطلة المجهولة التي أخفتها حتّى آخر الرواية "مي" وكأنّه الماء، يعبّر عن حضور الكاتبة بذاتيّتها؛ فهي التي تقصّ سيرتها بطريقة المونولوجيّة: الفتاة الريفيّة التي تبحث كما في السرديّات التقليديّة عن حبيبها الغائب. هذا وتتجلّى صفات الأرواحيّة[٧] لديها في أكثر من موضع لتشير إلى حساسيتها ووحدتها، وإلى بحثها عن الموضوع المفقود. ربّما لم يكن الرجل هو المفقود وحده في حياتها بل هدفها منها؛ فالبطلة لا طموح لديها سوى البطل الموعود، مثلها مثل آلاف النساء الأخريات اللواتي ينتظرن فارس أحلامهنَّ. في حين نجد "تيم" (وهو حبيبها) يتنقّل بأهدافه ويلاحق أحلامه، أمَّا زهور النارنج وماء الورد اللّذان يشتمّهما (المشيران الوحيدان إلى وجودها) فليسا سوى حادث عرضي في حياته، بل محفّز لأعماله السينمائية، كأنّها في كواليس المَشهد، بينما هو المشهديّة كلّها في حياتها.

وفي عمليّة بحثها عن حبيبها تتمظهر أشكال رغباتها في أكثر من طريقة، ولكن ما الذي يمكن أن تقدّمه فتاة الرّيف إلّا الطعام؟ ففكرة المطبخ لديها تتجاوز الفكرة التقليديّة عن المطابخ التي تحصر دَور النساء في الطبخ كواجب عليهنَّ تأديته في سلسلة أعمالهنَّ المنزليّة. ليس الطبخ هنا نشاطًا اعتياديًّا يمكن تسخيفه، فالبطلة تجول في مطبخها على الأثاث، على محتوياته، تذكر تفاصيلها، وكأنّها تعيد البطلة إلى الواقع، إلى التصاقها بالمعيش في حين أنَّ ثمّة فجوة في السرديات الشائعة ما بين اليوميّ والسرد، كأنّهما كلٌّ في فلك منفصل. هذا وبتعبير كارول كونيهان: "إنّ دَور النساء السائد في إطعام الأسرة ملمح ثقافي عام في جميع أنحاء العالم ومصدر لسلطة النساء، وعليه فقوّتهنّ كثيرًا ما كانت تُستمَدُّ من قوّة الطعام".[٨] فهو مساحة لتمارس من خلالها النساء مهاراتهن بإعتبارها امتيازًا لهن،[٩] وليعبّرنَ عن أنفسهنَّ بدمج مكوّنات من الطبيعة وخلق وسيلة للاستمراريّة. وبالنّسبة إلى بسمة الخطيب، إنَّ المدينة ليست سوى المعبر المؤدّي إلى تحقيق رغبتها بلقاء مَن تحبّ، والباب الذي تخاف منْ وُلوجه وتهاب ما خلفه وتتشوّق لتَجاوُزه واكتشافه في آنٍ معًا. تعبّر "بسمة الخطيب" في الرواية عن الطبيعة وارتباطها بها بلسان بطلتها القادمة من الريف اللبنانيّ، صلتها بها أكثر عمقًا وانسجامًا، إشارة إلى حفاظها على هذا الترابط القديم، لذلك تُظهر أدواتها بشكل واضح هذا الترابط، وتعود للأرواحيّة كما لو كانت مسكنها الطفوليّ البدائي تستمد منها ما هو شافٍ لها.

٦. بسمة الخطيب، برتقال المر، دار الآداب، بيروت، ٢٠١٤.

٧. الأرواحيّة: هي مذهب من المذاهب الروحانيّة البدائية التي تعتبر أنّ لكل شيء موجود نفْسًا أو رُوحًا، بما في ذلك الحيوانات، والجبال، والأنهار...

٨. كارول كونيهان، أنثروبولوجيا الطعام والجسد، ت: سهام عبد السلام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢.

٩. فقد أعادت النّسويّة الاعتبار لعمل النساء المطبخيّ على أنّه مصدر خلق، وألقت الضوء على دور النساء الإطعامي الذي يمنحهن إمتيازًا. ويمكن الاطلاع على مقال " الإطعام كسلطة أموميّة"، مي عامر، للمزيد من التفاصيل.

التشابيه الطبيعيّة

يزخر كلٌّ من روايتَي "مريم الحكايا" و"برتقال مُرّ" بالتشابيه، وإن كان لفعل التماثل بين الأشياء هدف فهو المقارَبة من حيث بَواطن المتشابهَين والربط بما يساورهما من أحاسيس وانطباعات، وتحسّس الأثر الذي يتركه المشبَّه على المشبَّه به. والجدير بالمُلاحَظة أنَّ التشبيهات المستقاة من الطبيعة في الروايتين أكثر من التشابيه المستوحاة من أشياء أخرى، حيث يكاد النص يخلو من تشابيه إلّا بمكوّنات الطبيعة أو بالكائنات الحيّة فيها. ولعلّ الكاتبتين تحاولان بذلك بث "الروح" في ما أرادتا إيصاله، فلجأتا إلى أكثر ما يرمز إلى الحياة أي البيئة المحيطة بهما، فتختلف الموصوفات لتصير بحركيَّتها التي منحتاها إيّاها بديلًا للمشبَّه به.

نجد في رواية "برتقال مُرّ" سلسلة من التشابيه مثل: "مجعدي الجلد، كجلود سلاحف الحقل، ويتحرّكون مثلها" التي تخلّف الانطباع بالبطء والتجعيد، فتكون الصورة معبّرة عن واقعيتها. كذلك تقول سميّة وهي الراوية في "مريم الحكايا"، واصفةً نفسها عندما كانت طفلة: "كنت كالجرذ". هذه الألفة مع ما هو مُبغَض في الثقافة السائدة خاصة الجرذ بوصفه من الكائنات المثيرة للنفور والتوجّس، نجدها تتجاوز به المعنى المتداوَل حوله لتعطيه صفة العادي في موقعه البيئيّ. تقول أيضًا إنَّ "عددًا من الأولاد قد نبتوا كالفطر"، وإنّها "مثل عروسة الزرع، وهي زهرة برّية جميلة وطويلة الساق، وهي الزهرة الوحيدة التي تنبت وسط سَنابل القمح، لكنّها لا تمتلك رائحة..."؛ في هذين التشبيهين تتجاوز الفكرة قصديّتها الجماليّة لتعطيها الصفة الإنباتيّة، التعدّديّة "بالفطر"، ليُصبِحَ التشبيه مدخلًا لدرس في علم الأحياء وعلم النبات؛ وهو ما نلاحظه أيضًا في وصفها للنارنج، حيث تصف مراحل نموّها وقطافها بأدقّ التفاصيل حتى طرائق استعمالها طبيًّا، كذلك في وصف مراحل تَزاوُج القطط.

أمّا في رواية "مريم الحكايا"، فمريم تحكي حكاياتها وتستعمل لوصف كلامها تشابيه متعلّقة بالماء والانسيابيّة، كما تربط الجفاف بالسكوت قائلةً: "الكلام يمكن أن يجفّ كما يجفّ ماء النهر"، و"الحكايات تتجمّع كما يتجمّع الماء في البئر". وتصف الصمتُ الذي "كان يعيد نهر الأسئلة إلى داخل حلقي فأبتلعه وأنا أغصّ وأمتلىء بماء ذلك النَّهر". نجدها تسقط الحالة الوجدانيّة المضطربة لديها على الماء، ليأخذ أشكاله المتعدّدة من الجريان إلى الجفاف والتجمّع، وهي أقرب إلى فكرتَي الانبساط والانطواء في الحالة المزاجيّة المعكوسة. علاوةً على ذلك، لا يمكننا نسيان الدّالّ الأمومَيّ الذي يمثّله الرمز المائيّ، وعند الحديث عن دالّ أمومي لا نقصد العودة إلى التقسيمات السائدة: عاطفي/عقلاني، ذكورة/أنوثة، من مبدأ أنّهما ليسا حتى متضادَّين (فالعقلاني ليس ضده العاطفي كما هو مُصوَّر). كذلك، ليست العاطفيّة وصمةً سلبيّةً بل تعبير عن تمايُز واختلاف، وهو نفسه ما يحمله معنى الماء حتَّى في الرموز الأسطوريّة، خاصّة من ناحية تعبيره عَن الصيرورة والتجدّد اللَّذَين نجدُهُما عند النّساء سواء من النَّاحية البيولوجية أم النفسيَّة، وحميميّته؛ يتبدَّى ذلك في السّرد لدى الكاتبتين، فَهُما تجدّدان نفسيهما من خلال خطابهما أي كلامهما، تتدفّقان به من معنى إلى آخَر، لتتجاوزا ذاتيهما أيضًا، مثلما تتجدّد الطبيعة من خلال الماءِ العنصر الأساسيّ المكوّن لها.

حتى عندما تصف مريم الحرب وتخوض في الحديث عن تفاصيلها، نجدها تستخدم تشابيه إيكولوجيّة،

فتشبّه "الواحدة منهنّ أي من صديقاتها، وكأنّها راحت تعشّب في مروج الحرب، لتعود بعدها وتجترّ في زريبة غرفتي ما عشّبته". فاستخدام بعض المصطلَحات مثل "زريبة" أو "وجهها كالفأر" ليس بالشيء الغريب لديها أو المهين، بل يحمل طابعًا حيويًّا لكيفيّة حدوث الأمور بكل بساطتها، حتى حديث النسوة يُمسي ارتجاعًا، للإشارة إلى دَورهنَّ في نقل الأحداث، وفي حفظ تاريخ الحرب وهضمه. أمَّا التشابيه التي تحتوي على كمّ من الرّقة والجماليّات فهي على امتداد الرواية: "حلو متل القمر/ تشبه العصافير/ يتفتح ذهنها كأوراق الشجر/ عيناها بلون السهل / صدرها كوردتين مزهرتين..." فتُظهر كأنّ جميع ما ذُكِرَ مرتبط ببعضه ومتكامل. وَتُشبِّه في وصف آخَر عائلتها بعائلة دجاجة، فتقول عن أمّها: "كالدجاجة تركَض بجسدها المدعبلَ"، ولكن اللفظ لا يأخذ معنى الإهانة، فللدجاجة ترميز مختلف لديها عَمَّا يُعنى به تحقير النّساء؛ إذًا، تبتعد الكاتبتان في نمط وصفهما البعد كلّه من الصورة النمطيّة لطرائق الوصف.

العنف ضد النساء والطبيعة

في ما يتعلّق بأنماط العنف ضدّ النساء والطبيعة، تشير الكاتبتان في أكثر من موضع إلى أنماط عنفيّة، ما يبرز أنّهما مُدرِكتانِ الأثر الذي تتركه مثل هذه الممارسَات عليهما وعلى البيئة التي تعيشان فيها؛ ففي روايتها تُخفي بسَمة الخطيب اهتمام البطلة وحبها للبومة التي حاولوا قتلها أكثر من مرّة في شجرة الخروب للفأل المتوارث حولها، فتتمنى في السرّ نجاتها عندما تقول: "صلّيت ألّا تصاب بالأذى"، وتسعد عند عودتها بعد اختفاء دام سنة، سواء كانت هي نفسها أم واحدة أخرى، ما يهم لديها هو فكرة البقاء، بقاء النوع. كما أنّها تمعن في وصف طريقة قتل والد مي للعصافير: "تتدلى من خاصرته العصافير التي قتلها مرّتين مرة بالخردق، ومرّة بالذبح" و"يجيء فتسبقه رائحة دماء العصافير المقتولة وريشها المرتعش". تذكر وحشية الصيد ولعبة الرجال بالكائنات الصغيرة كما لو أنّها تفصل نفسها عن المشهد، تذكره بحذافيره، إلّا أنّها تعجز عن فعل أيّ شيء حياله. يُعَدُّ قتل هذه الكائنات، سواء في الديانات التوحيديّة أم في المنظومة الأخلاقيّة النفعيّة، حدثًا طبيعيًا، فمثلها وُلِدَ من أجل البشر، ليتلذذوا بلحمه وبمتعة اللعب به، كأنهم يعودون بذلك إلى آلاف من العصور المَشهُورة بالصيد، وهو امتداد لطرائق عنف الأسلاف. وهذا لا ينطبق فقط على الكائنات المدجَّنة، بل على الحيوانات الأخرى التي يفرض الإنسان سلطته عليها: "فكان أبو محمود ينصب الفخاخ للجرذان في تربة الحديقة"، باعتبار أنَّ الجرذ من الحيوانات الضّارّة المباح قتلها من دون النظر إلى تأثير ذلك على الإيكولوجيا. بالإضافة إلى ذلك، تبرز النزعة الانتقاميّة بشكل جليّ عندما تصف سلوكيات والد حبيبها الفجائية: "بعد إهمال دام لسنوات قرّر الأب فجأة تقليم أشجار الحديقة، فأمعن فيها تشذيبًا وتشحيلاً كأنّه ينتقم منها". إنّ مثل هذه الجملة الأخيرة يعبّر بوضوح عن رؤيتها ودرايتها بوقوع هذا العنف.

أمّا أشكال العنف ضدّ النّساء وربطها بالطبيعة فيظهران من ناحية طبيعة عملهنّ واتصالهنّ المباشر بها. ففي كلتا الروايتين تنهكهنّ أعمال الحقول، "فتقسو الأصابع"، أو أنّها "تبقى مُرّة المذاق لأيّام بعد قطف زهرة النارنج"، و"تعذّب الأشواك جلودنا سواء أثناء اقتلاع الأعشاب الضارّة، أو الزيتون أو الصبّار... كنّا نتقبّلها كأنّها جزءٌ من جلودنا". كذلك تذكر بسمة الخطيب ما تعرّضت له الجدّة: "فقد وقعت وهي تقطف

ثمار الصبار"؛ لذلك، نجد الحقول والبساتين مرتبطة في ذاكراتهنّ الجماعيّة بأشكال اضطهاد النساء اللواتي عرفنهنَّ؛ ففي "مريم الحكايا" يأخذ الجد قبل أن يموت الخالات وأم مريم إلى الحقل ليساعدنه في حصاد القمح المزروع، ويجبرهنَّ على المشي أمامه حافيات الأقدام انتقامًا من البنات. وتذكر علويّة صبح في موضع آخَر شقاءهنَّ حيث "كنّ يلعنّ الحصيدة والفلاحة والعذاب والجوع"، ويتضاعف تعبهنَّ عند الحمل، فهنَّ مُجبَراتٌ على الذهاب إلى العمل حتى الحوامل منهنّ؛ "ينزل الولد هي وبالحقلة". فنجد، إذًا، أنّهنّ يبرعنَ في وصف العنف المزدوج، ويبرعن في خلق الترابطات بين أشكال الهيمنة على النّساء وغيرها على الطبيعة، وكأنّهن يكتبن تاريخ معاناة الطبيعة والنساء، ويسجّلنَهُ.

الرّيف والمدينة: الحنين للمرجأ

كذلك، تشكّل البيئة التي انتمت إليها كلتا الكاتبتين جزءًا من هويتهما ورؤيتهما للعالم الخارجي، فتُظهِر سرديات الروايات انتماءَهما للقرية. تغدق ذاكرة بسمة الخطيب عليها بحساسيّة أهل القرى ورهافتهم ودهشتهم لحظة اكتشاف عالَم المدن، الإعجاب بالبنايات الحديثة، الإعجاب الذي سرعان ما يتبدّد ليحلّ مكانه الشعور بالوحدة والثقل، فالوقت الذي تقضيه النساء في القرى محمّل بالانفراج الذي تخلقه طبيعة المكان سواء بالامتداد والانبساط، أم بطابع أعمالهنَّ الممزوجة ببيئتهنَّ، ولحظة الانسلاخ منها ستولّد اضطرابًا. فيكون "الوقت في هذه المدينة أطول من الوقت في قريتي" وتقول "أشعر بغربة ووحشة، إنَّ ساعات أرقي ستكون طويلة في بيروت فأتكوّر كالجنين". ويكون عصر المدينة بتعبيرها "مقبضًا، يجعل صوت البومة يتردد في رأسي".

وتعكس الخطيب الاغتراب الذي تعيشه النساء القرويّات على لسان بطلتها: "فمنذ وصولي إلى بيروت وأنا مربَكة، لا أملك هنا ذكريات، حتى نسيت مشيتي فصرت أتعثّر بغبار الأرصفة". تحاول تَجاوُز ذاتها التي اعتادتها والتشبّه بأبناء المدن، لكنَّ أسلوبها يكشف انتماءها، فتكرهها وتنقبض منها: "كرهت المدينة وذعرت من زواريبها المزروعة بالتوجّس". ذعرها منها هو ذعر مَن يسكن الغابات، فتنفي الادّعاء المُصوَّر حول الحياة الراغدة في الغاب أساسًا؛ فالطبيعة لم تكن بالنسبة إلى الإنسان البدائي مكانًا آمنًا، إلّا أنّه لم يحاول، ورغم وحشيّة العيش فيها، سوى التأقلم مع تحوّلاتها التي يشكّل بدوره جزءًا منها، فنجدها تزيد أنّ اللاأمان في بيروت مصدره الإنسان الصناعيّ وليس طبيعة الغابات نفسها: "بيروت غابة، غابة خبرتها بنفسها حين عملت في مصنع البسكويت"، فهناك يصرن أكثر خاضعات لنظام المكننة، آلات بدورهنَّ في المصانع، منسلخات عن منتوجاتهنَّ، لأنَّ العمل في القطاع الزراعيّ يجعلهنّ على تماس مع منتوجاتهنّ، يراقبن مراحل نموّها وقطافها، يجدن القيمة لعملهنّ وإن كتابعات للرجل أيضًا. إلّا أنّ مفهوم المنافَسة ليس هو المسيطر في المجال الزراعيّ، بالمقدار الذي يعايشهُ مَن يعمل في مصنع، ويخضع بدوره لنظامه الهرمي، فثمّة المدير ورئيس القسم، والنّساء يَكُنَّ في أدنى المراتب كعاملات ليس إلّا، فتكون جدليّة السيد والعبد أكثر تجلّيًا في عالَم المصانع. وتتساءل: "ما الذي أتى بي إلى بيروت؟ إنّها مكان قاحل هواؤها أثقل مما تحتمل رئتاي، أمشي في الشارع ولا أعثر على شجرة أتفيأ بظلّها، أرى عمارات أكلها الغبار والتلوّث، ومساكن من أنواع التويتاء..." وتكتب: "العالم بمدينة بيروت

كديوك زراعيّة يمسكها بائع الدجاج استعدادًا لنحرها ..." تطيل الخطيب في وصف بيئة المدينة: "الهواء مليء بالغبار، والأدخنة عبأت فمي ومعدتي"، حتّى ليلها مرعب "فيسقط ثقيلًا على المدينة لارتطامه بعماراتها، وصوته صوت وحش يتجشّأ".

تمثّل هنا حالات الخوف الذي تتركه المدينة في ذاكرتها، فالمدينة ليست مكانًا آمنًا للنساء بالنسبة إليها، وتتساءل عمّا إذا كانت نساء المدن يُشبهنَ نساء القرى، قائلةً: "فهل تتألم نساء المدن مثلنا؟" أم ثمّة فجوة بين مَنْ عاصرَتْ أشكال الحداثة وتَطبَّعت بطباعها وعاداتها، وبين مَن ولدت في القرى وجاءت منها، وكأنّها خرجت من مسكنها الرحميّ الأمومي رغم عنفه أيضًا؟ الحقيقة أنّ نمط الإنتاج يؤدّي تأثيره هنا؛ ففي القرى يسود نمط الاقتصاد المعيشيّ الذي يُعَدُّ أخف وطأة من نظام الاقتصاد الحرّ، فيجدن أنفسهنَّ يعافرن في نظام أكثر قسوة، لأنّه يستهلكهنَّ بدوره. والجدير ذكره أنّها لا تُوجد هذه الثنائيّة ما بين نساء القرى والمدن لإقامة المُفاضَلة، بل أبرزتها استغرابًا لحالة التأقلم، بيد أنّها لا تذهب إلى البُعدين الاجتماعيّ والاقتصاديّ المُسيطرَين، بل تفكّر بأدواتها البسيطة، لتسأل: هل يشعرن بالأمان في المدينة، هنّ مَنْ نشأنَ وكبرنَ فيها؟ هل تصبح مألوفة لديهنَّ كما يألفنَ هنّ قُراهنّ، أم أنّ تاريخهنّ وآلامهنّ متقاطعان؟

نجد بطلة الرواية تشعر بالضآلة لحظة دخولها المنوبري وتتفاجأ بوجود فاكهة في غير أوانها "ثمار الأكيدنيا والتوت نضجت باكرًا اشتريتها من المونوبري... الوقت الذي أمضيته بين الرفوف لم يشعرني بالألفة بل بضآلتي وتيهي" و"أتذوق الأكيدنيا فلا أعثر على حلاوتها المعهودة ليس لأنها نضجت قبل أوانها بل لأنّ حتّى طعم فمي هنا تغيّر"، وبذلك تظهر الأثر الذي تتركه أَنْتَجَة المحاصيل، فتخلق فاكهة لا تحوي القيمة الغذائية نفسها، ولا الطعم ولا الرائحة الطبيعيّة حتى، بل تصبح مصنّعة نتيجة تلقّيها العديد من الأدويّة والمبيدات، وغيرها من الأدوات التي تستخدم في درّ الإنتاجيّة، وتؤثر على جودة ما يفترض أن يكون طبيعيًا، فعبارتها هذه، إذًا، تعبّر عن واحدة من أساسيّات الخطاب الإيكولوجي وهو نمط من أنماط العنف الإقتصادي الممارس على الطبيعة. ماذا عن الزراعة في المدن؟ هل سيكون طعم الصبّار نفسه في المدينة؟ هل يزرع سكّان المدن؟ تتساءل: "هل يزرع أهل بيروت الحبق والمردقوش مثلنا؟ أم أنّ كلّ شيء يتطلب الحنو والرعاية لا يدخل يومياتهم؟"

يُظهرُ تساؤلها الأخير أنّ علاقة الناس في القرى أكثر حميميّة مع النباتات، خاصة اهتمامهم بزراعة المردقوش والحبق، لقيمتهما الغذائيّة العالية. وبالإضافة إلى أهميّة هاتين النبتتين من الناحية الشّميّة، فهما تعطّران الأجواء وتُضفيان عليها الطابع الاسترخائي، مقابل تصوّرها عن المدن، بأنّها أماكن إسمنتيّة شبه خالية من الأشجار والنباتات، وبأنَّ خلاءَها هذا يؤثّرعلى نفسيّة القاطنين فيها، لأنَّ انفكاك الارتباط بالطبيعة يجعل منهم أشدّ قسوة، مفتقرين إلى الرّقّة، كما يجعل طبيعة تعاملهم مع الكائنات الأخرى أداتيّة؛ فالقطط في المنازل والبيوت ليست سوى ألعاب للتسلية، وتُستَبدَل النباتات الطبيعيّة بأخرى اصطناعيّة. هذا الغياب للغطاء النباتي الأخضر يؤثر بشكل سلبي على المناخ، وعلى صحّة جميع الكائنات الحيّة، فهم بذلك يتعرّضون للخطر وهو من أشكال العنف أيضًا.

أمّا المدينة في رواية علويّة صبح، فهي فضاء مغلَق، وكأنّنا نسكن الصناديق، مُحاصَرين بالأبنية، لا تصلنا حتَّى أشعّة الشمس، تقول مريم: "المدينة كلها بدت كأنها بئر مغلق وخوفي منها كخوفي وأنا صغيرة من أن تدبّني أمي فاطمة في البئر"، وليلها موحش أيضًا، أمّا طيورها فطيور موت سُود، وتقصد بذلك الطائرات الحربيّة المحلّقة بدل الطيور. تُحوّل سكانها الذين يجيئونها حصرمًا إلى حبّات مهرهرة، وذلك لصعوبة العيش فيها. وتتساءل: كيف هي بيروت؟ لتجيب نفسها مبيّنة التناقض: "بيروت مدينة مش متل الضيعة، يعني بيوت حجر كبيرة وطوابق، ما في شجر، مدينة بلا شجر".

إنَّ غياب الشجر بالنسبة إلى الكاتبتين مؤشِّر يعبّر عن انعدام الصلة بماضيهما، فتتساءلان عن شجرة تَعيد إليهما ذكرى الزراعة وقطاف الثمر اللّذين عاصرتاهما، وتفتقدان الشعور بالاخضرار والنمو، لذلك تفرحان حين تريان شجرة؛ وتعكسان فرحهما على شخصيّاتهما، كشخصية مريم حين تقول: "فرحت حين زرعت البلديّة تلك الأشجار وأخبرت صديقتي أنني فرحت بالشجيرات"، ثم تكمل "فالأشجار ما زالت صغيرة وتحتاج لوقت طويل لتكبر وتظلّل الرصيف لأستظل بها وأنا أمشي فأفرح بأوراقها والهواء يلاعبها"، وكأنّ حلمها قائم على الانتظار. هذا وتقيم الكاتبة مقارَنةً بين قمر المدينة الذي لا يهتم لظهوره أحد بين الأبنية، فيخرج وحيدًا ليس لنوره تأثير، فالإنارة تُغني عنه، وقمر القرية، الأنيس الذي يهلّل لظهوره، مُراقِبَةً دورات حياته التي تشبِّهها بدورات حياة المرأة، وطفولتها، وشبابها، وعجزها. كذلك فإنّ التقويم القمري كان يعتمد على القمر وعلى ارتباطه بالدورة الشهريّة للمرأة، كما في الحضارة المصريّة وغيرها من الحضارات.

نلاحظ، إذًا، وجود النوستالجيّة الدائمة لقراهنّ الخضراء الّتي خرجنَ منها إلى المدينة، وتتمثّل لديهنّ في حنينهنّ إلى مراتع طفولتهنّ؛ فأحلام مي في رواية "برتقال مُرّ"، ممزوجة بذكرى قريتها: "عمت في الهواء، وشممت رائحة البحر التي اختلطت بروائح وحل الساقية وبراز الدجاج". وتشرح كذلك عن طفولتها: "كنت أسرح في الحقول الممتدة أمامي، أعرف أنني أحبّها برغم قسوتها، برغم أنّ تربتها تحتضن عظام الكثير من البشر". ولا يظهر ذلك في أحلامها فقط، بل إنّها تعيد أيضًا إحياء طقوسها الحنينيّة بالزراعة المنزليّة: "سوّت جذوع نباتات الحبق والنعناع وسقتها وفكرت بنقلها للصالة، لتغيير رائحة الشقّة". إذًا، هي تحاول بحنينها إيجاد ما هو غائب، ما هو موجود في ذاكرتها، ما تتوقّع أن يكونه عالمها المصغَّر المتمثّل في الصّالة. أضف إلى ذلك أنَّ فعل الزراعة ونقل أصيص النباتات داخل المنزل جعل هذا المكان رغم ضيقه مكانًا أكثر اتّساعًا، يتّسع لذكرياتها ورؤاها.

بيد أنّ حنين علويّة صبح إلى عالمها المخضوضر، تظهره شخصياتها؛ فها هو عبَّاس حبيب الراوية "مشتاق ليستلقي بجسده وينام على مقعد في حَديقة مليئة بالزهور والأشجار، يتطلع إلى السماء العالية، ينام ويحلم، وعندما يستيقظ يكتشف أنَّ هذه الحديقة هي لبنان". كما أنّ حنين الراوية يأخذ طابع الاستشراف المستقبليّ: "أريد أن أراقب الشجر ولون البحر، لا يهمّني إلّا متى ستكبر الأشجار التي زرعت في الشارع". وتتبدى وحشة إحدى الشخصيات حين تكون في الخربة: "بين الأشجار العالية والنباتات التي وجدت منبتًا لها في فتحات الجدران المتهدّمة، فذلك الخراب لا يُشعره بالغربة التي يشعر بها في شوارع المدينة" فيسكنها كأنّها ملاذه الهانئ. وكأنّهم/هنّ جميعًا، من الكاتبتين إلى

شخصيات حكاياتهنَّ، كُلٌّ واحد منسجم رغم اختلافاته، يبحثن/ون عن هذا العالَم الذي تكون الطبيعة أساسًا من خطابه، باسترجاع ذكرياتهنّ/هم، وبتوقّع حدوث ما يربطهنَّ/هم به؛ هو الأمل بالحدوث، فهو مرجأ على أمل التحقق يومًا، وسعيهنَّ/هم يتبلور في سيرورة الكتابة والتوقّع.

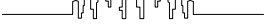

في الأمثال الشعبيّة والأساطير

كذلك، تعكس الأمثال الشعبية في الروايتين النظرة الدونيّة للمرأة، وتحقير الكائنات الطبيعيّة. والمشيطن دائمًا ما يكون هو المؤنث، وهو في الطليعة مشكلة لغويّة؛ فاللغة البطريركيّة هي التي تؤنث الطبيعة وتحيون النساء، بغرض ازدرائهنَّ، واضعةً إيّاهنّ في مرتبة بعضهنَّ، مجرد تابعات وخاضعات للهيمنة الذكوريّة. وبهذه الطريقة يسوَّغ استغلال الطبيعة والحيوانات بتأنيثهما لا بتذكيرهما، ويعلَّل استعباد النساء بتطبيعهنّ أو بحيونتهنّ. ومن الأمثلة التي تُظهِر هذا التوجّه الأدبي الذي يصوّر المفاهيم السائدة لذاتهنَّ ولعالمهنَّ: "حيّة تحت التبن/كم وردة بتخلّف قَردة وكم أصيلة بتجيب حمار" وهناك "شو بدي أذكرك يا سفرجلة كل نتشة بغصّة..." إضافة إلى إبراز كيفيّة الشتم بالحيوانات: "ربي كلبك يعقر جنبك/يا بهيمة..." وتطرح بسمة الخطيب سؤالًا حينما تذكر كيف كانوا يطلقون التسميات على الأولاد، فيعطون الصبيّ أسماء حيوانات مفترسة بهدف البقاء: "سمّاه لابنه شبل، لحتى يعيش"، "كانت البنات تخلق وتعيش؟"، لماذا لم تسمع بامرأة سمِّيت باسم حيوان مفترِس لتعيش؟ هل كنّ يعشن بمجرّد الولادة، أم أنَّ بقاءهنَّ وموتهنَّ لم يكونا يعنيان لأحدٍ شيئًا؟

هذا ويظهر امتداد الأساطير النسائيّة في مواضع مختلفة من الروايتين، إذ تعيد الجدّة في رواية "برتقال مُرّ" قصّ أسطورة "الفقمة حوريّة البحر" المتداوَلة بهذا الاسم لدى نساء شمال غرب أميركا وسيبيريا وأيسلندا، وغيرهنَّ من نساء قبائل الأماكن الباردة. وتعبّر عن أنّ لنفوس النساء وأرواحهنَّ دوراتها ومواسمها في الموت والولادة، كما تذكرها كلاريسا بنكولا في فصل من كتابها "نساء يركضن مع الذئاب" بعنوان "العودة إلى النفس"، فتكون لجلودنا دوراتها: جفاف، ملسوعة من الشمس، طريَّة، خشنة. وتكون لنفوسنا أوقات وفصول: وقت البرق والعواصف، ووقت الأشجار الجليديّة، ووقت الأشجار التي تلقي بثمارها؛ أوقات تتجدّد لتعبّر عن صيرورة الحياة وديمومتها، فتتشابه النساء بدورات حياتهنَّ مع الطبيعة: الفتاة الصغيرة، والمرأة البالغة، والعجوز.[١٠]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجدّة لا تكتفي بهذه الأسطورة فحسب، بل تنتقل في كلّ ليلة إلى أسطورة جديدة، راويةً أسطورة الملكة التي تحوّلت إلى شجرة رمّان، فهي تجمع رمزين أسطوريَّين في روايةٍ واحدة مكثّفة الدلالات، فكثيرات هُنَّ الآلهات في الدّيانات القديمة، اللواتي تحوّلن إلى أشجار، إمّا معاقَبة لهنّ بسبب عدم خضوعهنَّ، وإمَّا بسبب كراهية ألمّت بهنّ من قِبَل عاشق غاضب، "مثل دافني والتي تعني شجرة الغار حسب الميثولوجيا الإغريقيّة. وهي من حوريّات المياه العذبة وابنة ربّة الصيد أرتميس التي تعرف باسم ديانا آلهة الصيد والقمر والولادة في الميثولوجيا الرومانيّة، والتي تُعَدُّ من الرموز الأنثويّة. وتروي

١٠. نساء يركضن مع الذئاب، كلاريسا بنكولا، ت: مصطفى محمد، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢.

الأسطورة حكايةَ وله أبولو بها، ما جعله يجبرها على محبته بالإكراه. إلَّا أنّها ترفض وتحاول التملّص منه بالاستعانة بوالدها إله النهر الذي حوّلها إلى شجرة. ويُذكَر أنّ أبولو استمرَّ في ملاحَقتها حتَّى وهي شجرة، فكانت أغصانها ترتعد وأوراقها تتساقط ما إن يلمسها".[١١]

وهنا تعكس الأسطورة حالتين من العنف: عنف ضد الطبيعة المتمثِّلة في الشجرة وآخَر ضدها كامرأة، أمّا اختيار شجرة الرّمان فيعود إلى أنَّ هذه الفاكهة ترمز إلى الخصوبة والوفرة في الأساطير؛ ففي الأساطير الأرمنيّة كان رمي الرّمان على الأرض ونشر حبّاته بشكل كبير يعني كثر المواليد، وبعضهم يرجِّح أنَّ الثمرة المحرَّمة في قصّة آدم وحوَّاء لم تكن التفاح بل كوزًا من الرّمان.[١٢] إذًا، تعود الجدّة في الجينالوجيات الأنثويّة إلى عهد عبادة الشجر، حيث الأحراج هي الرحم، ويُحرَّم قطع الشجر فيها لما لها من رمزية الحماية الأموميّة. وأشارت القوانين الألمانية القديمة أن عقوبة "نزع لحاء شجرة منتصبة" هي قطع "سرّة المذنب وتثبيتها في الجزء الذي نزع منه لحاء الشجرة، ثم جرّ المذنب حول الشجرة حتى تلتف أحشاؤُهُ حول جذعها، والغرض من العقوبة هو استبدال اللحاء الميت بآخَر يُؤخَذ من المذنب أي حياة بحياة، حياة رجل مقابل حياة شجرة".[١٣] وبهذا يكرّس المجتمع أهمية توازن الحياة الطبيعيّة وقدسية الحياة والموت.

أمّا في رواية "مريم الحكايا"، فالرموز الأسطوريّة تُستخدَم للتوصيف؛ فالفعل الجنسيّ يصير لديها احتكاك أجساد أفاعٍ، في حين أنّها مشيطنة في سائر السرديَّات الأدبيّة، والأفعى رمز أسطوري يُعرف بالتجدد، فهي تبدّل أثوابها باستمرار كما تبدّل الطبيعة مواسمها. هذا بالإضافة إلى أنّها تُعَدُّ من الكائنات الزاحفة التي تتصل بالأرض بشكل مباشر، وتعتمد على حاسّة اللمس أكثر من الحواسّ الأخرى، فهي تتحسس الأماكن التي تزحف عليها، باطنها يحتكُّ بباطن الأرض. والجدير بالذّكر أنَّ اللّمس دالٌّ أمومي أيضًا، مرتبط بأوَّل الارتباطات الحسّيّة التي تجمع ما بين الطفل والأمّ، فهو يتلمّس جلدها ليعرفها. وتذكر في سياق آخَر حاسّة الشَّمّ التي تعزّز الارتباط الحسيّ اللمسيّ، ويبدو ذلك في حديث عبّاس، حبيب مريم، في لحظة لقائهما: "يبدأ عبَّاس بشمشمتي كما تشمشم القطّة المولودة أمّها". ولا يخفى في موضع آخَر الخوف البدائي من الابتلاع لحظة الاتصال الجنسيّ: "فكان يشعر لحظة دخوله المهبل أنَّ عضوه يخترق بئرًا ما بين فخذيَّ، يهبط إلى قاعه، ومع وصوله للرعشة، يعود ويطفو راقدًا فوق مائه يبتلع خوفه من أن يخرج من بئري ومنّي، وخوفه من أن لا يخرج أبدًا".

أمّا القمر كرمز أسطوري أنثوي أيضًا، فيظهر في أحلام النساء لينبئهنَّ بولادة جديدة؛ فنجد أم مريم تذكر حملها بعد كلّ رؤية للقمر في أحلامها وكأنّه يحمل لها هذه النبوءة. حتّى في حالات أخرى ينبئ القمر بولادة حياة جديدة للجماعة؛ أو ولادة جديدة للعائلة من الناحية الاقتصاديّة عندما انتقلوا إلى مدينة بيروت.

---

١١. أبولو ودافني، المرسال، ٢٣ مارس ٢٠١٧.

١٢. ريم قمر، " فاكهة مقدّسة" معلومات تاريخيّة قد لا تعرفونها عن الرّمان، جريدة النهار.

١٣. جيمس فريزر، الغصن الذهبيّ، ص ٩٠، ت: محمد كبة، هيئة أبوظبي للثقافة، ٢٠١١.

الخلاصة

كتبت علويّة صبح وبسمة الخطيب قصصهما، بلغتيهما الخاصَّتَين، متجاوزتَين الأفكار التي وَدَّتَا إيصالها. أظهرتا اغترابهما وحنينهما، قالتا وإن لم تتقصّدا ذلك المعنى المَرجأ من رسالتهما، إن كان من ناحيّة العنف الإقتصادي والجندري التي عبّرن عنها أو توقهن إلى عالم أفضل شبيه بالريف الأخضر لكن حيث لا عنف ولا إستعباد لهن. وبعيون نسائيّة استشرفتا أنَّ ما يحصل في الطبيعة سيؤدّي إلى هلاكها وهلاكهما، فنفذتا إلى المستقبَل عبر حلمهما المُشترَك بتغيير الواقع الإيكولوجيّ.

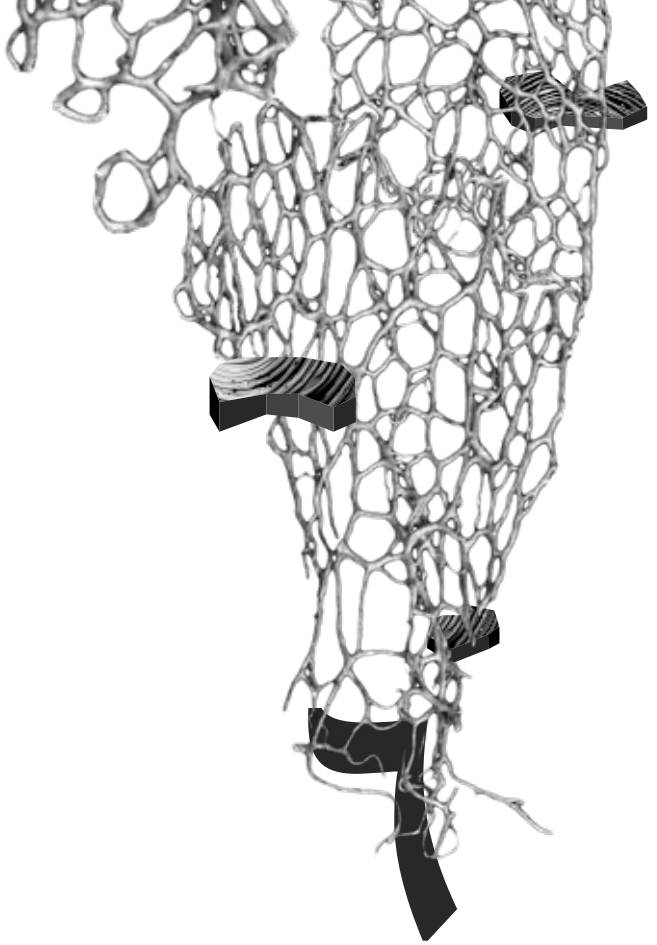

لمى أبو خروب

لاجئة فلسطينية من مخيَّم برج الشمالي في مدينة صور جنوب لبنان. وخرّيجة علوم سياسية من الجامعة الأمريكية في بيروت، وأعمل في مجال الصحافة الحرّة، ومهتمة بالدراسات النسوية وقصص النساء واللاجئات منهنّ بجوانبهنّ كافّة في لبنان.

أنتمي إلى أسرة عاملة في مجال الزراعة، وإلى مخيَّم معروف بعمل أغلبية سكّانه في القطاع الزراعيّ، ومن ضمنهم النساء. تساؤلاتي حول ظروف النساء في محيطي ومعاناتهنّ ورواياتهنّ هي ما يجعلني مهتمة بموضوع البحث.

بدنا نعيش

تجارب المزارعات الفلسطينيات

المقدّمة

يُقدّم هذا البحث مقارَبة نسوية عن دَور العاملات المياومات من اللاجئات الفلسطينيات في لبنان في القطاع الزراعي اللبناني وعلاقاتهنَّ مع ملّاك الأراضي، والوكلاء، ورؤيتهنّ لمساهمتهنّ في الاقتصاد اللبناني، عن طريق التركيز على تجارب النساء ورواية قصصهنّ مع الاستغلال الاقتصاديّ والجندريّ الذي يواجهنه. يركّز البحث على تجارب مزارعات من مخيّم برج الشمالي في جنوب لبنان، ونشرح لاحقًا كيف ساهم موقعه وتاريخ سكّانه في توجّههنّ إلى العمل في الزراعة. يتطرّق البحث إلى العلاقة والاستغلال المبنيَّين على أساس طبقي بين العاملات والملّاك والوكلاء، إضافة إلى علاقة المزارعات في ما بينهنَّ كنساء، ومحاوَلات مقاومتهنّ واقع سلطة رأس المال الأبويّ، وتحكّمه، واستغلاله العمالة اليومية النسائيّة.

تهدف الدراسة إلى إعطاء اللاجئات المزارعات المساحة للكلام على تجاربهنّ مع العمل الزراعي في ظلّ النظام الرأسمالي الأبوي، لفهم طبيعة العلاقات داخل هذا النظام وممارساته السياسية المفروضة ضدّهنّ. فالمزارعات الفلسطينيات في المخيَّمات الفلسطينيّة يعانين التهميش في عملهنَّ، وكذلك في الخطاب السائد، وفي القانون، وفي الأبحاث التي تتناول موضوع الزراعة في لبنان.[١] يحاول البحث إذًا توثيق جزء من تاريخ الفلّاحات الفلسطينيات غير المكتوب من خلال إفساح المجال للعاملات للتعبير عن أنفسهنّ ورؤيتهنّ لدورهنّ، انطلاقًا من جنسيتهنَّ الفلسطينية وموقعيهنَّ الطبقيّ والجندريّ.

لمحة تاريخية

عُقب نكبة فلسطين، وإقامة دولة الاستعمار الإحلالي "إسرائيل" على أراضيها، لجأ نحو ١٠٤ آلاف فلسطيني إلى لبنان في العام ١٩٤٨، حيث أعطتهم الدولة اللبنانية بطاقات هوية خاصة وحدّدت حقوقهم والقيود المفروضة عليهم تدريجيًّا في السنوات اللّاحقة.[٢]

وبسبب طبيعة القرى والأراضي الزراعية الفلسطينية الخصبة ونظام الحياة الاقتصادي-الاجتماعي قبل ١٩٤٨، كانت غالبية الشعب الفلسطيني من القرويّين،[٣] وكانوا يُعَدُّونَ، ما قبل النكبة وفي عهد الانتداب البريطاني، جزءًا صغيرًا من الطبقة الفلاحية العربية الأوسع. وهم عانوا، على وجه الخصوص، وبسبب

---

١. مع العلم أنَّ الخطاب السائد والقانون اللبناني والسياسات والدراسات حول الزراعة تهمّش المزارعين والمزارعات بشكل عام.

٢. صايغ، روزماري. الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ص. ١٢٣

٣. المصدر السابق.

عوامل تاريخية وطبقية وثقافية، من الإقطاعية التي تميّزت بضعف الروابط بين الفلاحين وملّاك الأراضي.[٤] إلّا أنّ اقتلاع الفلسطينيات والفلسطينيين من أراضيهم/هنَّ، بعد ذلك، وفقدان منازلهم/هنَّ ومصادر معيشتهم/هنَّ، جعلاهم/هنَّ ينتقلون/لن من كونهم/هنَّ فلّاحات وفلّاحين في أراضيهم/هنَّ إلى لاجئات ولاجئين بلا دولة في لبنان، حيث تحولوا/نَ بعد تدمير الاقتصاد الفلسطينيّ إلى سوق كبيرة من العمّال والعاملات الّذين/اللواتي لا أرضَ لهم/هنّ.[٥] لقد اضطهد الفلّاحون الفلسطينيون تاريخيًّا من قبل الحكم العثمانيّ، ثمّ البريطانيّ، وعانوا من أشكال الاضطهاد المحليّة.[٦] لكنهم لطالما شعروا بالانغراس والانتماء خلال وجودهم في أراضيهم، وذلك على الرغم من قسوة الفقر والاضطهاد الطبقي الذي كانوا يعيشونه آنذاك، وهذا ما ساهم في الحفاظ على شعورهم بالانتماء قبل اقتلاعهم منها، وتهجيرهم، وتحويلهم إلى لاجئين.[٧]

وفي ما يتعلّق بالنساء، فقد استطعن بعد التهجير، والاستقرار في لبنان، إيجاد عمل، ويعود ذلك إلى أجورهنّ المنخفضة، الأمر الذي أدى إلى دخول المرأة الفلسطينية منذ ذلك الوقت إلى سوق العمل اللّبنانيّة خصوصًا في مجالَي الزراعة والخدمة المنزليّة.[٨]

الواقع القانونيّ لعمل اللاجئين واللاجئات الفلسطينيين/ات في لبنان

أمّا في الشقّ القانوني، ووفق نظام العمل والقانون اللبناني، فتنصّ المادة الأولى، الصادرة في ١٠ تموز ١٩٦٢، من قانون تنظيم الدخول إلى لبنان والإقامة فيه والخروج منه، على أنّ: "يُعدّ أجنبيًّا بالمعنى المقصود بهذا القانون، كلّ شخص حقيقي من غير التابعيّة اللبنانية". وعليه، تخضع اللاجئات واللاجئون الفلسطينيَّات/ون لكلّ القوانين اللبنانية المنظّمة لعمل الأجانب. وبالتالي، حق اللاجئين/ات قانونيًّا بالحصول على عمل على الأراضي اللبنانية مرتبط باستحصالهم/هنّ على إجازة عمل، وعليه يتم تسجيل الموظّف/ة في شبكة الضمان الاجتماعيّ التي تحرمه/ها الاستفادة من ضمان الأمومة، والمرض، ونظام التعويضات العائلية، وضمان الطوارىء، إلّا من تعويضات نهاية الخدمة.[٩] على الرغم من محاولات تعديل هذا القانون في السنوات اللاحقة، ولكنّها لم تكن منصفة، ولم تمنح مزيدًا من الحقوق سوى بعض الاستثناءات المتعلّقة بمزاوَلة المهنة.

يُطبَّق هذا القانون على المجالات التي يُسمح أصلًا للاجئين/ات بالعمل فيها، وهي محدودة جدًّا، أمّا في ما يتعلّق بالمهن الحرّة، فهي لا تخضع لأحكام قانون العمل أو الضمان الاجتماعي، بل لقوانينها وأنظمتها

٤. المصدر السابق، ص. ٢
٥. المصدر السابق، ص. ١٤١
٦. المصدر السابق، ص.٢
٧. المصدر السابق. ص. ٧
٨. المصدر السابق، ص. ١٤٢
٩. لجنة الحوار اللبناني الفلسطيني. واقع العيش وإرادة التقدّم، ص. ٨٠

الخاصة.[١٠] وتحرم بذلك العمالة اليومية، والتي تتضمن العاملات والعاملين في القطاع الزراعي سواء من المواطنات والمواطنين اللبنانيين/ات أم اللاجئين/ات، من الحقوق المكفولة بالقانون كافّة، ومن التسجيل في الضمان الاجتماعي، ومن أي تعويضات ومن الأمان الوظيفي، وتخضع مباشرةً لمزاج أرباب العمل، وملّاك الأراضي إلى ناحية اليد العاملة الزراعيّة.

وتشير الدراسات إلى أنّ ٧٪ من العمّال الفلسطينيين يعملون في القطاع الزراعي، و٨٧٪ من مجموع العمّال الزراعيين في لبنان يعيشون في قضاء صور في الجنوب. وتعمل ٨٪ من النساء الفلسطينيات في الزراعة، وتبلغ نستبهنّ ٢٣٪ من مجموع نسبة النساء اللاجئات العاملات بالمجمل، وذلك حسب مسح أُسري اجتماعي-اقتصادي أجرته الجامعة الأميركية في بيروت على اللاجئين الفلسطينيين في لبنان في العام ٢٠١٠.[١١]

"إنّ تاريخنا الحقيقي لم يُكتب بعد". ورد هذا التصريح على لسان أحد مناضلي مخيّم نهر البارد في مدينة طرابلس، في دراسة أجرتها الباحثة روزماري صايغ بعنوان "الفلاحون الفلسطينيّون من الاقتلاع إلى الثورة"، تناولت فيها التاريخ الشفهي للطبقة الفلاحيّة الفلسطينية.[١٢] وتمحور هذا التصريح بشكل خاص حول الطبقة الفلاحيّة الفلسطينية. إنّ تاريخ الطبقة العاملة الذي لم يكتب بعد يطرح أسئلة عدّة عن واقع الفلّاحات الفلسطينيات اليوم. وفي محاولة منّا لتوثيق ولو جزء من واقعهنّ وتاريخهنّ غير المكتوب، يطرح بحثنا السؤال الآتي: كيف ترى المزارعات الفلسطينيات في مخيّم برج الشّمالي في لبنان دورهنَّ في الاقتصاد اللبناني؟ وما طبيعة علاقاتهنَّ مع ملّاك الأراضي اللبنانيين والوكلاء؟

يختصُّ البحث مخيَّم برج الشّمالي، وهو مخيَّم فلسطينيّ يقع في قضاء صور، يعمل جزء كبير من سكّانه، ومن ضمنهم النساء، في القطاع الزراعي في ضواحي المنطقة خارج المخيّم. وقبل اختيار مخيَّم برج الشمالي، نظرنا إلى أحوال المزارعين في مخيَّم الرّشيدية الموجود في مدينة صور أيضًا، والمعروف بوجود بعض المساحات الزراعية فيه والتي تعود ملكيّتها إلى الفلسطينيين المقيمين فيه. وقد أفادنا رئيس لجنة المزارعين في مخيَّم الرشيدية، في شهر أكتوبر من العام ٢٠٢١، أنّ عددًا من النساء في المخيّم عمل كمزارعات، قبل أزمة الانهيار الاقتصادي – الاجتماعي التي بدأ يشهدها لبنان منذ العام ٢٠١٩، إلّا أنهنّ توقّفن عن العمل بسبب تدهور الاقتصاد، إذ وصل في ظلّه أجر العاملة المياومة إلى ٢٠ ألف ليرة لبنانية أي ما يُعادل دولارًا أمريكيًّا واحدًا.

وجاء على لسان رئيس اللجنة: "فش امرأة فلسطينية بتقبل تشتغل بدولار واحد باليوم، ما بجيب وقية لحمة، العامل السوري عم ياخد ٣٠ ألف، وإذا بروحوا السوريين بنبطل نزرع، وبصير كل واحد يزرع على قده لأن فش عمّال". فالفارق بين المزارعين الفلسطينيين في مخيّم الرشيدية ومخيّم برج الشمالي

١٠. المصدر السابق، ص. ٨٩

١١. حنفي، ساري. شعبان، جاد. سيفيريت، كارين. الإقصاء الاجتماعي للاجئين الفلسطينيين في لبنان: تأملات في الآليات التي تعزز فقرهم الدائم.

١٢. صايغ، روزماري. الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ص ٢.

المجاور له أنّ الأوّل يتضمن مساحات زراعية يملكها بالغالب فلسطينيُّون ويعملون فيها، أمّا في مخيّم برج الشمالي، فجميع المزارعات والمزارعين يعملون/نَ ضمن الأراضي اللبنانية المجاورة له حيث لا توجد في المخيّم نفسه أيّ أراض زراعيّة. وهذا الأمر يدفع بالفلسطينيات والفلسطينيين في مدينة صور وتحديدًا في مخيَّم برج الشّمالي إلى اللجوء للعمل الزراعي بالأساس. علاوةً على ذلك، ما يعزّز العمل الزراعي الحالي هو طبيعة حياة سكّان برج الشمالي وعملهم في الأرض قبل تهجيرهم من فلسطين، وكذلك وفرة الأراضي الزراعية في صور حيث تحاوط البساتين المخيّم من أكثر من جهة.

ويتناول هذا البحث النوعي، بالعرض والتحليل، منهجيّة دراسة الحالة عن طريق مقابَلات أجريت مع أربع عاملات مياومات يعملن في القطاع الزراعي من مخيم برج الشمالي.

تعود أصول نساء العينة التي تناولها البحث إلى قرية الناعمة، قضاء صفد شمال فلسطين، والتي سقطت في الحادي عشر من أيّار في العام ١٩٤٨ على يد العصابات الصهيونيّة، وهجّر ما تبقّى من أهلها بعد الإبادة الجماعية إلى لبنان، وسكن معظمهم مخيّم برج الشّمالي.[١٣] وتشتهر قرية الناعمة بالزراعة حيث تقع في سهل الحولة على الحدود اللبنانية الفلسطينية، وتتميّز بخصوبة تربتها وجودة محاصيلها وتنوّعها.[١٤] وكانت النساء الفلسطينيات في القرية قرويّات، منتجات في المجالات الاقتصاديّة بمختلف أنماطها وأهمها الرعي، والصيد، والزراعة.

يصبّ الحديث عن القرية في إطار الإجابة عن السّؤال الآتي: "كيف بدأن العمل في القطاع الزراعي؟" والذي طرحناه على المزارِعات الأربع، لتأتي إجاباتهنّ هكذا:

بدايات العمل في الزراعة

تقول رئيفة كامل العلي، التي تبلغ من العمر ثمانيةً وثمانينَ عامًا، والتي ما زالت تعمل في المجال الزراعي منذ أربعين عامًا، إنّها بدأت العمل في الزراعة بعد التهجير مباشرةً، حيث كان أهلها، من الأب والأم والجدّة والجدّ، جميعهنَّ/هم يعملنَ/ونَ في الزراعة. وكانت قد خرجت من قريتها في فلسطين وهي في سنّ الخامسة عشرة. وتضيف أنها لم تكن تعمل في فلسطين، بينما أمها وجدّتها كانتا تعملان في أرضهما هناك، لتتركها أمّها بعد المجيء إلى لبنان بغرض الزواج. وبقيت هي تعمل في هذا المجال مع نساء أبيها اللواتي كنّ أيضًا يعملن في القطاع نفسه. تقول رئيفة: "من لمّا إجينا على لبنان بنشتغل بأراضي اللبنانيين، وبعدنا لليوم متل ما إحنا". وعن سؤال: "لماذا اختارت هذا النوع من العمل؟" تُجيب: "بدنا نعيش يا حبيبتي". وعملت رئيفة في التّعشيب والزرع وقطف الثمار، حيث تقول: "شو في شغل بالمصلحة بنشتغله، سواء كان حواش ليمون، زيتون، خضرا، شو ما يكون في بالسهل بنحوّش".

١٣. مشيرفة، كمال. الناعمة قضاء صفد–فلسطين، ص٣٢.

١٤. المصدر السابق، ص٣٨.

أمّا سبتة العبد، المولودة في لبنان، فقد كانت بداياتها مع العمل الزراعي في سنّ الخامسة والعشرين، لتكون اليوم قد أمضت ثمانية عشر عامًا في المجال. كانت والدتها أيضًا تعمل في الزراعة، فبدأت بالذهاب معها إلى العمل من دون إخوتها، وعملت في الحمضيات. كانت الوالدة تزرع وهي تقطف: "وما زلت إلى الآن أقطف الليمون والزيتون". وتضيف أنها لم تعمل في فلسطين، بينما كان أبوها وجدّتها يعملان في الخضار قبل التهجير إلى لبنان.

حسنة عوض، والتي بدأت العمل في عمر الثلاثين عامًا، خرجت من فلسطين وهي في الرابعة من عمرها، وتقول: "ما كان في حدا يساعدني، فبلشت أشتغل مع أخوي اللي كان بيشتغل بنفس المجال". وتضيف أنها عملت في البقاع في البصل والبطاطا، وفي صور في الموز والحمضيات، حيث كانت تأتي إلى البقاع من صور مع وكيل العمل وتنام مع زميلاتها في الخيم حتى الانتهاء من الموسم، وذلك مقابل ٦ إلى ١٠ آلاف ليرة لبنانية كانت تتقاضاها يوميًا، وذلك قبل أزمة انهيار الاقتصاد اللبناني.
وتقول عائشة الدحويش، البالغة من العمر خمسينَ عامًا، والمولودة في لبنان: "بلشت شغل لمّا كان عمري ١٥ سنة، بعد اجتياح "إسرائيل" للبنان، وبعد ما فلّت الزلم كلها، وما كان في حدا يصرف علينا، اضطريت أشتغل، واشتغلت شي ٣٠ سنة بالمجال". وكانت عائشة تعمل في الحمضيات وقطاف الزيتون و"الزبل"، على حد قولها.

وحسب ما جاء على ألسنتهنَّ، يتبيّن أنَّ النساء الأربع ينتمين إلى عائلات مزارعة تاريخيًا بالأساس، الأمر الذي يجعل عملهنّ في القطاع الزراعيّ أمرًا اعتياديًا وغير مُستغرَب من قبل باقي أبناء المخيّم. تفيد رئيفة في هذا الصدد أنّ لا أحد يُلقي عليها أيّ تعليق لكونها امرأة تعمل في الزراعة، والسبب في ذلك حسب قولها أنَّ: "هاي شغلتنا، وبنشتغلها من أيام فلسطين، وما حدا بيستغرب، وما بيشبهوني بالزلمة"، على حد وصفها. وتؤكّد سبتة ذلك بقولها: "ما حدا بيستغرب لأنه من زمان بنشتغلها".

العلاقة مع الوكلاء

عند الحديث عن العمل الزراعي، يكون الوكيل من أوّل الأشخاص الذين يتم ذكرهم، وهذا ما تبيّن معنا خلال المقابَلات التي أجريناها. فمن هو الوكيل وما هي مهمّته؟ وما الفارق بينه وبين صاحب الأرض؟

لمحاولة البحث عن إجابة، سألنا وكيل عمّال زراعيين سابق ليوضّح لنا وجود نوعين من الوكلاء: هناك "وكيل المصلحة" الذي يؤدّي دَور صاحب الأرض، فأحيانًا يلجأ المُلّاك إلى تسليم الأرض إلى وكيل يتولّى كامل المهمات عوضًا عنهم، حيث يشرف على العمل ويكون هو المسؤول عن العمال، والرواتب، والعُطَل، وطبيعة العمل، وتقسيم المهمات للعمّال. وفي حال عدم توظيف وكيل، يشرف المالك بنفسه على العمل، وينجز المهمات المذكورة ذاتها. ووفقًا لما جاء على لسانه، لا فارق بين وكيل المصلحة وصاحب الملك من حيث المعامَلة والمهمّات، لأنّ الوكيل يحلّ مكان صاحب الملك، ليكون العمل إمّا تحت إشراف المالك وإمّا الوكيل. أمَّا النوع الثاني من الوكلاء فيسمّى "وكيل العمّال" وتكون مهمّته تأمين عمّال بناءً على طلب وكيل

المصلحة أو صاحب الأرض، ونقلهم من العمل وإليه، على أن يُخصَّص له أجرٌ مقابل ذلك.

تقول رئيفة إنّ الوكيل، الذي قد يكون لبنانيًا أو فلسطينيّ الجنسية، هو الذي يقلّ العاملات والعمّال إلى العمل، وتسمَّى هذه "ورشة"، وتتكون عادة من قرابة الثلاثين امرأةً ورجلًا. وتضيف: "في منهم بس بوصلونا وبفلّوا، وفي منهم بضلوا فوق راسنا، ليطّلعوا علينا شو اشتغلنا وشو عملنا". أمَّا وكيل المصلحة، فهو المسؤول عن حياتهنّ وأمورهنَّ في أثناء العمل، وعادة "بس بيتأمّر". وتسمّي رئيفة مالك الأرض بـ"المعلم". أحيانًا يكون "المعلم منيح وأحيانًا لا، إذا كان منيح بتكفّي نهار الشغل وبتفلّي إذا لا بتنقلي على شغل تاني" أي على "ورشة" أخرى وأرض مختلفة. وتشرح رئيفة أنّ مالك الأرض الذي يتّبع معهنَّ معامَلة حسنة لا تحبّ النساء أن يغيّرنه. والمعامَلة الحسنة هي ألّا يراقبهنّ طوال الوقت وألّا يضغط عليهنَّ من ناحية الإنتاجية، وقد بقيت رئيفة تعمل في الأرض ذاتها مدة خمس عشرة سنة بسبب هذه المعامَلة الجيّدة. إلّا أنَّ هذا العمل لم يكن يجني لها أكثر من تسعة آلاف ليرة لبنانية يوميًا ما قبل أزمة انهيار الاقتصاد اللبناني، ليرتفع هذا الأجر إلى ٢٠ ألفًا يوميًا بعد الأزمة عند إجراء هذه المقابَلة، أي ما يعادل دولارًا أميركيًا واحدًا فقط. وتلخّص رئيفة العلاقة السلطويّة مع الملّاك والوكلاء بقولها: "بيقولولِك اشتغلي يا بنتي هيك، إعملي هيك، رئيفة تعي لهون، روحي لهناك، اشتغلي هون هناك..."

العلاقة مع ملّاك الأراضي

يؤكد كلّ من سبتة وعائشة وحسنة أنّ معاملة الملّاك لهنّ متفاوتة حسب مالك العمل ومزاجه، فبعضهم يعاملهنّ معامَلة حسنة وبعضهم الآخَر يكون سيّئ الطبع. لكن تقول سبتة أيضًا في هذا الإطار إنهنّ لا يتعرَّفن كثيرًا إلى صاحب الأرض: "وبس نخلص شغل عنده ببطل في إلنا علاقة معه". وتؤكّد وجود "ظلم من حيث المعاش والدوام" حتى مع أصحاب الملّاك "المناح". وحسب رئيفة كذلك: "احنا ما دخلنا فيهم، دخلنا بس بحالنا، إذا إنتِ صاحبة الأرض يعني ما إلنا تدخل معك، وعلاقتنا مباشرة مع الوكيل المسؤول عنا".

وإلى ناحية التمييز على أساس جنسيّتهنّ، لا ترى سبتة أنَّ هناك تمييزًا بين السوريات والفلسطينيات الموجودات في "الورشة" ذاتها، كما لم تعمل لبنانيات معهنّ. وتؤكد رئيفة هذا الواقع: "كلنا فلسطينيات بالورشة، والأرض للبنانية". وتكون العلاقة على شاكلة: "بكرا يا رئيفة روحي على هديك المصلحة، بكرا انقلي على مصلحة تانية". وتضيف أنّ "المعلم المنيح" هو ذلك الذي لا يميّز بين الفلسطينيات والسوريات. "والمعلم العاطل هو الي مش منيح معك، لئيم وبيتأمر، وشغله صعب، وشو ما اشتغلتي ما ببيّن معه"، وهنّ عادةً ما يغيّرنَ الأرض في هذه الحالة الأخيرة وينتقلن إلى أرض أخرى، متّبعات أسلوب الإضراب عن العمل.

أمّا حسنة، فتحكي بأسلوب دافئ عن جيرانها، مشيرةً إلى أنَّ العمل كان لطيفًا في بعض الأراضي، حيث كان الجيران الذين يسكنون البيوت المجاورة للبساتين يمدّونهنّ بالشاي والمشروبات والطعام. إلّا أنّ

أصحاب الأراضي لم يتكفّلوا بهذه الأمور. تضيف أنّ العُطَل ممنوعة حتى في أوقات المرض، وإن حصلت فهي غير مدفوعة، وهي عُطَل موسمية، أي أنّهنَّ لا يحصلنَ على يوم أو أيام محددة للعطلة. لذلك، تكون عطلتهنَّ هي نهاية الموسم والعمل في الأرض، أو بمعنى آخَر: "بنعطل بس لما يكون عند صاحب الأرض ما في شغل اليوم"، وهذا ما تؤكّده النساء الثلاث الأخريات. تردف حسنة في هذا السياق أنّ أصحاب الأراضي لم يهمهم أمر العاملات أبدًا ولم "يقدّروا التعب".

وعن عدد أيام العمل، تقول رئيفة: "كل يوم بنتشغل، بنعطل يوم يومين حسب صاحب الأرض بس ما يكون عنده شغل". وبالنسبة لعدد الساعات، في ٥ ساعات عمل لليوم الواحد، لكن أحيانًا لا ينتهون من العمل حتى المغيب، أي " دوبلة يومين في اليوم الواحد. المحتاجة بتشتغل للساعة ٥ والمش محتاجة بتفل الساعة ١١ الضهر... أنا كنت أغيّب الشمس بالمصلحة".

أمّا عائشة فتصف معاناة المعامَلة الفوقية بعبارة أدق: "صاحب الأرض المش منيح بيكون ظالم، بيضغط عالشّغيل، وكإنه بيتملّكه، وبيضغط عالنسوان والزلام بنفس الطريقة". أما إذا حصل أن مرضت المزارعة في أثناء عملها، فلا تستطيع العودة إلى بيتها لتستريح: "ما فيكِ تفلّي، بتقعدي على جنب تستني باقي العاملات ليخلصوا شغل عشان تفلي معهن، وهذا اليوم بكون غير مدفوع". وتضيف: "أصحاب الأرض ما بجيبولنا لا أكل ولا شرب، بس المناح فيهم كانوا يكونوا كرماء، فكانوا يعطونا من فائض المحصول".

وفي ما يوزّع أحيانًا على العاملات والعمّال بالمجمل، فيكون أصلًا "برارة" المحصول، أي المحصول الذي لا تقبله المعامل، ويوزّع على الحسب التجارية ويُعطى جزءٌ منه للعاملات والعاملين، وذلك حسب توصيف الوكيل السابق المذكور آنفًا.

استعباد مقابل فتات

وفي استكمال الحديث عن عدم تقديم الطعام والشراب في أثناء دوام العمل، تروي رئيفة معاملة سيئة تعرّضت لها، تعكس الذكورية التي تواجهها النساء العاملات، حيث تقول:

"مرّة الوكيل حرّض عليّ المعلّم وقلوا «ليك رئيفة عم تاخد المي» عشان كان بدي أجيب قنينة مي، الوكلاء بيتحركشوا وبيجاكروا فينا. في ذلك اليوم، أرادت أن تأتي بالماء لنفسها ولزميلاتها ولكنَّ الوكيل منعها معلّقًا: "ما في مي، روحوا عبّوا مي من وين ما بدكم، هاي المي نحنا جبناها". فالوكيل، كما تشرح "بغض النظر عن جنسيته" قد يمنعهنَّ من الشرب، خصوصًا حين يكون "محطّط" على أحد وذلك تحت مبدأ "إنه ليش رئيفة هي يلي إجت تاخد المي؟ رئيفة نار، قوية، مش شغّيلة، معش تخليها بالمصلحة".

وتشرح رئيفة أنَّ الوكلاء يخافون من المرأة القوية، "وبيحرضوا عليها المعلم ليطردها". والنساء لا يقفن معها

في هذه الحالة، ففي هذه التجربة مع الوكيل الذي منعها من الشرب، لم تساندها زميلاتها، وألقينَ اللوم عليها لخناقها مع الوكيل -"ليش تخانق الوكيل؟"- مع أنها كانت تسعى فيه إلى تأمين المياه لكي يشربن كذلك.

ومن قصّة رئيفة، يظهر أنَّ المرأة القوية تستفزّ المعلّم والوكيل، لدرجة "تحطّطه عليها" والسيطرة على أيّ حركة تفعلها، مثل منعها من الشرب. ويمكن توقّع هذه السيطرة في ظل طبيعة النظام الأبوي الذي يهاب المرأة القوية وتستفزه شخصيتها التي لا تخضع لقوانينه ومشيئته. هذا إلى جانب طبيعة العمل الرأسمالي الذي يقوم على استغلال العاملات بأكبر قدر ممكن مقابل أقل قدر من الحقوق. أمّا في ما يتعلّق بالزميلات اللواتي يكرّرن الخطاب الذكوري نفسه عن المرأة القويّة، فهو أيضًا متوقّع من نساء لا يملكن خيارًا آخَر سوى أن يتفادين الاصطدام مع صاحب الأرض وسلطته الأبويّة.

تخضع النساء عنوةً في المجتمَعات الذكورية لسلطة الرجل الأقوى بالمجمل، وقد يتبنّينَ خطاباته في محاولة منهنّ لنيل القبول المجتمعيّ، حتى لو كانت عكس قناعاتهنّ، فكيف إذا كانت عاملة بلا حقوق أو صوت مسموع؟ ربما تتفادى العاملات اللواتي لا قوى لديهنّ الاصطدام مع صاحب الأرض والوكيل كي لا يخسرنَ عملهنّ ومصدر رزقهنّ الوحيد. وهو ما يبدو واضحًا في عبارة "ليش تخانق الوكيل؟". ولكن على الرّغم من تحفيز النظام الأبوي-الرأسمالي النساء على عدم التضامن، سوف نرى لاحقًا بعضًا من مظاهر التكافل والمقاوَمة الجماعية.

وعلى الرغم من اللوم الذي وقع على رئيفة من زميلاتها، تعرف الكثيرات من النساء أنَّ ما يعانينه من ظلم هو مشترَك بينهنَّ. تشرح سبتة في هذا السياق أنّ غيرة الرجال من العاملات ومحاوَلة السيطرة المعنوية والعمليّة عليهنَّ هما مشكلتان مشترَكتان تعاني منهما النساء أيضًا. كما تضيف: "بيشبهوني بالزلمة، إني أقوى منه، وبفتخر بنفسي، وبيغاروا مني بقية الرجال، وبصيروا يهاجموني ويتحدوني لما يجي الوكيل يقول مثلًا: "هي أشطر منكم، وأرجل منكم بالعمل، يعني تنتين بعد متلها بنستغني عنكم الكل"، وصاحب الأرض بيأيد".

وعن علاقتها المتفاوتة بالنساء الزميلات تقول سبتة إنهنَّ يعملن معًا، ومع ذلك "بحس إني بشتغل أكتر من الباقي، وبصيروا يجاكروني، ويتركوا الشغل عليّ، وصاحب العمل بيلاحظ إنه في حدا بيشتغل أكتر من التاني، بس ما بيعطي هالحدا على قد تعبه، وبيضلوا مقصرين بحقه". ولكن في سياق آخَر من الحديث تعود لتؤكّد أنّ النساء يتفهّمنَ ويساندنَ بعضهنّ في كثير من الأحيان.

التمييز

وعن التمييز الجندري بين العمال والعاملات تُظهر رئيفة إدراكها إيّاه؛ تخبر عن عدم التساوي في الأجور بين النساء والرجال، حيث بلغ معاش الرجل اليومي قبل الأزمة ٢٠ ألف ليرة يوميًا مقابل ٩ أو ٨

آلاف ليرة للمرأة العاملة. تردف رئيفة: "المرأة لو قلعت الأرض قلع والزلمة مقابلها ما اشتغل شي بيضلوا يفرقوا الزلمة عن المرأة وشو ما عملت المرأة بتضل أقل منه". وتضيف أنَّ النساء كُنَّ يشعرنَ بالقهر من هذا التمييز الذي يمارسه صاحب الأرض والهشاشة التي يعشنها، فمن السهل جدًّا أن يستغني صاحب الورشة عنها حتى لو كانت من أفضل العمّال/العاملات. وتصف كيف يجتمع الرجال على إحباطهنّ: ("إنتو بتشتغلوش منيح، إنتو جايين تتسلّوا عالشغل") خصوصًا حين "يتحطّط" الوكيل أو المعلم عليهنّ. وتنهي معبّرة عن هذه المعاناة بالقول: "لو بتقطعي قلبك بالشغل ما ببيّن".

أمّا سبتة فترى أنّ الرجل يعمل أكثر، لذلك معاشه أعلى، "فهو الذي يحرث وينكش الأرض ويزرع ويسقي المياه، ويرش الدواء". إلّا أنّ هذا التفاوت في الرّأي بين سبتة ورئيفة يعود إلى أنَّ سبتة لم تعمل أساسًا سوى في القطاف، أمّا رئيفة فقد عملت في إزالة العشب أيضًا.

تؤكد حسنة وعائشة أنّ الرجال يتقاضون معاشات أعلى، وتشير عائشة إلى أنَّ معاش المرأة هو تقريبًا نصف معاش زميلها الرجل، ولا تتردّد في وصف هذه الحالة بالظلم، وتجزم أنَّ النساء يشعرنَ بهذا الظلم، "بس ما حدا بيرد ولا حدا بيسمعك لو قد ما حكيتي وطالبتي بحقك عالفاضي، ولما بتحكي بيجاوبوا إنه الزلمة شغله غير عنك وبيتعب أكتر". ويظهر شرح عائشة إدراكها كيف يستفيد الرجال من الوضع على أكثر من صعيد؛ فزميلها العامل لا يتلقّى معاشًا أكبر فقط، إنما هو يتعامل مع زميلاته بطريقة فوقية "بس لأنك بنت"، يصرخ ويأمر "وبصير أسوء من المعلم أحيانًا"، مع أنه في معظم الأحيان يمارس مهمّات العاملة نفسها. وتعود عائشة للتحدّث عن المعاشات المتدنّية، فهي بالتأكيد لا تكفي، لذلك كما تقول، يضطرّ كل أفراد العائلة إلى العمل من أجل تأمين المعيشة.

المقاوَمة والتكافل والتضامن النسوي

تطرقنا في حديثنا مع المزارعات إلى سؤال حول علاقاتهنَّ مع زميلاتهنَّ من النساء، حيث تبيَّن لنا جزءٌ من شكل هذه العلاقة في الإجابات السابقة. وجاءت أجوبتهنَّ لتظهر علاقة التضامن بينهنَّ بشكل أوضح.

فرئيفة تشدّد على أنّ "نحنا النسوان بنوقف جنب بعض بمشاكلنا، الزلام ما خصن، مثلًا، إنت مريضة اليوم؟ تعي بحملك على كتفي وبترك الشغل وبرجعك على البيت، وبيجي المعلّم بيسأل، بقوله رايحة أفلّل فلانة لإنها مريضة، وبروح نهار الشغل". وفي هذه الحالة، تخسر الزميلة معاشها ليوم بسبب تطوُّعها هذا.

وكذلك تؤكد سبتة علاقة الصحبة التي تشاركها مع النساء، في حين لا توجد علاقة صداقة مع العمّال الرجال " لإنن بكونوا أصلًا بعاد عننا، إذا صار مشكل مع امرأة بنوقف كلنا جنبها، وما بنسمح انه حدا يتحطط عليها، خصوصي إذا كانت كبيرة بالعمر". ويأتي جواب حسنة مشابهًا، وتصف كيف تغنّي النساء ويرقصنَ معًا طوال الطريق أحيانًا.

من الواضح حسب ما جاء على لسان العاملات أنّهنّ جميعهنّ يُحسسنَ الظلم، ويعينَ تمامًا التمييز الجندريّ الذي يطالهنّ، فقط لأنهنّ نساء في المجال، ما يدفعهنَّ إلَى التكافل والوقوف إلى جانب بعضهنّ حتى في حالات الخلافات حسب تعبيرهنّ.

ومن أساليب المقاومة والتكافل التي يتّبعنها عندما يبلغ الظلم أقصاه في العمل، هي الإضراب الذي تجمع النساء الأربع على تبنّيه واللجوء إليه بشكل مستمر.

تقول رئيفة في هذا الصدد:

"بنتفق كلنا النسوان سوا نأضرب، وبنأضرب إذا كان المعلّم لئيم، وبنصير نقنع بعض كلنا إنه لازم ما ننزل عالشغل ونغيره...على طول هيك بنعمل، بنكون عم نتفق النسوان كلنا إيد وحدة مع بعض".

وتستفيض سبتة في الحديث عن كيفية إضرابهنّ وأسبابه، قائلةً: "أضربنا عن العمل كتير، وقررنا إنه بكرا مثلًا ما بدنا نروح بحالات بكون فيها صاحب الملك ظالم بدو الشغل ينقام بصعوبة، وقتها بنكفيلو اليوم وبنغيّر المصلحة، ومعش بننزل لعنده بنكون متفقين كلنا مع بعض قبل... نحنا بس النسوان بنتفق الزلام ما بكونوا معنا". وفي سؤالها عن طبيعة هذا الظلم تقول: "مثلًا بدك تعشبيلو هالأرض سواء سهلة أو صعبة، وبصير يطلّع شغل حتى لو ما في شغل".

ويظهر جواب عائشة كذلك الظلم الذي يتعرضن له والذي يدفعهنَّ إلى الإضراب عن العمل: "كنا بمشتل زيتون، يخلينا لبعد المغرب مثلًا وبنشتغل ساعات زيادة مش محسوبة، فبنأضرب وما بنروح على الشغل". وتردف واصفةً المعامَلة الفوقية: "بعاملونا هيك لإنه مش إلنا الأرض، نحنا بالنهاية بنشتغل عند العالم، ورهن مزاجهم".

لكنَّ عائشة تشير أيضًا إلى عدم مشارَكة جميع النساء في الإضراب، بقولها: "في نسوان بكون بس بدها تشتغل". إنَّ رواية عائشة الأخيرة عن امتناع بعض النساء عن المشارَكة في الإضراب هي ما يؤكّد أيضًا اضطرارهنّ إلى الخضوع للظلم والاستغلال، وأحيانًا إعادة إنتاج الخطابات الذكورية كما ورد سابقًا، مقابل لقمة العيش.

وتشرح رئيفة أنَّ المعلّم حين يسأل الوكيل عن العاملات يردّ الأخير بأنهنَّ لم يرضين بالمجيء إلى العمل هذا اليوم، فيستقدم صاحب العمل عاملات أخريات.

وحسب رواية النساء، يتبيَّن التضامن بينهنّ وبُعدهنَّ من زملائهنّ الرجال إلى حدّ عدم وجود علاقة معهم أصلًا، ويرجع ذلك حسب ما وصفته العاملات سابقًا إلى إحساسهنَّ بالظلم والتمييز بينهنّ وبين الرجال، وأيضًا إلى طبيعة العلاقة مع الرّجال التي حسب ما ذكرنها، غالبًا ما تكون سلطوية وذكورية وتأخذ طابع الغيرة في حال كانت المرأة أقوى من الرجل، كما جاء على لسان المتحدِّثات سابقًا. وكذلك، قد لا يشجّع

المجتمَع بشكل عام علاقات الأخوّة والصداقة بين النساء والرجال، وتكرّس ممارَسة العمل امتيازاتهم الجندرية لهذا التباعد، من خلال معاملتهم الفوقيّة لزميلاتهم المزارعات.

أمّا عائشة فتتحدث في الوقت ذاته عن علاقتها المتفاوتة بالنساء مشيرةً إلى أنّ العلاقة معهنّ تكون منوطة بالنساء، أي أن المودّة والتضامن لا يحصلان فقط لأنهنَّ نساء؛ فحسب رأيها، هناك نساء – خاصة إذا كنّ مخضرمات – يتعاملن أيضًا بنظرة فوقية مع العاملات الأصغر منهنَّ، تصل إلى حدّ محاولتهنَّ التخلص منهنَّ في مكان العمل.

الحماية من التحرّش في مكان العمل

بعد الذكورية والأبوية الواضحتَين اللّتين لاحظناهما في إجابات النساء، تطرقنا إلى السؤال عن التحرّش: هل تعاني النساء العاملات من التحرش سواء من قِبل الملّاك أم الوكلاء أم الزملاء الرجال؟ وجاء رد سبتة وحسنة أنهما لم يتعرضا للتحرّش من قبل، بينَما أجابت رئيفة: "ما في تحرش بالمجمل، بس مرة بنت تعرّضت للتحرش من الوكيل، فضربته بالصرماي، ومعش حكى معها، وكلنا النسوان يومها وقفنا بوجهه، وقررنا نوقف شغل معه، وكفّينا نهار الشغل ومعش رجعنا مرة تانية على هالمصلحة". يظهر في كلام رئيفة ثانية تكاتف النساء مع بعضهنّ عند التعرّض للتحرش واتّخاذ مواقف تضامن، مثل تلك في حالة الإضرابات.

أمّا عائشة، فأجابت أنها تعرضت للكثير من التحرش سواء من صاحب الأرض أم من الزملاء، ويبيّن جوابها مدى تأثير التحرّش على عمل النساء ووضعهنّ الاقتصاديّ، حيث كانت تترك عملها في كلّ مرّة، إلّا أنها تضيف مجيبةً عن سؤال: "كيف كان ردّ فعل النساء على تعرُّضك للتحرش؟" بـ"مش كل النسوان فيك تخبريها، ومش كلن بيتقبلوا إذا خبرتن". إذًا، يمكن ربط صعوبة التبليغ عن حالات التحرّش التي تعرّضت لها عائشة وتوقّع عدم تقبّلها من قبل بعضهنّ، بما تنتجه العقلية الذكورية بالمجمل من لوم الضحية، والدفاع عن المتحرشين، وحساسية التبليغ العلني عنه وتبعاته.

الاستغلال المضاعف

وفي الحديث عن حياتهنّ الشخصية والعبء الذي العبء الّذي يتكبّدنه بسبب عملهنّ داخل المنزل وخارجه، تشاركنا رئيفة معاناتها بقولها:

"بنشتغل جوّا وبرّا، بنشتغل شغل البيت وبنصبّح فايقين، وما حدا بقدّر هالتعب ولا بيشوفه، وهاد الوضع بفترة ما كان غصبن عني، مش بكيفي، كان عندي أيتام وولاد صغار بدي أعيّشهم، كانوا صغار لمّا مات أبوهم، وكنت آخدن معي عالشغل، أعملن خيمة برا المصلحة، وأكون آخديتلن معي أكل، وأقعدن فيها ويضلوا لحتى أفل".

وفي السؤال عن رد فعل أصحاب العمل والوكيل على جلبها أطفالها معها إلى العمل، تُجيب أنَّ الوكيل وصاحب العمل لم يعترضا على هذا الأمر: "وكانوا يعاملوا الولاد منيح... مضيت عمري في إحدى المصالح وكنت آخد ولادي معي" وحين يبكي أحد أطفالها يشيرون إلى الاهتمام بحاجته. وتضيف رئيفة أنها بقيت تصطحب أطفالها معها حتى كبروا فأصبحوا يعتمدون على أنفسهم ولم يعد يستهويهم الذهاب مع والدتهم إلى مكان عملها. وتطوّع ابنها البكر للتّكفّل بالعمل في المنزل والطبخ والاهتمام بباقي إخوته، حسب قولها.

أمّا سبتة فتقول: "أهلي بيقدروا تعبي، بفيق من الصبح بكير، بشتغل شغل البيت، صاحب العمل والرجال ما بيقدروا انه بنتعب أكتر. وما بيقدروا إذا وحدة فينا مرضت، ببساطة بقولولك إذا مريضة ما تيجي عالشغل من الصبح، مش تيجي وتمرضي بالشغل، وإذا مرضتي بالشغل، حتى لو كان عليك الدورة الشهرية، بقولولك بدك تكفّي يومك حتى لو مريضة".

دَور المزارعات الفلسطينيات في الاقتصاد

تطرقنا في أسئلتنا أيضًا إلى طبيعة علاقة المزارعات بالأرض ورؤيتهنّ لأنفسهنّ كمساهمات في الاقتصاد، وذلك بقصد الإجابة عن الجزء الثاني من سؤال هذا البحث، ألا وهو: "كيف ترى المزارعات أنفسهنّ ومساهمتهنّ في الاقتصاد اللبناني؟"

تُجيب رئيفة: "ما خصنا، بنشتغل شغلنا وبنفل، بنشتغل أكتر من اللازم، المحصول الي بطلعه صاحب الأرض ببيعوه وهو بياخد المحصول وبيبيعوا مقابل احنا كنا ناخد ٩ آلاف ليرة باليوم". وتضيف: "هو يلي بياخد الربح، بس احنا ما دخلنا، احنا عم نشتغل نهارنا بنكفيه وبنفل وما دخلنا شو ما يطلّع لو طلّع مية أو مليون... بنحس في ظلم، بس بالنهاية إحنا دخلنا بس بحالنا، إذا انت صاحبة أرض ما النا تدخل معك ولا النا فيكِ".

وتقول سبتة إنّ مساهمتها في الاقتصاد لا تعنيها: "إذا حوّشنا ليمون الليمون لصحابه، وهني يصطفلوا فيه، واحنا بنخلص وبنفل، ما خصنا". وعندما سألناها عن رؤيتها لتفاوت موازين القوى بينها وبين المالك أجابت: "صاحب الأرض مش أقوى ولا أعلى منا، بالعكس، نحنا الي بنطلّعلو الشغل، ونحنا أغنياء بنفسيّتنا، ونحنا يلي عم ندير بالنا على الأرض ونعمل فيها ونعطيها". وتشير أيضًا إلى أنّها لا تشعر بدونية حيال ذلك.

وعن الانسلاخ عن إنتاجيتها، تقول سبتة، مثل زميلاتها، إنها تنهي عملها وتمشي: "أيام النقلة ما بتنباع، برجعوها، بكون في شي غلط، وما بنحس شي حيال الموضوع، لإن الغلط ما بكون منا، ولا الحق علينا، وما بنحس تعبنا راح عالفاضي، لإن بيرجعوا بزبطوها وبيبعوها".

وتضيف عائشة في هذا الصدد أنها تعمل فقط لتأمين معيشتها، وليس حبًّا بالعمل عند الناس. تصف أنها تشعر بالأسى على صاحب الأرض: "إذا راح المحصول وما انباع... لإن رزقتنا من رزقته، احنا كمان

عايشين من وراه". ولمن في النهاية تقول أنها لا "قديه بنساهم بالربح وولا مرة حسبتا".

اللامساواة: ملكيّة الأرض نموذجًا

وعندما سألناهنّ عن علاقاتهنّ بالأرض جاءت الإجابات على الشّكل الآتي:

تعرّف رئيفة عن نفسها بأنها "فلسطينية" مهما حصل، "وبترتاح بالمخيّم"، وتقول:" أنا بحب اشتغل مش محبة بالشغل، محبّة إنه بدي أصرف بدي أعيش، ما عندي علاقة مع الأرض، ما دخلني، دخلني أكفي نهاري عشان آخد قرشي". ويأتي جواب حسنة وعائشة متجانسًا، إذ تؤكّد حسنة أنها تعمل فقط "بسبب العازة"، وحسب عائشة "لكي أصرف على حالي".

أما سبتة، فكان جوابها مغايرًا، إذ عبّرت عن علاقة قوية مع الأرض: "في ظروف أخرى لا أعمل في هذا العمل، بس بحب الأرض، بحب أضل فيها وأعطيها وبتذكّرني بفلسطين. بحب الشغل طبعًا وما بعرف نفسيتي بترتاح وأنا بالأرض مع الطبيعة، خاصّة بشغل الزيتون، رغم أنه متعب، بس حلوة لمّا تقعدي انتي ورفقاتك تاكلوا وتمزحوا وتضحكوا آخر اليوم، وكمان الزيتون بذكرني بفلسطين، بيت جدي كان عندن أرض زيتون بفلسطين".

الخاتمة والاستنتاجات

تظهر الصعوبات والضغوط التي تواجهها العاملات المياومات في أجوبتهنَّ في المقابَلات التي أجريناها معهنَّ، والتي تتجسّد في طبقات من مَظاهر الاستغلال، منها الطبقية والقانونية والرأسمالية، إضافةً إلى طبيعة النظام الأبوي الذي يقهر النساء. تبدأ الصعوبات من طبيعة القانون الطبقي الذي لا يحمي المزارعات/ين وتغييب الدعم الرسمي لهذه الشريحة، إلى جانب غياب الاستقرار في العمل، والأمان الوظيفيّ، وأسس الحماية المجتمعيّة حيث كانت النساء الأربع دائمًا مضطرات إلى تغيير العمل والتنقّل من أرض إلى أخرى بناءً على مزاج صاحبه، وبسبب سوء معامَلته.

أمَّا السبب الرئيس المشترَك بين النساء الأربع والّذي دفعهنَّ إلى هذا العمل فهو الحاجة، الأمر الذي يعرّضهنّ لاضطهاد مضاعَف.
وتظهر علاقتهنّ بأصحاب العمل والوكلاء كعلاقة تتّسم بفوقية الأخيرين ورؤية دونية من قبلهم للعاملات، تصل إلى قرابة الاستعباد إلى ناحية الحرمان من العُطَل وإجازات المرض، والتحكّم في طريقة عملهنّ، وأحيانًا الحرمان من الشرب في أثناء العمل. من هنا، تسيطر الذكورية والسلطوية على نواحي عملهنّ كافّة، وحتى على علاقاتهنّ مع زملائهنّ الرجال، ومع النساء كذلك بطرائق مختلفة. من الواضح أيضًا غياب أيّ علاقة بين ربّ العمل والعاملات، مبنيّة على أساس الحقوق ووفقًا لقوانين مثبتة، بل من خلال وكيل، الأمر الذي يؤدّي إلى مضاعَفة الاستغلال الذي تتعرض له العاملات، سواء استغلال الوكلاء

أنفسهم، أم استغلال الملّاك فائض القيمة الناتج عن عملهنّ.

تعاني النساء في هذا السياق من التمييز على أساس هويّتهنّ الجندرية، حيث تخدم الذكورية الاستعباد بما يجذّر الاستغلال. اللافت هنا أنَّ النساء مدركات تمامًا هذا التمييز والاستعلاء والتسلّط، وحتى مدركات غياب حقوقهنّ، إلّا أنَّ ضغوط العمل والحياة وانعدام الفرص والحاجة المادية هي التي تجعلهنّ راضيات أو على الأقل مستمرات بهذا الوضع.

كذلك، إنَّ اتّباعهنّ أساليب مطالبة بالحقوق كالإضراب، ومن دون وجود بدائل لتغيير واقع عملهنَّ، دليل على معرفتهنّ حقوقهنَّ. ولكنَّ الإضراب في هذا النوع من العمل لا يفضي إلى ظروف عملية أفضل، بل إنّه يأتي فقط في إطار البحث عن معامَلَة أقل قسوة من الملّاك، ولا يصل حتى إلى درجة الحديث عن هذه الحقوق مع أصحاب الأراضي، ما يعكس صعوبة النضال النسوي – والعمّالي – في هذه الحالات. وما يبيّن كذلك استغلال ملّاك الأراضي وعدم قدرة الإضرابات على تحقيق التغيير الفعلي، حسب ما جاء في المقابَلات، هو كيف يأتي الملّاك مباشرةً بعاملات أخريات في حال توقُّف المزارعات عن العمل، محاولين بذلك تطويق الاحتجاج ومستغلين فائض العمالة التي تعاني من البطالة والفقر؛ فأصحاب العمل لا يحادثونهنَّ حتَّى، وهو ما يدلّ على أنّ المالك لا يبالي بواقع عاملاته، وأنه يضمن ويقرّ بأنّه قادر على جلب عاملات أخريات واستغلالهنّ بناءً على موقعهنّ الطبقي الذي يجعل بعضًا منهنّ مضطرًّا إلى القبول، وكأنّ موافَقة العاملات على الاستغلال مكفولٌ في عقلية المالك الفوقية والطبقية، والتي تعلم مدى حاجة بعضهنَّ إلى العمل.

تُبرز المقابَلات أيضًا خضوع العاملات النساء لنظام العمل مرغمات، وهو يدل كذلك على مدى صعوبة النضال والتنظيم النسوي في هذه الحالات، حيث يغيبِ أيّ إطار سياسيّ جامع سواء نضالي أم مؤسساتي رسمي يحميهنّ، ما يرسّخ مبدأ الفردية بدلًا من التشارك في مواجَهة الظلم. ولهذا، قد تعيد العاملات إنتاج الخطابات الذكورية أحيانًا والتي هي أصلًا ناتجة عن الاستغلال الذي يعزّزه العوز. وعلى الرغم من ذلك، يظهر تضافر العاملات ومحاولتهنّ مقاومة الظلم من خلال عدّة طرائق يوميّة للتكافل لا يراها المجتمَع، مثل اتّخاذهنّ مواقف جذريّة في حال تعرّضت إحداهنّ للتحرش، تصل إلى تركهنّ العمل جميعهنَّ.

أمّا العلاقة مع الملّاك، فهي تعتمد على المالك نفسه، "وأخلاقيته" في التعامل مع العاملات. والجدير ذكره أنّ صاحب الأرض "المنيح" حتّى، كما تم وصفه، يعتمد الأسلوب الاستعبادي نفسه، حيث لا تصل معاشاتهنَّ إلى الحد الأدنى للأجور، ولا يعطي النساء أدنى حقوقهنّ. كما تظهر تعليقات النساء على الملّاك بـ"المنيح" و"العاطل" تطبيع تدني الأجور، والاضطهاد، ومعرفتهنّ بالمطالبة بتحسينها لكن بلا جدوى.

إنَّ طريقة تعامُل الملّاك والوكلاء، وغياب أيّ نوع من التقدير لجهودهنّ يجعلان النساء منسلخات عن الأرض والاقتصاد تمامًا، إلّا في حالة سبتة؛ فما زال الفلسطينيون والفلسطينيات مرتبطين/ات بقراهم/

هنَّ الأصلية التي جاؤوا/جئنَ منها، كما أنّ التهميش الممأسس والمجتمعيّ الذي يعاني منه اللّاجئون واللاجئات الفلسطينيَّون/ات في لبنان، والإقصاء الذي يحصرهم/هنَّ داخل مساحات جغرافية محددة ومرسومة بحواجز هي المخيَّمات، إضافةً إلى حرمانهم/هنّ من أبسط حقوقهم/هنَّ المدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كلها عوامل تجعل انتماء الفلسطينيين/ات إلى الأراضي اللبنانية ضعيفًا، وبالتالي رؤية أنفسهم/هنّ كفاعل أساسي في الاقتصاد، وذلك على الرغم من مرور ثلاثة وسَبعينَ عامًا من وجودهم/هنَّ على هذه الأراضي التي شهدت حتى الآن أربعة وخمسة أجيال من اللاجِئين/ات.

في حالة العمالة الزراعية يأتي الانسلاخ أيضًا بسبب طبيعة العمل المياومة التي تربط العاملة بمحدودية يوم العمل الذي تتوقع في أيّ آن أن يتم تغييره في اليوم التالي، وكذلك بالاستغلال والحرمان من الحقوق. لذلك، فإنّ طبيعة الملكية الخاصة وقيمتها ترتبطان بقيمتها السوقية والسلعية، بدلًا من أن تكون الأرض قيمة اجتماعية يستفيد منها مَن يعمل فيها ويعيش عليها بالتساوي؛ كلها عوامل تزيد مشاعر الانسلاخ.

هذه العوامل كلّها، والتي تنعكس في الممارَسة الفوقيّة اليوميّة تجاه المزارعات، تقف حاجزًا واضحًا أمام محاوَلة النساء المتمثّلة في الاندماج مع الأرض والعمل. يتجلّى ذلك في إجابات النساء المتكررة التي تأتي بنبرة "إذا إنت صاحبة عمل ما إلنا تعاطي معك". وحتى في حالة سبتة التي تصف علاقة قويّة مع الأرض وأشجار الزيتون، نجد أنها تعي تمامًا دورها في الإنتاج، إذ تقول: "احنا الي بنقوم بالأرض وبنعطيها وبنمشّي الشغل". فهذا الارتباط بالأرض وبالعمل في الزراعَة مقترن بعلاقتها العاطفية مع فلسطين، كما وصفت، وليس بظروف عمل لائقة. لذلك، يؤكّد هذا البحث وحديثنا مع العاملات المزارعات عن تجاربهنَّ، أنّ وظيفتهنَّ، كما هو معروف عنها، هي زيادة رأس المال الممسوك من قبل الرجل والسلطة الأبوية ليس إلّا.

لائحة المراجع

حنفي، ساري. شعبان، جاد. سيفيريت، كارين. (٢٠١٢). الإقصاء الاجتماعي للاجئين الفلسطينيين في لبنان: تأملات في الآليات التي تعزّز فقرهم الدائم. مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٩٩.

صايغ، روزماري. (١٩٨٠). الفلّاحون الفلسطينيّون من الاقتلاع إلى الثّورة. مؤسّسة الأبحاث العربيّة.

لجنة الحوار اللّبنانيّ الفلسطينيّ. (٢٠١٦). اللّجوء الفلسطينيّ في لبنان (٢): واقع العيش وإرادة التّقدّم. جديدة المتن: دار سائر المشرق.

مشيرفة، كمال. (٢٠١٣). قرية النّاعمة قضاء صفد- فلسطين: جوهرة من جورة الذهب.. وشعلة كفاح ونضال. صور: لبنان.

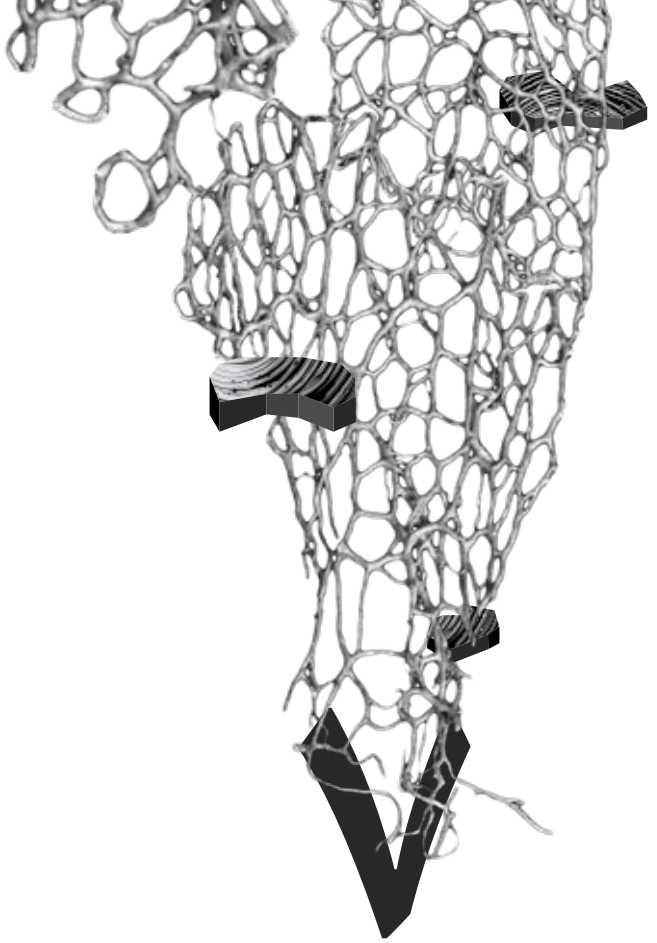

هند يونس

هند يونس ناشطة اجتماعيّة، حاصلة على ماجستر في الأنتروبولوجيا، ومشاركة في دراستين أجرتهما مجموعة الأبحاث والتدريب للعمل التنموي حول "البعد الجندريّ في الانتخابات البلدية في لبنان عام ٢٠٠٤" والعمل غير المرئيّ للنساء في لبنان. محرّرة الأخبار لموقعي "بوابة تمكين النساء اقتصاديًا" و"بوابة لبنان للتّنمية والمعرفة".

حرمان النّساء من حقّهنّ بالإرث

"حرمان المرأة من حقّها بالإرث هو أشدّ أنواع العنف؛ إنّه عنف اقتصادي يجرّ معه عنفًا نفسيًّا، جسديًّا، معنويًّا..."

الدّكتورة علوم عودة[١]

يستند كلّ ما يتعلّق بالإرث[٢] والتوريث في لبنان إلى قوانين الطوائف الدينية، ولذلك يختلف بين طائفة وأخرى؛ فعند الطوائف المسيحية، يقسم الميراث بالتساوي بين النساء والرجال. أمّا عند الطوائف الإسلامية، فللذكر مثل حظّ الأنثيين.[٣] بينما في الواقع، يتمّ تقسيم الميراث وتوزيع الإرث بحسب تقاليد اجتماعية لا تحترم المساواة بين النساء والرجال المذكورة عند المسيحيّين، ويتخطّى الإجحاف بحقّ النساء المكرّس عند المسلمين بأشواط، إذ يقوم الآباء والأبناء بممارسات تبدو فرديّةً تجاه بناتهم وأخواتهم وزوجاتهم فيعمدون إلى حرمانهنّ من الميراث كليًا أو اقتصار توريثهنّ على جزء يسير من الميراث أو المال دون الاقتراب من الأرض أو المنازل، بحجّة عدم انتقالها إلى عائلة الصّهر (علمًا أنّ هذه الممارسات مقبولةٌ ومدعومةٌ من النظام الأبوي وهي جزءٌ من بنيته). ففي الهيكل الاجتماعي الّذي يتميّز بسيادة الأب أو الابن الأكبر في العائلة، يكون للرجال فيه السلطة على النساء بدءًا من الاسم وصولًا إلى الملكيّة، كما يتمّ توارث السلطة بين الذكور بشكل عامّ. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يحقّ للرجل أن يمنح الجنسيّة لزوجته غير اللّبنانيّة، بينما تُمنع النساء من منح الجنسيّة اللّبنانيّة إلى الزوج والأولاد. كذلك تُلحق النساء، كما الأولاد، بالرجل، من الأب إلى الزوج في القيد العائلي. ويتمّ تسجيل الأولاد على اسم عائلة الأب فيما تحرم النساء من ذلك، وهذا مكرّس في قوانين الأحوال الشخصيّة.

يسلّط هذا البحث الضوء على النساء وعلاقتهنّ بالأرض التي يعملن بها، ومن ثمّ فقدانهنّ لها بسبب حرمانهنّ من الميراث، ومصيرهنّ بعد تلك الخسارة سواء على المستوى المادّي أو المعنوي. وقد أجريت مقابلاتٌ شفهيّةٌ مع نساء حرمن من حقّهنّ بالإرث، علمًا أنّه كانت ثمّة صعوبات في الوصول إلى أولئك النساء، لخوفهنّ وخجلهنّ من الكلام في تفاصيل معاناتهنّ مع عائلاتهنّ الناتجة عن التمييز بينهنّ وبين إخوتهنّ الذكور. فالمطالبة بحقهنّ في الإرث تصمهنّ بالعار لأنّها تعدّ خروجًا عن النمط الاجتماعي

---

١. أودّ تقديم جزيل الشّكر إلى الدّكتورة علوم عودة على ما قدّمته لي من مساعدة لإنجاز هذا البحث.

٢. الإرث هو إحدى طرق انتقال الملكيّة، وهو بشكل خاصّ انتقال أموال وحقوق شخص متوفّى (يسمّى بالمورّث) إلى شخص أو عدّة أشخاص آخرين على قيد الحياة (يعرفون بالورثة مثل الأب، الأمّ، الابن، الزّوجة...). أمّا الأموال والحقوق الّتي تنتقل، فتعرف بالتّركة وذلك بحسب تصريح المحامية شادية هيكل لموقع الاقتصاد الالكترونيّ (https://bit.ly/3G5oXlH).

٣. هذا عدا عن أنّ لكلّ مذهبٍ تشريعات مفصّلة تتخطّى هذا المبدأ العامّ؛ فعلى سبيل المثال، يختلف التّقسيم بين الشّيعة والسّنّة والدّروز خاصّةً بما يخصّ البنت الوحيدة ووفاة الابن قبل الأب. كما أنّ نوع الأراضي (ملك، أميري) يفرض نوع تقسيم مختلف أيضًا حيث أنّ الأراضي الأميريّة تخضع للنّظام المدنيّ الّذي يساوي حصّة الذّكور والإناث.

السائد حيث يعيب المجتمع على النساء أن يتكلّمن ويشتكين من أفراد عائلتهنّ وحرمانهنّ لها. لا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل تؤثّر مطالبة النساء بحقّهنّ المادّي (سواء من آبائهنّ أو إخوتهنّ) سلبًا على العلاقات الأسريّة، فيما يعمد الذكور إلى استغلال ذلك الخجل والخوف لدى النساء، متّخذين منهما وسيلةً لهم لحرمانهنّ من المطالبة بحقّهنّ.

أُجريت ستّ مقابلات في منطقة البقاع، في أواخر العام ٢٠٢١. كان من الصعب الوصول إلى عدد أكبر من النساء؛ لكنّني كنت راغبةً في إعطاء أهميّة لكلّ تجربة من تجارب النساء اللواتي قابلتهنّ بعيدًا من الأرقام والإحصاءات، علمًا أنّ لكلّ حالة طابعها الشّخصيّ وأهمّيّتها في حقلها الواقعي. كما أنّ قصص النساء وحرمانهنّ من الإرث منتشرةٌ في مختلف المناطق اللبنانيّة على تنوّعها الدّيني والطّائفي. لم تأتِ المقابلات على ذكر أيّ تفصيل يدل على هويّة النساء اللواتي وثقن بـ "ورشة المعارف"، وذلك نزولًا عند تفضيلاتهنّ، ما دفعهنّ إلى الحديث عن قصصهنّ بكلّ صراحة. فتغلّبت ثقتهنّ على خوفهنّ من أن تُسبّب لهنّ مشاكل إضافية مع عائلاتهنّ.

تجدر الإشارة إلى أنّ التطرّق لموضوع الإرث يأتي عادةً من ضمن المطالبة النّسوية بقانون موحّد لقوانين الأحوال الشّخصيّة.[٤] ويأتي التركيز على جانب الإرث في هذا البحث بشكل مباشر لمنحه أهميةً خاصةً وللتركيز على مفهوم الحقّ والعلاقة بالأرض، دعمًا لهذه الحملات والمطالبِ النّسوِيّة.

المقابلة الأولى: علوم عودة

كانت المقابلة الأولى مع الدكتورة علوم عودة من منطقة بعلبك الهرمل، الّتي كشفت أنّها في العام ٢٠١٦ بدأت بالحديث عن حق النساء في الميراث في محيطها ومنطقتها، لافتةً إلى أنّ دافعها هو كسر المحرّمات التي تحيط بهذا الموضوع. أشارت علوم إلى أنّ التحدّث عن هذه القضيّة كان يُعدّ خطيئةً كبيرةً، كما شدّدت على ضرورة رفع الصوت عاليًا قائلة: "مش العيب إنّك تطالبي بحقّك من إرث أهلك، العيب على يلّي بيتشاطر عليكِ وبياخد حقّك وبيدّعي إنّه سندك". ولفتت إلى أنّه يتمّ التعدّي على حقوق النّساء بواسطة الخجل؛ إذ يعيب المجتمع على النّساء اللّواتي يتكلّمن عن حقهنّ بالميراث، ويعتبر تصرّفاتهن مسيئةً ومنتقصةً بحقّ أسرهنّ. كذلك، ذكرت علوم أنّها في البداية تعرّضت لكثير من التّهكّم من قبل المحيطين بها، ورفضت النّساء الحديث عن هذا الموضوع. لكن بعد فترةٍ من رفعها الصوت، تشجّعت الكثيرات منهن وصرن يأتين إليها للكلام عن الخفايا داخل أسرهنّ والبوح بها، الأمر الّذي دفعها إلى تأسيس جمعيّة تحت اسم "حقّي أورث" الّتي أصبحت رسميّةً في ٢٠٢١ ومركزها في بلدة الخضر في قضاء بعلبك. عرضت علوم لأبرز أهداف تلك الجمعيّة كما يلي:

٤. ومنها منظّمة "كفى" على سبيل المثال التي أطلقت مؤخّرً حملةً تحت عنوان "صار بدّا قانون موحّد للأحوال الشخصيّة"، والتي تطال بدورها الزّواج، الطّلاق، الحضانة، الإرث الخ.

- توعية الأهل بشكل عام، والأمّهات بشكل خاص، حول أهميّة التساوي بين الأولاد في جميع القضايا، ابتداءً من النظرة المتساوية في الحياة اليومية إلى العدل في توزيع الإرث بين الذكور والإناث.
- توعية التلامذة حول العدل بين النساء والرجال.
- مساندة النساء اللواتي حرمن إجحافًا من الإرث والبحث معهن عن سبل قانونية لاسترجاع حقوقهن.
- التمكين الاقتصادي والاجتماعي للنساء، ودعمهن في تحقيق الاستقلالية الاقتصادية.

حول تفاصيل حرمانها من الإرث، أخبرتني علوم قصة نشأتها في بيتٍ يساريّ، ورغم ذلك تمّ تفضيل الإخوة الذكور منذ صغرهم، ثمّ كان التغاضي أو الدفاع عن الإجحاف الذي حصل معها ومع أخواتها. تروي علوم: "نحن ربينا ببيت كنّا خمس بنات، وبعدين إجا خيي. بعد ما إجا، صار يبين التمييز بين البنات والصبي. رجع إجا صبيان وبنات لصرنا ١٠، ٧ بنات و٣ صبيان. أنا صرت حسّ بالتمييز من وقت إلّي إجا خيي وصاروا يقوصوا بالضيعة، إنّه إستاذ قاسم إجاه صبي. مرّة كان عمري شي ١٠ سنين، إختي كانت عم تقول: لمّا أكبر، حلمي عمّر بيت بشقفة أرض من بيي. قامت أمي دغري صرخت مستهزئة: بدكم تورتوا؟! ما عنا بنات تورت، هني يلي قبلكم انحرموا إنتو بدكم تورتوا. انصدمنا بردة فعلها وما استوعبنا شو عم تحكي وبشو نحن غلطنا".

وتابعت وصف إنجازاتها ونجاحات أخواتها منذ الصغر، بالرّغم من اضطرارهن للعمل في الحقل في الوقت نفسه: "نحن لمّا كنّا صغار، كنّا كتير مميّزين بالمدرسة. بس بنفس الوقت، كنّا نشتغل ونروح عالحقلة، نسرح بالعنزات. كانوا كتير يشغلّونا، نجي من المدرسة دغري على الشّغل. كان في حرمان مش طبيعي. وقتها الصبيان كانوا صغار، ما كانوا يشتغلوا".

وأضافت "بعتنا بيي عالجامعة، كان أوّل أب بيبعت بناته على بيروت، علمًا إنّه نتعب كتير وننحرم كتير بس ما كنّا نتذمر لاعتبارنا إنّه علّمنا مقابل تعبنا وإنّه هفوات التمييز المتراكمة مجرّد وهم بتمحيه مبادئ والدنا المثالية بالأمور المهمة. لمّا خلّصنا جامعات، صارت كلّ وحدة تخلّص وتجي تعلّم. صرنا نحن نساعد أهلي، لأنّه بيتنا كان بدّو شغل كتير علمًا إنّه أخوتنا الذكور ما قدّموا ليرة وحدة، بالعكس كانوا ياخدوا مبالغ من بيي ما توفّرتلنا إلنا". أخبرتني علوم أيضًا أنّها سافرت وأكملت تعليمها حتّى حصلت على الدكتوراه، مشيرةً إلى أنّها عندما رجعت إلى لبنان أرادت أن تبني منزلًا في ضيعتها فأعطاها والدها قطعة أرض (بمساحة أكثر من دونم بقليل)، كما أعطى مثلها لأخواتها، لافتةً إلى أنّها بدأت تكتب على الفايسبوك عن والدها محتفية بما فعله، مشدّدةً على أنّ والدها المعروف بأنّه "الشيوعيّ والملحد" أعطاهنّ حقوقهنّ بإرثه وأنّ بعض "المؤمنين" يحرمون بناتهن من الإرث. لكنّها شعرت أنّه غير سعيد بما تكتب عنه، وهي لم تفهم السبب حتى أخبرتها عمّتها أنّ والدها قد أعطى كلّ ما تبقّى من إرثه لإخوتها الذكور، وكان ذلك قبل خمس سنواتٍ من المفاجأة الصاعقة. لم تصدّق حتى رأت الأوراق الموقّعة عند كاتب العدل. عندها، واجهت والدها بالتناقض بين ما يدّعيه من أفكار وبين ما فعله: "ضيعان الشيوعية وضيعان كتب ماركس يلّي بعدك محتفظ فيها. كنت فكّر إنّك عم تعلّمنا مقابل تعبنا وحرماننا، هلق اكتملت الصورة، طلع علمنا مشروع استثمار إلك ولصبيانك"، قالت له.

وعن معرفة والدتها بتقسيم الورثة، تقول: "أمّي كانت بتعرف، بس ما خبّرتنا. هي بتقول ما طلع شي بإيدها، بس نحن البنات مقتنعين إنّه هي محرضة عالموضوع لأنّها من صغرنا وحتى خلال الفترة يلّي كنّا ما نعرف أنّه حرمونا من معظم الأراضي، كانت تمارس التمييز بكل التفاصيل وأكتر من والدنا، لدرجة إنّها كانت تستدرجنا بالعاطفة لندفع معاشاتنا للوالد يلّي كان يساعد فيها الصبيان". وكذلك، لم يبدِ إخوتها الشباب أي اعتراض على حرمان أخواتهم من الإرث: "واحد صايرله ياخد، مش راح يقول لا". أيضًا، أكّدت علوم على تدهور علاقتها مع إخوتها الشباب، وصلت لحدّ تهديدها، فأردفت قائلةً: "خيي الكبير شيوعي قال بدّو يعطينا حقنا الإنساني، قلت له لو بدّك تعطينا ما طبّقت علينا، هلق صار بدك تعطينا؟ عملوا حالهن مش عرفانين". وختمت علوم أنّ أخواتها البنات قد شعرن بالقهر، بالرغم من عدم إمكانهن الاعتراض علنًا. لكنّها لم تستطع الصمت؛ فقد تأثرت بشكل قاس من هذا الحرمان، وشعرت بأنّه "مثل الطّعنة".

تعكس تجربة علوم عمل النساء في الأرض منذ الصغر، وتعلّقهن بأحلام لحياة مستقلّة على هذه الأرض. كما يظهر جليًا أنه، ورغم استناد التمييز في توزيع الإرث إلى التشريع الديني، فهو لا يقتصر على المتديّنين، بل يتعدّاه إلى من يدّعون الفكر التقدمي وينادون ظاهريًا بأنّهم مع المساواة بين الجنسين. ويعود هذا في جوهره إلى هيمنة العقليّة الذكورية على فكر من يدّعون أنهم قد تخلّصوا منها، حتى في العلاقة مع أقرب الناس إليهم. كذلك، تتبيّن بشكل واضح مساهمة النساء، وخاصةً الأمهات، في التغاضي أو الاصطفاف مع أبنائها الذكور ضدّ بناتها، ولا سيما فيما يتعلّق بالإرث. بالمقابل، وعلى الرغم من القهر والضغط المجتمعي على النساء للسكوت، تأتي هذه التجربة لتذكرنا بأنّ النساء يفتحن أيضًا مساحاتٍ آمنة، ولو صغيرة، لمشاركة قصصهن.

المقابلة الثّانية: الحجّة فاطمة

بدأت الحجّة فاطمة (اسم مستعار) بالقول: "أنا بإخواتي صغيرة الكل، في غيري خيّات ثلاثة، بس أنا تعبانة بين أهلي، وبيي عنده ملك، وكان يشفق على الفقراء... ولمّا قسّم الورثة، من ٥٦ سنة، ما حسب حسابنا بيي، ما حطّ اسمنا أبدًا، كان رايح على الحج، عطاها للصبيان. بتعرفي بينكسر خاطرها للبنت، تعبنا عندك يا بيي، أنا بنتك، وخيّاتي هيك زعلانين كلهن، والله لمّا صارت هالشغلات، زعلنا وصرنا قليل ما نتردّد على أهلي، زعلانين، كل وحدة قعدت ببيتها. بس أنا أهلي ما بخبّي عليك، بقلبي وبضميري زعلت منهن، نحن مش زعلانين من إخواتي، زعلانين من بيي، زعلنا منه، ليش يا بيي، إنت عندك أملاك وكنّا نتعب عندك. أنا بنتك، وين لقيتني؟ على البيادر؟ كنّا نشتغل بالأرض، كان عنده أرزاق، ما وفّرونا من شي. غلط غلطة، بيي دبحنا دبح، نحن بنيّات حرمتنا يا بيي. ما عاتبته ولا جبتلّه السيرة أبدًا، بس ما بخبّي عليكن، ما سامحته أبدًا، بيلحقني خطا ما بيلحقني خطا ما بعرف، ما سامحته أبدًا. كان عندك أرض، نكون بالأرض. كان عنده غنم، أطلع أنا وخيي مع الغنم، نحن عندك وكنّا حاطين إدينا معك ونشتغل، وخيّاتي، نروح معك ونجي معك بالحقلة. أمي ما تدخّلت أبدًا أبدًا، قالت «بيّكن ظلمكن» بس ما إلها ضهر، بس يا بيي إنت صاحب ملك ونحن شايفين حالنا فيك، بدّك تروح تحجّ، وين حجّتك، وين

زيارتك؟ بيي راح وماتوا إخوتي، ولاد إخوتي بنوب ما بيلتفتوا فينا. للظلم انظلمنا كتير، أنا ندمت إنّه ما عاتبته، ليش يا بيي، كنت صبية وجيت على بيتي، كان صار لي ٤ سنين مجوزة، واستحيت على شرفي روح عاتب بيي، ليش عملت معي هيك يا بيي. وأنا مرقت بظرف كبير، وما عطفوا إخوتي عليّ، زعلوني كتير. لو كتب لي بيي أرض، إذا عزت، صار معي شي بستفيد، جوزي مش موظف، حالته على قدّه".

بالرغم من الاختلاف في الظروف بين عائلتي الدكتورة علوم والحجّة فاطمة، نستطيع أن نلحظ وجه الشبه في التجارب. تبيّن تجربة فاطمة العلاقة العاطفية القوية التي تربط النساء بالأرض، وتعود إلى أسباب متداخلة ومن أبرزها عملهنّ المضني والدائم في الأرض، والمفروض عليهن كونهن فتيات لكن دون مقابل عادل بالمقارنة مع إخوتهم الصبيان. قد يبذل الرجال الجهد عينه بالعمل في الأرض، ولكنهم يحصلون على كامل الحق بوراثة الأرض والتصرّف بها وتوريثها. نرى كذلك، أنّ الأم أحيانًا تعرف عن الإجحاف الذي حصل وتشعر بأنها لا تستطيع أن تعترض. تتوتّر العلاقات في العائلة بعد هذا الحرمان؛ ففي حين لا يستطيع الكثير من النساء رفع الصوت حول التمييز الذي حصل، إلّا أنهن يمارسن الاعتراض من خلال كسر العلاقات وعدم نفي تجربتهنّ.

وعن إعطاء بناتها جزءًا من الورثة، تقول الحجّة فاطمة: "أنا عندي ولاد وما عنّا أملاك كتير وزوجي توفّى من فترة طويلة. وأنا بإذن الله لو كانوا دونم ما بقبل إلّا يكونوا بناتي مبسوطين، ما بقبل اليوم أظلم البنت. ليش لجيبها إذا بدّي أظلمها، ليش لإحرمها..؟ بدنا نعطيها حقّها وفوق حقّها شوي، أنا ما عندي فرق، البنت متل الصبي وزيادة".

يظهر هنا إذًا الأثر الاقتصادي للحرمان من الإرث على العائلة والنساء بشكلٍ خاصّ، بين الأب الذي كان يملك أراض وابنته التي، بسبب حرمانها من الإرث، لم تملك شيئًا يسندها عندما مرّت بظروف اقتصاديّة سيئة. ولكن، يبدو واضحًا تأثير التجربة التي عاشتها الحجة فاطمة بحرمانها من الإرث على وعيها للظلم والعدالة، وعلى علاقتها ببناتها، إذ حرصت على ألّا تظلمهنّ كما ظُلِمت هي، مشدّدةً على إعطاء بناتها حقّهنّ بالكامل.

المقابلة الثّالثة: هبة

بدأت هبة (اسم مستعار) الكلام بالقول: "أنا ما انحرمت من الميراث، إجاني من الجمل إدنه". فسردت تجربتها مع والدها: "بيي مجوّز ٢، ومن كلّ وحدة جاب ٧ ولاد، نحن ٨ بنات و٦ شباب. بيي بيملك أراضي كتير، وأحواله منيحة الحمد لله بيملك شقق أجارات ومواتير وبيارة. كنّا عايشين برفاهية ومستورين. وقت تقسيم الورثة، على أساس بيي عاطي كل بنت دونم أرض، واحد من إخوتي استنكر، فعطونا كل وحدة ٥٠٠ متر و٥ ملايين، مع إنّه لو تقدّرت الورثة، كل بنت بيطلع لها ١٠٠ مليون، وأمي وخالاتي (زوجات أبي) كل وحدة طلع لها البيت إلّي ساكنة فيه، بس بيرجع للشباب بعد وفاتهن".

في حديثها عن هذه التجربة، استنكرت هبة تقسيم الورثة دون أخذ رأيها ورأي أخواتها المتزوجات، لافتةً إلى أنّه لو سئلت لكانت تنازلت عن جزء من حقها لأنّها ليست محتاجة ماديًا، معتبرةً أنّ في ذلك تعدّيًا على حقّها بأرض أبيها. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الإخوة الذكور قد يكونوا أيضًا مكتفيين ماديًا، لكنّهم لا يتنازلون عن حقّهم من الميراث، ولا يكتفون عند هذا الحدّ بل لا يكترثون بوصية الأب التي أعطت بالأساس البنات أقلّ من الشباب، والإخوة في هذه الحالة هم مَن يقرّرون بأنفسهم إعطاء أخواتهم مساحات أرض أقل وبعض المال "على سبيل التعويض" تحت ذريعة حصر الأرض بالذكور فقط، لعدم انتقالها إلى عائلة الصهر. كذلك، أفادت هبة أنّ دفاعها، ولو بالكلام فقط، عن حقّها بالميراث وتعبيرها عن إحساسها بالظلم دفعا بإخوتها الشباب إلى شنّ حرب عليها، وصولًا إلى امتناعهم عن إلقاء التحيّة عليها، الأمر الذي أحزنها أكثر من حرمانها من الأرض والمال.

المقابلة الرّابعة: رانيا

بدأت رانيا (اسم مستعار) الكلام بالإشارة إلى أنّ والدها كان متزوّجًا اثنتين وأنّ عائلتها مؤلّفةٌ من سبع بناتٍ وثلاثة شبابٍ، لافتةً إلى أنّ والدها كان لديه الكثير من الأموال والأراضي، وكلّها باسمه. توفّي فجأةً، منذ عشر سنوات تقريبًا، ولم يكن قد قسّم الورثة قانونيًا (بالمستندات)، لكنّه فعل ذلك "بالكلام" فقط. وزّع الأب الأملاك والأراضي على الذكور، بينما أوصى لكلّ من بناته دونم أرض فقط وهو أقلّ بكثير ممّا يحقّ لهنّ حسب الشّرع. تشير رانيا إلى أنّ "ما كان صارله شهر متوفّي البابا، صاروا إخواتي من بابا يشتغلوا بحصر الإرث، مستعجلين، بس ما سجّلوا شي باسمهم، وما أعطونا لا دونم ولا مصاري، وهنّي هلق عم يستفيدوا من استثمار الأراضي والممتلكات".

تؤكّد رانيا على أنّها وأخواتها لم يتنازلن عن حقّهنّ، لافتةً إلى أنّها عندما تواجه أخاها الأكبر وتقول له إنّه "آكلها حقّها" وستسترجعه بالمحكمة، يردّ عليها بالقول: "أنا مش آكلّك حقّك، الحقّ إلّي إلك إيّاه عندي روحي خذيه، يلّي بيطلع بإيدك عمليه". تشير إلى أنهم الطرف الأقوى، وهم مسيطرون ولديهم نفوذ، إذ بإمكانهم التصرّف على كيفهم، وقد يصل بهم الأمر إلى تهديدهن بالقتل. كذلك، شدّدت رانيا على أنّ حرمانهن من حقّهنّ بالإرث قد أنتج خلافات بين أفراد العائلة، إذ لا تواصل بينهنّ وبين إخوتهنّ، لافتةً إلى أنّها تلومهم على تصرّفاتهم وتحقد عليهم، متوجّهةً إليهم بالقول: "ليش بدكن تاكلوا حقّ غيركن؟ أنا ما بحقد على بابا، أنا بحقد عليكن. إنتو ما بتستحوا على حالكم، إختكم بدها تروح مشوار أو بدها تروح على جامعة وما معها أجار سرفيس".

تبيّن لنا هذه القصّة علاقات القوة في الأسرة المرتكزة على الذكور والتي تتخطّى القانون أو الشرع المجحف والظالم أساسًا بحقّ النساء، والتي تكون أكثر ظلمًا بسبب النظام الأبوي الذكوري. فيمنح النظام الذكوري الرجال حرية التصرّف – بينما يقيّد حرية النساء – وقد يصل الأمر إلى حدّ ممارسة العنف الجسدي وتهديد أخواتهنّ بالقتل. يؤدّي ذلك إلى تفاوت اقتصادي يضع النساء في طبقة مختلفة بسبب حرمانهنّ من حقّهنّ في الإرث، فيما يعبث الإخوة الذكور بالمال والممتلكات.

وتظهر المقابلات السابقة التفاوت في شعور النساء بالعتب تجاه حرمانهنّ من الإرث؛ فمنهنّ من يوجّهن الملامة إلى الأب، وأخريات إلى الإخوة، بحسب ظروف تجربة كلّ منهنّ. مع العلم أنّ الجانبين، أي الآباء والإخوة، يتساويان في المسؤوليّة ويستفيدان من النظام الذكوري الذي يكرّس صلاحياتهم والاستفادة المادية الناتجة عنها.

المقابلة الخامسة: هدى

استهلّت هدى (اسم مستعار) الكلام بالحديث عن وضعها العائلي والاقتصادي: "أنا عندي ٩ ولاد، ٥ شباب و٤ بنات، جوزي عنده أرض كتير، شي ٢٠٠ دونم، وهو مجوّز ثلاثة. وقت تقسيم الورثة، أعطى كلّ بنت ٦٠٠ متر، والباقيين للشباب. بناتي مش راضيين على التقسيم بس ما عارضوا، وعمّروا، بنتين صاروا معمرين، ما بدّه يعطي أكثر، ما فيهن يعملوا شي، شو بيتخانقوا؟ أنا كان بدّي يعطي البنات أكتر، حتّى ولادي الصبيان كان بدهن بيهن يعطي إخواتن البنات أكتر، بس الحج هيك بدّه، ما بدّه يعطهين أكتر، ما بينحكى معه. أنا ما طلعلي شي من جوزي، بس البيت اللّي قاعدة فيه وهو للبنات من بعدي، واللّي بترجع عالبيت من البنات، إذا تطلّقت أو صار معها شي لها مصروف من إخوتها. أنا أعطيت كلّ بنت لمّا تجوّزت شي ذهب من عندي أو حلق أو إسوارة". وختمت بالقول: "كلّ العالم هيك، ما بتحب تورّث البنت متل الصبي، كأن الصبي ابنهم والبنت لأ".

على الرغم من الإجحاف بحقّ النساء اقتصار توريثهنّ على مساحة قليلة من الأرض، إلّا أنّ البعض منهنّ (علوم وبنات هدى) عمدن إلى بناء منازل لهنّ، ما يدلّ على ارتباطهن بالمكان بشكلٍ عامّ وتطلّعهن لبناء منزل خاص بهن دون الاعتماد على الزوج في تأمين ذلك كما هو متعارفٌ عليه مجتمعيًّا. ومن الواضح في هذه القصص، أنّ للنساء رغبة بالاستقلال الاقتصادي وعدم حصر الخيار بإخوتهن الذكور. في قصة هدى، عاملٌ مغايرٌ للتجارب التي عرضتها هنا، إذ اعترضت الأم على توزيع زوجها الإرث على أبنائه وبناته بشكلٍ غير عادل، مع العلم أنّ هذا الاعتراض لم يكن له الأثر في تغيير رأي زوجها، إلّا أنّ في ذلك ربّما دلالةً على بدء استفادة النساء من الحديث عن حقّهنّ بالإرث. يبدو لافتًا أيضًا، من خلال قصة رانيا وهدى، موضوع الزواج باثنتين أو أكثر وكيف ينعكس ذلك على الأسرة بشكلٍ عامّ وعلى النساء وحرمانهنّ من الإرث بشكلٍ خاصّ؛ إذ أنّ الحقوق كلها تعطى للرجل سواء للأب أو للأخ، بحيث تعود حصّة الزّوجات إلى أبنائهنّ الذكور من بعدهنّ. واستطرادًا، فإنّ قانون الأحوال الشخصيّة يكرّس امتيازاتٍ متعدّدةً للرجال، سواء في موضوع الزواج من أكثر من امرأة أو الطلاق أو الحضانة أو الإرث.

المقابلة السّادسة: جميلة

أشارت جميلة (اسم مستعار) إلى صعوبة حياتها بعد موت والدها: "بعد وفاة بيي، وبعدما تخلّى المحسنين عنّا، كان على أمي تحصيل لقمتنا، وما كان عندها حلّ إلّا إنّه تبعتني وتبعت إخواتي البنات لنشتغل بالحقول. بالمقابل، بعتت إخوتي الصبيان على المدرسة، فتحسّن وضعنا بعد فترة واشترت أمي أراضي، وورّثتها للصبيان وطار حقّنا". وأضافت قائلةً: "أكلت أراضي زحلة من اجرينا شقف وما شفنا مليم أبيض".

وتتابع جميلة: "كبرت أمي وكنت كلّ ما روح لعندها ذكّرها إنّها أكلت حقوقنا، تردّ انقلعوا من بيتي ما إلكن شي عندي... بالخجل والاستحمار، تنازلنا أنا واتنين من إخواتي الأصغر منّي عن حصصنا مقابل حجّة وزيارة للأماكن المقدسة، بس إختي الكبيرة ما تنازلت لأنّه وجعها بعده محفور بقلبها وبإيديها من شغلها بالأرض، فتخلّت عن الحجّة والزيارة والأخوة".

تكشف لنا رواية جميلة عن العلاقات المعقدة بين أفراد العائلة، وخاصةً العلاقة بين الأم وابنتها. ومن إحدى تلك التعقيدات هي توقّعات الابنة بأن تكون أمها واعية لمعاناتهما المشتركة لحصولهما على حقوقهما. لكنّ الأم هنا قامت بحرمان البنات من الإرث، وبذلك يظهر جليًّا – كما في قصة علوم – دور بعض النساء في تعزيز النظام الأبوي الذي يظلمهما معًا. من جهة أخرى، يمكن ملاحظة مستويات التمييز ما بين الذكور والإناث ضمن العائلة؛ فالإناث يرسَلن إلى العمل في الحقول، فيما يُرسَل الذكور إلى المدارس. هذا بدوره يعمّق الفجوة الاقتصادية والاجتماعية بين الرجال والنساء، كما أنّ هذه الممارسات تسهّل على الرجال فيما بعد فرض سيطرتهم على الميراث وحرمان أخواتهم منه.

إنّ التطرّق إلى موضوع حرمان النساء من الإرث هو جزءٌ من محاولات عديدة لرفع الصوت ضدّ النظام الأبوي الذي يضرب بعرض الحائط حقوق النساء الاقتصادية وعلاقتهنّ بالأرض، كما يكشف بوضوح عن التمييز الحاصل بين النساء والرجال، والذي يستند إلى قوانين وتشريعات دينيّة ويكرّسه المجتمع بالأعراف السائدة التي تترجَم من خلال سلوكيات مجتمعية. لذلك، يجب العمل على تعديل القوانين واعتماد قانون مدنيّ موحّد يضمن المساواة بين النساء والرجال، إضافة إلى العمل على تغيير الموروثات الاجتماعية والثقافية المتعلّقة بحرمان النساء من الإرث؛ فلا يمكن للقانون وحده مواجهة تلك الأنماط والعقائد السائدة. في الختام، لا بدّ من التأكيد على أنّ رفض النساء لحرمانهنّ من الإرث هو شكلٌ من أشكال مقاومة النظام الذكوري السائد، وإن كانت نتائج هذه المقاومة غير منعكسة بعد بشكل مباشر عليهنّ حتى الآن.

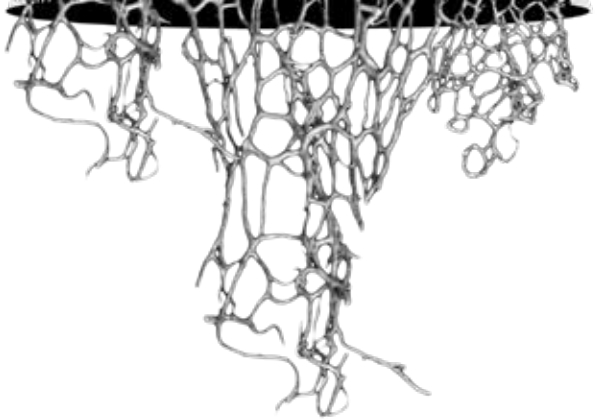

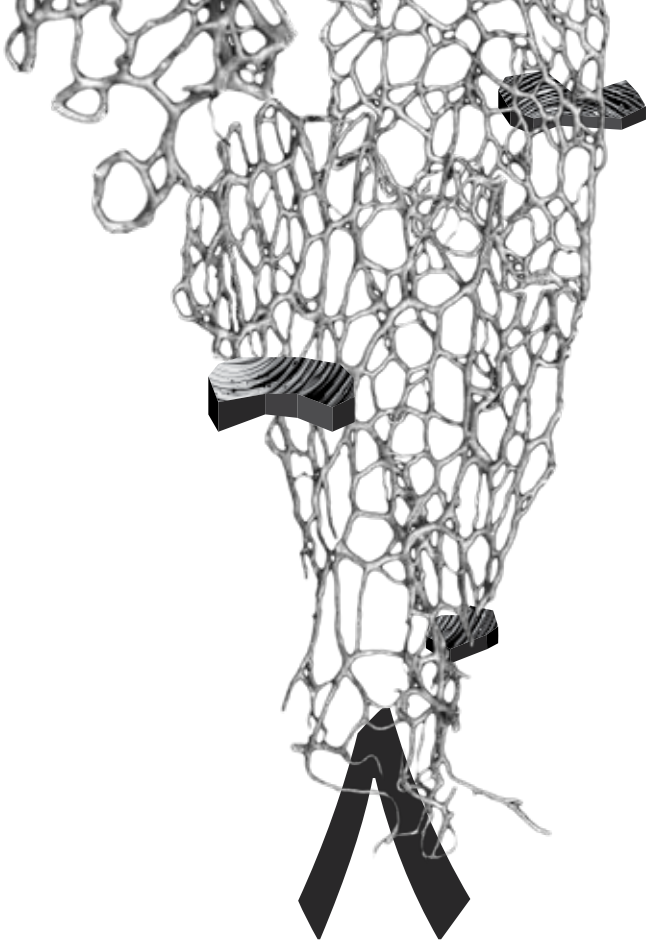

بحث: أماني ضاهر | **كتابة:** فريق التحرير

المريمية تحكي قصّتها

اسمي المريميّة، أو قد يدعونني الميرميّة أو المراميّة. ولكنّني معروفةٌ أيضًا بأسماء أخرى: فأنا عيزقان وقصعين في الجنوب وبيروت وجبل لبنان والبقاع، وفي الشّمال قد يدعونني بالقويسة.[١] لي أسماءٌ أقدم بعد: حسب الطّبيب المغربيّ قاسم بن محمّد الغسانيّ، يمكن مناداتي بالـ "الأشفاقش"، كما أشار إلى بعض أسمائي الأخرى: النّغامة نسبةً إلى لوني الأبيض، سالمة، "والمفصحة لأنّها تفصح لسان من أكلها".[٢]

أعيش بين النّاس. وقد اكتشفوا منذ وقتٍ طويلٍ أنّ أوراقي دواءٌ لأمراضهم، وأنّ لعطري منافع عمليّةً وروحيّةً. أمّا علماء الزّراعة، وهم يهوون التّصنيف، فقد وضعوني ضمن عائلة معروفة مع الحبق وإكليل الجبل والخزامى والزّعتر والنّعنع، وأصبح اسمي العلميّ "سالفيا" – من كلمةً "سالفير" اللّاتينيّة، أي "الخلاص" والعافية والشّفاء.[٣] ووجدوا فيّ الفيتامين ب والبروتين ومضاد الأكسدة فلافونيد وغيرها من المعادن.[٤]

من بذرة صغيرة بيضاويّة الشّكل، لونها بنّيٌّ غامقٌ وأسود، إلى نبتةٍ وزهرة فدواءٌ لأوجاع جسديّة وروحيّة ومنافع عمليّةٌ عديدةٌ... تدور معظم قصصي حول التّعافي والخلاص.

وأحكي لكم ولكنّ اليوم بعضًا منها.

كثرت التّأويلات حول أصل اسم "المريميّة" ولكن مريم العذراء هي دائمًا في قلب هذه القصص كلّها. تقول إحدى القصص أنّ مريم، وهي هاربةٌ مع طفلها يسوع من الملك هيرودس، جلست عند شجرةٍ كنت أنمو تحتها، وقصفتْ من أوراقي لتمسح وجهها ووجه ابنها، فأحسّت بالانتعاش من عطرها وتمتمت

---

١. في هذا النّصّ، نستعمل اسمان: "المريميّة" و"القصعين".

٢. عبد القادر، حلمي. (١٩٩٧) مجموعة النّباتات الطّبّيّة، ص ٧-٢٣٦.
https://www.uicnmed.org/nabp/web/documents/PLANTE.pdf

٣. Engels, Gayle. Sage. HerbalGram. Issue 89
https://www.herbalgram.org/resources/herbalgram/issues/89/table-of-contents/herbalgram-89-herb-profile-sage

٤. موقع جنوبيّة. فوائدها الطّبّيّة خارقة: زراعة القصعين تزدهر في لبنان. (٢٨ كانون الأوّل ٢٠١٨).
https://janoubia.com/2018/12/28/فوائدها-الطبية-خارقة-زراعة-القصعين/
انظر كذلك:
Healthline Raman, Rayan.12 Health Benefits and Uses of Sage. (14 December 2018)
https://www.healthline.com/nutrition/sage#TOC_TITLE_HDR_2

كلمات تباركني بها. فكان الاسم تيمّنًا بها وبدعوتها.[٥] وتقول قصّةٌ أخرى، أيضًا أنّ مريم، كانت تمسح بي وجه يسوع الصّغير حين يبكي.[٦] فأنا عشبة مريم، عشبة المعجزات اليوميّة.

وأنا نبتة شرق البحر المتوسّط، ولأنّني نباتٌ جيّد التحمّل والتأقلم – لهذا تجدون أولاد جنسي في أنحاء العالم، بينما يدعونني سالفيا فروكتيكوزا ميلر في لبنان، إلى تصنيفي سالفيا اوفيسيناليس في أوروبا وسالفيا أبيانا بيضاء اللّون في أميركا الشّماليّة. في لبنان، أنتشر على المنحدرات الغربيّة لسلسلة جبال لبنان. يمكن أن تجدوني في الغابات وفي الأراضي الجرداء وعلى المنحدرات الصّخريّة. أنبت في الجوّ الجافّ والمناخ المعتدل، وأفضّل مناخ منطقة المتوسّط مع طقسه المعتدل. أحبّ الأراضي المشمسة ومع ذلك، يمكنني تحمّل درجات حرارةٍ ما دون الصفر لأيّامٍ قليلةٍ.[٧]

دعوةٌ إلى التّعرّف

أفضل طريقة للتعرّف إليّ هي في إنباتي. في الجنينة والحقول والبساتين وعلى الشّرفات أنمو. في البرّيّة، يمكن أن تجدوني بين أعشاب بريّةٍ مختلفةٍ، أزدهر بينها من دون أن تؤثّر عليّ. المهمّ ألا تكون هذه الأعشاب طويلةً فتحجب الشّمس عنّي. جذوري عميقةٌ، قد تصل إلى مترٍ داخل التّربة وأعمق.

أفضل وقت لزرعي هو في الخريف، من تشرين الثّاني إلى كانون الأوّل. يمكن حصادي عندها بدون أيّ ريّ إضافيّ، وسأعتمد فقط على الأمطار؛ فأنا لا أحتاج إلى المياه كثيرًا. ويمكن زرعي أيضًا في بدايةِ الرّبيع، خلال شهر آذار، لكن في هذه الحالة سأكون بحاجةٍ إلى الماء في أوّل سنة عندما أكون شتلةً صغيرةً، خصوصًا في المناطق الّتي لا تمطر فيها لعدّة أشهرٍ. فلتكن كمّيّة الماء متوسّطةً إن أردتم سقايتي، فكثرته قد تسبّب عفنًا على جذوري ما يؤدّي إلى موتي. بشكل عامّ، السّقي يمكن أن يكون كلّ أسبوع إلى أسبوعين وبكمّيّات معتدلة. ما عدا الفترة الأولى من زراعتي، لا أحتاج إلى الكثير من العناية. كذلك، عندما أكون صغيرةً، يجب إزالة الأعشاب من حولي الّتي قد تنافسني على الغذاء والماء وأشعّة الشّمس.

في المقابل، يمكن زراعة نباتات عطريّة أخرى من عائلتي إلى جانبي، مثل الخزام والزّعتر وإكليل الجبل لأنّها تعيش في الظّروف نفسها، مع احترام المسافة بيننا كي لا ننافس بعضنا البعض. ومن الجيّد أن

---

٥. أبو علي، خالد. الميرمية عشبة السيدة مريم العذراء. شبكة راية الإعلامية. (١١ تمّوز ٢٠١٥). https://www.raya.ps/articles/909390.html

٦. المصدر السابق.

٧. كيفية زراعة نبات المريمية بكميات من أجل الربح – إنتاج الانتاج التجاري للمريمية الشائعة بكميات–من-common-sage-كيفية–زراعة–نبات–المريمية/https://wikifarmer.com/ar/

تترافق زراعتي مع محاصيل أخرى من الخضار، مثل الملفوف والبندورة والجزر، لأنّني أبعد الحشرات المضرّة عنها.[٨]

أنا نبتةٌ صديقةٌ للنّحل، تتغذّى منّي لتصنع عسلها، وأستفيد منها للتلقيح.[٩] عبر العصور ومع مختلف الشعوب، كنت مصلًا لعضّات الأفاعي.[١٠] أعطي نفحةً عطريةً حادةً تزعج القوارض فتكون وسيلةً لطردهم.[١١] اكتشف المزارعون هذه الحيلة، فزرعوني في حدائقهم أو وضعوني حول بيوتهم لحماية مزروعاتهم ولكي يبقوا الجرذان والفئران بعيدة.

في أوراقي شفاءٌ

قصصي هي قصصٌ طبيةٌ وسرٌ مكشوفٌ تبوح به النساء لكل من يسأل. أوراقي وصفةٌ مضادةٌ للالتهابات والفطريات والحساسية. كما أنني مفيدةٌ للتعقيم ومضادةٌ للبكتيريا. يصفونني لمساعدة الجهاز الهضمي وللجهاز التنفسي كذلك، للمغص والغثيان وآلام المعدة، للأرق ولتحسين الذاكرة، لانتظام دقات القلب ولضغط الدم.[١٢]

تناقلت النساء المصريات القدامى أن عصير المريمية يزيد الخصوبة. ثم، جاء الخبر بعد قرونٍ أن تناول القصعين خلال الحمل قد يؤدّي إلى الإجهاض، وخاصّةً خلال الأشهر الأولى، لما قد تسبّبه من انخفاضٍ في نسبة السكر في دم الأم.[١٣]

---

٨. UnAssagio. Walton, Jane. Sage Companion Plants:10 Best Companion Plants for Sage
https://www.unassaggio.com/sage-companion-plants/

٩. Bee Culture. (25 July 20) Louque, Jessica. Bigger Picture
https://www.beeculture.com/bigger-picture-8/

١٠. موسوعتي. قويسة.
https://mawsoati.com/plus/قويسة/ق/و/ي.html

١١. Verminkill. 7 Herbs and Plants that Repel Rats and Mice
https://verminkill.com/7-plants-that-repel-rats-mice/

١٢. Engels, Gayle. Sage. HerbalGram. Issue 89
https://www.herbalgram.org/resources/herbalgram/issues/89/table-of-contents/herbalgram-89-herb-profile-sage/
Gaballah, Ahmed et al. Salvia Officinalis Ingestion Improves Lung Function in Young Atheletes. ResearchGate. (October 2016).
https://www.researchgate.net/publication/309404541_Salvia_Officinalis_Ingestion_Improves_Lung_Function_in_Young_Athletes

١٣. التميمي، عبد المجيد. أضرار المريمية. (١٩ آب ٢٠٢٠). مفهرس
https://mufahras.com / المريمية – أضرار/

الأطباء العرب الأقدمون هم أكثر من اهتم بي، ومنهم العالم النباتي والصيدلي الأندلسي ابن البيطار (١١٩٧– ١٢٤٨م)، فتحدّث عن فوائدي ونصح بوضعي في العصير لمختلف الأعراض. فكتب ابن البيطار عن القصعين: "أغصانه منفعة في تقوية البدن شربًا؛ وإذا استنجى به سكن الحكّة العارضة في الفروج من الذّكران والإناث، وينفع من خدر اللّسان والتوقّف في الكلام شربًا. وشرابه ينفع من وجع الكلا والمثانة ونفث الدم والسعال وهن العضل واحتباس الطمث."[١٤]

عند اليونانيّين والرّومان، ساعدت أوراقي الجافّة على حفظ اللّحوم.[١٥] وعرفني الصّينيّون قديمًا كدواء ومزيل لرائحة العرق، وأيضًا كمادّة حافظة.[١٦]

أمّا في بداية القرن العشرين، بعد أن تطوّرت معرفة العلماء في استخراج المواد الفعّالة من النّبات، وبعد أن عادت العلوم الغربيّة عن معاندتها لاستخدام النّباتات للشّفاء،[١٧] فقد بدأ استخدامي أكثر في تصنيع الأدوية، لما أحتوي عليه من مركّبات كيميائيّة وزيوت وأملاح معدنيّة وفيتامينات.[١٨] واكتشفت الأبحاث العلميّة ما عرفته النّساء من زمان: أنّ المريميّة تساعدهنّ في تخفيف عوارض انقطاع الدورة الشهرية من هبّات ساخنة وإرهاق وعدم قدرة على التركيز.[١٩] وبمقدار ما تتناقله الأجيال من أهمية الزعتر في تحفيز الذاكرة، لا يزال الكثير من الناس يحكون عن القصعين في تنشيط الفكر والذاكرة.[٢٠]

فقد بدأ استخدامي أكثر في تصنيع الأدوية، لما أحتوي عليه من مركبات كيميائية وزيوت وأملاح معدنية وفيتامينات. واكتشفت الأبحاث العلمية ما عرفته النساء من زمان: أن المريمية تساعدهن في تخفيف عوارض انقطاع الدورة الشهرية من هبات ساخنة وإرهاق وعدم قدرة على التركيز. وبمقدار ما تتناقله الأجيال من أهمية الزعتر في تحفيز الذاكرة، لا يزال الكثير من الناس يحكون عن القصعين في تنشيط الفكر والذاكرة.

---

١٤. عبد القادر، حلمي. مجموعة النباتات الطبية. ص ٢٣٨.

١٥. لامبيرتو، ميكو. المريمية – واحدة من أقدم النباتات المعروفة. (١٤ أيار ٢٠٢١) Eistria. المريمية–واحدة–من–أقدم–النباتات–الطبي/https://www.eistria.com/ar

١٦. ع.، ا.، ع.، لله ه.، ا. نبتة القصعين... أقدم النباتات الطبية. (٢٥ حزيران ٢٠١٥). https://www.dw.com/ar/نبتة–القصعين–أقدم–النباتات–الطبية/a-18541462

١٧. Pharmacognosy Review. Petrovska, Biljana Bauer. Historical Review of Medicinal Plants (Usage. (Jan-June 6 (11), 2012 https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3358962

١٨. المصدر نفسه.

١٩. The Health Benefits of Sage. HealthyLife. (22 September 2020) https://www.simplysupplements.co.uk/healthylife/women-and-health/the-health-benefits-of-sage

٢٠. Medical News Today. (10 January, Ware, Megan. Everything You Need to Know About Sage 2018) https://www.medicalnewstoday.com/articles/266480#benefits

رغم ذلك، في لبنان والمنطقة المحيطة بالبحر المتوسّط وفي العالم، كنت ولا أزال عشبة الشّفاء للأجساد وللأماكن. وقد عرفتني وقدّرتني الشّعوب الأصليّة في جميع أنحاء القارّة الأمريكيّة. فكنت جزءًا من حياتها ومن طقوسها، ولا أزال نبتة طبية ومقدّسةً عندها، في مجتمعات عرفت أنّ النّبات والحيوانات لها بيئتها وتاريخها ونظامها الّتي تعطي دروسًا مفيدةً للنّاس.[٢١] وفي الكثير من هذه المجتمعات، يبقى بخور المريميّة من أكثر الطّرق انتشارًا لتطهير طاقة المكان ولبدء واختتام الطّقوس. يتخلّص دخانها من الميكروبات والبكتيريا في الجو ويزيل التوتر.[٢٢]

أدعى المريميّة أو القصعين، ولي أسماءٌ أخرى كثيرةٌ وقصصٌ وفيرةٌ. هذه كانت دعوتي إليكن للتعرّف إليّ، ولتغذية فضولكنّ حول كلّ ما يعيش حولكنّ وما ينبت بينكنّ، لنعرف بعضنا ونساند بعضنا نحو الخلاص والعافية والشفاء.

٢١. Center for the study of - Video: Honoring the Indigenous Roots of the Psychedelic Movement. World Religions. (15 March 202). https://cswr.hds.harvard.edu/news/2021/03/18/honoring-indigenous-roots-psychedelic-movement

٢٢. Urban Reproductive Health. https://urbanreproductivehealth.org/burning-sage/ Burning Sage

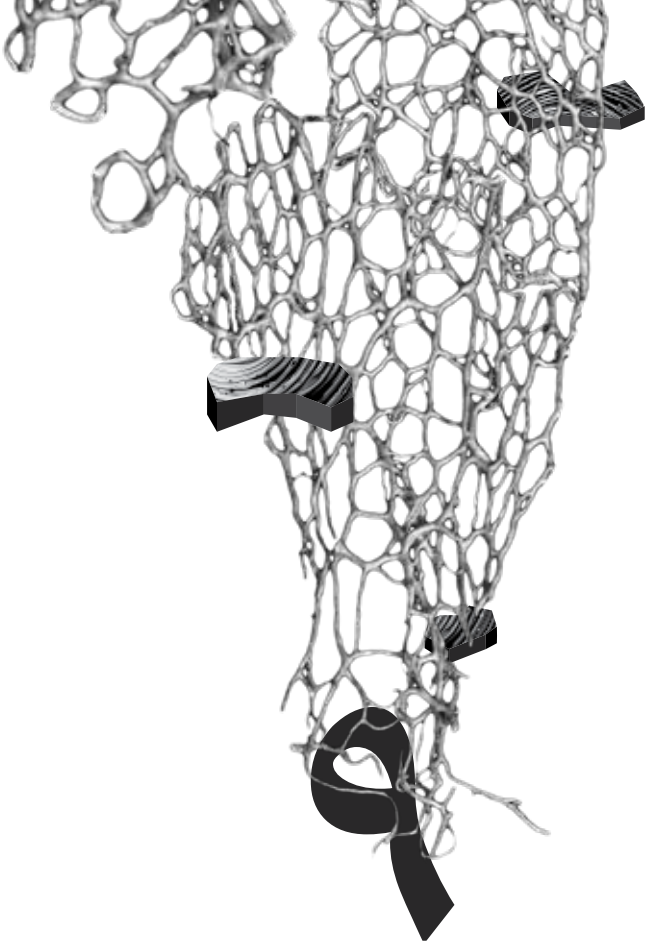

رنا علّوش

فنانة تشكيلية. عملت في مجالَي تصميم المجوهرات وأغلفة الكتب، ومؤخرًا في مجال تصميم القبعات في دبي. تستهويها السينوغرافيا المسرحية والإخراج الفني في الأفلام، وعملت كمساعدة في مسرح الدمى اللبناني. حائزة شهادة الإجازة في اختصاص الفنون التشكيلية، وستتابع خلال هذا العام الدراسات العليا. في سنوات الجامعة، بدأت تكتشف هويتها الفنية وتقترب منها أكثر يومًا بعد يوم. فتنت بالزخارف على أنواعها وبدرجات اللون الأزرق، وحاولت أن تتبع أسلوبًا يشبه شخصيّتها ويعبّر عن مكنوناتها.

في ظلّ البو صفيرة

أكريليك على ورق كانسون A4

كان أبي يحبّ الزّراعة، فملأ حديقة منزلنا القرويّ أشجارًا عديدةً، منها الأكيدنيا والتّين والجوّافة والبو صفير.

منذ خمس عشرة سنةً، توفّي أبي، لكنّ مزروعاته لم تمت؛ فما زالت الأشجار حيّةً حتّى اليوم، تنعم علينا بثمارها وظلّها وهوائها. إنّ الشّجرة الأحبّ إلى قلبي هي شجرة البو صفير، لتميّزها عن غيرها من الأشجار كونها تستمع إلى أمّي دومًا أو على الأقلّ هذا ما اختارت أمّي أن تؤمن به. هذه الشّجرة كانت أوّل ما جعلني أدرك أنّ الإنسان فانٍ، باستثناء ما يزرعه، لا يفنى.

في هذه اللّوحة، أصوّر أمّي وأبي على بساطٍ تحت ظلّ شجرة البو صفير، تحيط بهما ثمارها وأوراقها وترفرف حولهما العصافير. وقد رسمت أمّي وهي تعانق أبي، كما تعانق وتساير كلّ ما ترك أبي وراءه قبل رحيله، بما في ذلك شجرة البو صفير الّتي تتحدّث إليها.

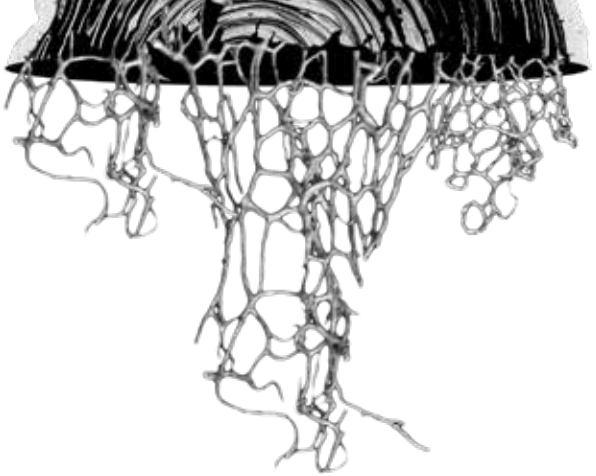

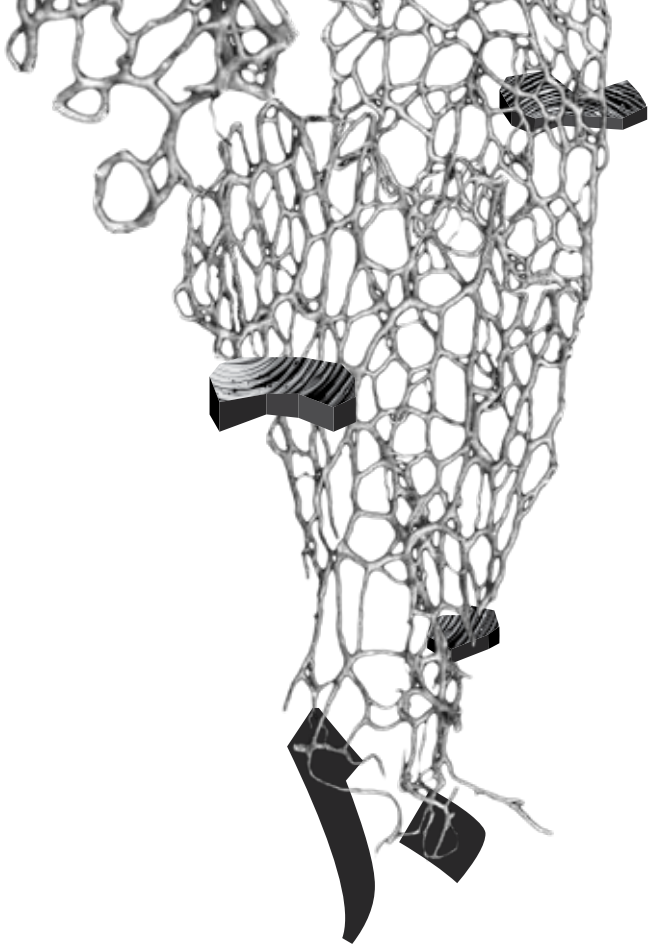

١٠

أمي الحجل

عالمة بيئية حاصلة على درجة الماجستير في إدارة النظم البيئية من الجامعة الأميركية في بيروت، وعلى درجة البكالوريوس في الصحة العامة وعلوم التنمية من جامعة البلمند. وهي تستخدم خلفيتها الأكاديمية متعددة التخصصات وخبرتها المهنية في العمل مع السلطات والمجتمعات المحلية لرأب الصدع بين البشر والطبيعة.

في ذكرى نهر كان ينبض بالحياة

تحليل نسوي لتلوث نهر الليطاني

المقدّمة

إنّ جولة عبر تلال جبل لبنان للوصول إلى سهل البقاع تفضح الانتهاكات البيئية وسوء الإدارة في لبنان. إذ تخترق الطرقُ الواسعة وغير المخططة الأنهارَ والوديان، وتحتل بقعٌ من الغابات المحروقة مكان المساحات الخضراء، كما يجري استخراج الحجارة من الجبال أو تسطيحها أو حفرها حتى باطن الأرض. أمّا القمامة المنزلية والنفايات من المحاجر ومواقع البناء، فتلطّخ مجاري الأنهار. وعلى طول الطريق، تتبعك الرائحة المنتشرة لحرق النفايات أو مياه الصرف الصحي. وعلى عكس امتداد سهل البقاع، تساعد تضاريس جبل لبنان على احتواء التأثير الحسي لهذه الاختراقات داخل حدود التلال التي تقع على مقربة من بعضها بعضًا. مع ذلك، في وادي البقاع الواسع، هنالك تيار واحد من المياه يتلقى ويحمل ويوزع ويحتوي على كميات كارثية من التلوث تتجاوز الحدود الإدارية، وتتسلل إلى داخل المنازل.

نهر الليطاني هو النهر الأطول في لبنان، يتدفق عبر سهل البقاع ويصل إلى البحر الأبيض المتوسط في صور، وهو ملوث بقدر امتداده.[١] يَنتج التلوث عن سوء إدارة مجرى النهر وإهماله، حيث يتم التخلص من مياه الصرف الصحي والنفايات الصناعية والجريان السطحي الزراعي، فضلًا عن التخلص من النفايات البلدية مباشرةً في النهر.[٢] ويتسبب تلوث النهر في بروز آثار ضارة بالشؤون البيئية والصحية والمالية للأفراد، وللمجتمعات التي تعيش بالقرب منه.[٣] وللتلوث آثاره أيضًا في استهلاك المجتمع المحلي العام المنتجات الغذائية القادمة من منطقة النهر.[٤]

في العام ٢٠١٧، قاد ناشطون من المنطقة محاولات للتحرّك ضد التلوث.[٥] وفي العام ٢٠١٩، أطلقت المصلحة الوطنية لنهر الليطاني، وهي المسؤولة عن جودة مياه نهر الليطاني وبحيرة القرعون، حملة شرسة على وسائل التواصل الاجتماعي ضد الملوثين، وبدأت تُظهر جهودًا لوقف التلوث.[٦] كما خصصت المنظمات غير الحكومية الدولية والحكومة اللبنانية مرارًا أموالًا للحد من التلوث وتقليل مياه الصرف الصحي، ولتصفية المواد الكيميائية من النفايات الصناعية، وحاولت تنظيف الطبقة السميكة من الطحالب الخضراء على بحيرة القرعون.[٧] ولكن منذ العام ٢٠١٧ وحتى هذا العام ٢٠٢١، لم يُنفذ أي شيء فعال تمامًا يتعلق بتحسين النهر والبيئة المعيشية للمجتمع المحلي.

١. Nada, et al. 2019

٢. Litani River Authority 2021

٣. Sherif and Fadi 2013, Shaban and Hamzé 2020, Sustainable Environmental Solutions, 2020

٤. Madi 2012, Nabil & Safaa, 2018

٥. Hussein 2017, Topalian 2017

٦. Yasmina 2019

٧. Darwich, Shaban and Hamzé 2018

وبينما يواجه لبنان أزمات عديدة، تَفاقَم التلوث وأثره في المجتمعات المحلية. يمرّ لبنان في حالة انهيار متنام منذ أدت تأثيرات الاقتصاد المضلل –"منخفض الإنتاج"– الذي كان يعتمد على الودائع الأجنبية إلى جر البلاد إلى أزمة اقتصادية.[٨] وفي العام ٢٠١٩، تسارعت الأزمة المالية في أعقاب تداعيات جائحة كوفيد–١٩، ثم تفاقمت بعد انفجار بيروت في ٤ آب ٢٠٢٠. وبالإضافة إلى الآثار المستمرة للحرب السورية، إلى جانب عدم الاستقرار السياسي الدائم، أدّت عوامل الضّغط الجديدة إلى إفقار المجتمعات المحلية المقيمة في لبنان.[٩]

من خلال هذا البحث، أُكمل أعمالًا أخرى[١٠] تمّ التّطرّق فيها إلى تلوث حوض الليطاني العلوي، وأتّبع نهجًا يركّز على النساء. إذ أستشير النساء المتأثرات بالتلوث لتوثيق تجاربهنّ وسلوكهنّ وتصوّراتهنّ حول مسائل المجتمع المحلية والتّحرُّكات والمسؤوليات المتعلقة بالليطاني. وتجسيدًا لتجارب النساء، تهدف هذه الورقة إلى فهم كيفية تأثر المجتمعات المحلية التي تعيش بالقرب من النهر بالتلوث وكيفيّة تكيّفها مع الوضع، خاصةً بالنظر إلى الأزمات الاقتصادية والصحية والسياسية الحالية.

المنهجية

في شباط ٢٠٢٠، عملت كمساعدة لمخرج أفلام وثائقية أراد أن يمثل بصريًّا التهميش والموت.[١١] قادنا ذلك إلى حوش الرافقة ومحيط نهر الليطاني. هناك، رأيت أشياء كنت أعرفها من قبل. كنت أعلم بالأعراض والاختلالات والأمراض والوفيات الناجمة عن التلوث، لكنني كنت أمتنع عن الانخراط. لذلك، عندما أتيحت لي الفرصة للعمل على هذا البحث، قررت جمع الشهادات، والتفاعل، وتبادل المعرفة مع نساء من مناطق الليطاني ناجيات من كارثة بيئية بشكل يومي ومهمشات من الحوار على المستوى العام.

جُمعت هذه القصص والمعلومات باستخدام ما يُعرف بـ"أخذ العينات المستهدفة والملائمة".[١٢] بدأت في جمع البيانات في تشرين الأوّل ٢٠٢١، حين كانت أزمة الوقود تعيق البلاد. أجريت مقابلاتي الأولى عبر الإنترنت وخططت لزياراتي الميدانية الأولى التي تمت في وقت لاحق من ذلك الشهر، وقد جرى جمع البيانات بحلول تشرين الثاني ٢٠٢١.

---

٨. US Aid 2020. Financing Lebanon's Agro-Food Sector: An Analysis of the Sector Before and After October 2019. Report by Economic Development Solutions (EDS).

٩. ESCWA 2021

١٠. إنّ كتاب شعبان وحمزة (٢٠٢٠) يعرض أدبيات سابقة في جدول ملخص لدراسات حول الليطاني، تناولت الجوانب البيئية والكيميائية الحيوية لأسباب التلوث وآثاره. يمكن تتبع تجارب المجتمعات المحلية من خلال وسائل الإعلام في مقاطع، بينما يُسمع كتيب واحد شامل بعنوان "قتل نهر وأهله" ألّفته سعدى علوه ونشرته صحيفة السفير في العام ٢٠١٨، أصوات آلام المجتمعات المحلية المتضررة من التلوث، ويشير إلى مسؤوليات السلطات ذات الصلة.

١١. Olesen, Anders Palm. The Strangers' Cemetery- Trailer Retrieved from:https://vimeo.com/497226393

١٢. نظرًا إلى الوضع غير المستقر سياسيًا واقتصاديًا، جُمِعَتْ العيّنات من خلال القيام بزيارات شخصية للمجيبات المتاحات والمستعدات لتوفير المعلومات، أو الوَصول إليهنَّ بالاتصال عبر الإنترنت.

ولاستكمال بحثي، أجريت مقابلات مع مهنيين/ات. ولكن على القدر نفسه من الأهمية، أجريت مقابلات ومناقشات جماعية مع نساء سوريات ولبنانيات متأثرات بشكل مباشر بتلوث الليطاني. وبالنسبة إلى العديد من المقابلات وجلسات المناقشات الجماعية، ذهبت إلى مواقع النساء، وبالتالي زرت ضفاف النهر والبحيرة في أربع قرى: حوش الرافقة، وبر الياس، وَحوش الحريمة، والقرعون. بالمجمل، شارك ثلاثةٌ وخمسونَ فردًا في هذه الدراسة.

عندما وصلت إلى إشباع البيانات، راجعتها وصنفتها حسب المواضيع،[١٣] ثم جمعتها وحللتها إلى ما ترونه هنا كأجزاء هذا البحث.

في هذا البحث، أسرد قصص هؤلاء النساء وتجاربهنّ ضمن إطار المعرفة البيئية والصحية العامة. لقد اعتمدت أيضًا على ملاحظات المهنيين/ات ذوي/ات الخبرة الذين/اللّواتي ناقشت معهم/معهنَّ التلوث، بهدف إجراء تقييم نوعي للحالة الراهنة للطبيعة والصحة وأسباب التلوث.

نحو النهر: مناقشة قصص النساء عن الليطاني وتلوثه

رحلة النهر

يبدأ نهر الليطاني في بعلبك، ويقطع سهل البقاع، مرورًا بقرية بعد قرية، من حوش الرافقة إلى بر الياس إلى حوش الحريمة، حاملًا الملوثات عبر الحقول الزراعية ومحتلًا حيّزًا في آبار المياه، حتى يصل إلى بحيرة القرعون.[١٤] في الصيف، تكون المياه راكدة وسوداء. وبجريان بطيء، تعتمد كميتها وسرعتها على تدفق النفايات السائلة القادمة من المجاري، وتخترق الرائحة الأنف بشدة. وكلما اقتربت من النهر، تضاعفت رائحته التي تزيد الشعور بضيق الطقس الحار. في فصل الشتاء، تتدفق المياه بكثرة حيث تغمر الأمطار ضفاف الأنهار وقنوات تصريف الأمطار، وتتسرب السوائل الملوثة إلى منازل أولئك الذين جاؤوا لجوءًا بسبب الحرب، والذين يعيشون الآن في هياكل إسمنتية مبنية بشكل عشوائي؛[١٥] كما تغمر المياه طرقات القرية المجاورة لها. وفي فصل الشتاء أيضًا، تنتقل الرائحة مع الريح عابرةً البلدات الصغيرة، متجاوزة ما تبقّى من غابات البقاع لتصل إلى المجتمعات المحلية التي تعيش على قمم التلال. يحدث هذا بشكل خاص حول منطقة البحيرة، حيث يصبح الوادي أكثر إحكامًا، وتطل الجبال على سد القرعون.

---

١٣. Braun and Clarke 2006

١٤. Shaban and Hamzé 2020
هذا الامتداد يشكّل حوض نهر الليطاني الأعلى. في القرعون، يتم تحويل مياه البحيرة لإنتاج الطاقة الكهرومائية، وبعد ذلك، فقط في فصل الشتاء، عندما يتجاوز تدفق المياه الحاجة للاستخدام البشري وتوليد الطاقة الكهرومائية، يمكن للحوض مواصلة تدفقه إلى حوض الليطاني السفلي وعبور جنوب لبنان كي ينتهي في البحر ٧ كلم شمال صور.

١٥. ذكرت المجتمعات السورية في حوش الحريمة وَحوش الرافقة فيضان مياه النهر الملوثة ودخولها منازلهم.

ذكريات نهر مبارك

في الماضي، لم تكن هناك منتزهات ولا مساحات سياحية تجارية: كان الجيل القديم يستفيد بغزارة من الهواء الطلق، ويزور الغابات المجاورة والحقول والأنهار لتشارُك الأوقات المُفرحة مع العائلة والأصدقاء.

"أمي كانت تعمل تبولة ومتبلات واللحمة وكان خيي هو يسوق السيارة كان عمره ١٥- ١٦. حتى أنا كنت أتعلم السواقة مع أختي لكانت تاخد مني ألف ليرة لبنانية لتعلمني، والله العظيم بس ألف! شي بضحّك. كنا ننزل عالنهر ومثلًا نلم الناس القاعدين، نتجمع، كنا نتسبح... نغطس ونمشي بالنهر. كانوا يغسلوا صوف عالنهر، يكون في عرس أو يكون عاملين حفلة صغيرة، كلو هيدا كان يصير من شي ١٥ سنة".
– منيرة (٣٦ سنة)، حوش الرافقة

قبل خمسين عامًا، كان النهر نظيفًا.[١٦] ووصولًا إلى ما قبل عشرين عامًا، كانت أشجار صفصاف وحور لا تزال موجودة على حدود النهر في بر الياس وَحوش الرافقة وَحوش الحريمة. في الماضي، كانت في حوش الرافقة غابات صغيرة مملوكة للقطاع الخاص تسمى "غيضة"، تؤمّن لأصحابها مواد الأثاث والتدفئة ومصدر دخل. وحتى العام ٢٠٠٠، بقي سكان حوش الرافقة يشربون مياه النهر ويستخدمونها لري أراضيهم الزراعية.

"وأنا كان عندي سبع ولاد. كنت اجي من الشغل بدي حممهن وطعميهن؛ من قبل ما كان في غسالة وقازان كنت شغّل النار برا وركّب عليها مي وحممهن. كان في شغل كتير. كنت روح عبّي مي أربع نقلات، وهلق ما فينش [ما بقدر] قوم من هالكرسي". – سهيلة (٧٠)، حوش الرافقة

قبل خمسين عامًا، النساء كنّ يغسلن السجاد والصوف، ويحممن أطفالهنّ، وعند إتاحة الفرصة لهنّ في غياب الرجال، يدخلن المياه وينظّفن أنفسهنّ بين الأغصان المنحنية لأشجار الصفصاف وشجيرات الأنهار. استخدمت النساء من قبيلة الخضر في حوش الحريمة رحلات تنظيف الصوف النهرية كذريعة للخروج في مجموعات من دون شركائهنّ... ففي "ذلك الوقت، لم تكن المجتمعات منفتحة" كما تشير سهيلة. وتضيف بأنّهنّ كنّ يذهبن وحتى لو داهمهنّ التعب، كنّ يستمتعن، وكانت الرحلة رخيصة...اعتاد الناس تناول طعامهم والجلوس بجوار البحيرة، وكان النهر ضحلًا ونظيفًا وآمنًا للسباحة.

يشير العديد من قصص النساء إلى أنَّ المجتمعات المحلية كانت أكثر انسجامًا مع الطبيعة. تتذكّر منيرة من حوش الرافقة القصص التي كانت ترويها لها أمها عن كيفية غسل النساء أطباقهنّ والاستحمام في النهر. كان يُنظر إلى وجود القمل في الشَّعر على أنه شيء إيجابي، فتقول منيرة: "لأنَّ القمل يأكل الجلد الميت من الرأس. تخيلي معرفة ذلك الآن، كنا سنشعر بالذعر ولا يمكننا حتى قبوله!" لذلك، تتوق منيرة إلى حياة "أقل إرهاقًا وأقل تلوثًا وأكثر أمانًا". كان العيش بالقرب من الليطاني امتيازًا لأنه كان يؤمّن

١٦. يمكن إرجاع أول شكوى مذكورة عن التلوث إلى العام ١٩٣٧ (https://www.al-akhbar.com/Archive_Local_News/189393). مع ذلك، كانت المجتمعات المحلية تستخدم المياه على الأرجح بسبب التلوث المنخفض وغير الواضح، وبسبب نقص الوعي.

وصولًا مجانيًا وآمنًا إلى المياه النظيفة والخضروات النظيفة ومساحة للراحة والمتعة على مقربة من المنزل.

كانت المياه وفيرة، وكان النهر يفيض في أشهر الشتاء ويصل إلى منازل بعيدة من مجرى النهر الرئيس. وتمامًا كما تحفظ المجتمعات الجبلية عادةً الطعام المعالج لموسم الثلج، فإنَّ نساء الليطاني يصنعن "المؤونة" للعيش خلال فيضان الشتاء.

"إمي بتحكيلنا من نحن وصغار، بيت أهلها كان على ضفاف الليطاني، كان إله نزلة هيك كان كلها شجر. هيدا الليطاني كانوا يشربوا منه، من ٣٠- ٤٠ سنة كانوا يعبّوا الخوابي من مياهه".
– فاطمة (٤٠)، بر الياس

في الماضي، كانت المجتمعات تشرب بثقة من الينابيع والأنهار وآبار الماء، وكانت تأكل أيضًا الخضار مباشرة من الحقول. كان النهر نعمة.

"كنا ننزل حد منه [للنهر]، كنا نعمّر بيت بلا حيطان وما كنا معمرين بعد لا حيطان ولا بيوت ولا شي، كنّا عالم رحّل. كنا نرحل كل يوم ونحضّر مي حد النهر. كان يمشي النهر داير من دار محل ما عايشين! كنا نجلس عالضفة. كنت صغيري قد بنتي هلق. تعي احكيلك، مرة بيي جاب جوز لأمي بتعرفي بيحشوا الباتنجان بجوز، صرنا نقلها يا ماما طعمينا يا ماما بعد وحدة. ننق عليها، آخر شي مسكت الكيس وكبته بالنهر. شو بدنا نعمل نطينا ونزلنا لنلقط الجوزات". – إم سعود (٥٨)، حوش الحريمة

شهدت المجتمعات المحلية التغيرات التي حدثت لبيئتها وسمعت عنها، وقد صرحت كثيرات من المجيبات بحزم: "لقد كانت المياه نظيفة!" وحتى أولئك اللواتي لم يختبرنَ نظافة الطبيعة القريبة وكرمها، يتحدّثن عن السعادة التي كان يجلبها النهر. الفارق بين هالة (٢٣) وزوجها سبع سنوات فقط، ولكنها على عكسه، لم تستمتع بأيام النهر الجيدة التي يتحدث عنها زوجها دائمًا. وهي تتمنى لو كان بإمكانها مشاركته ذاكرته عن نهر بمياه عذبة نظيفة، لتسبح فيه وتشرب منه وتتخيل المقاهي والمتنزهات المحيطة به. عند الحديث عن النَّهر، تعبّر نساء الليطاني عن شعور بالضياع وتذكّر الماضي.

قصص التكيف مع التغير البيئي

مقايضة الخدمات[١٧]

استُبدلت الوظيفة البيئية والطبيعية والمتدفقة والحيوية التي كان يتمتع بها النهر بخدمات الطاقة الحيوية وتوفير الغذاء[١٨] والمياه؛ فقد حوّلت الحكومة، من خلال مصلحة نهر الليطاني،[١٩] مجرى المياه وأنشأت قنوات الري وسد نهر القرعون لإنتاج الطاقة الكهرومائية.[٢٠] وحسب النساء في القرعون، فإنَّ الخدمات التي كان من المتوقع أن تعود بالنفع على المجتمع المحلي، أفادت من هم في السلطة وعلّلت الاستيلاء على الأراضي، كما سبّبت التلوّث، وأدت إلى تدمير مستجمع المياه. في قرى مثل عيتيت وباب مارع، وُعِدت المجتمعات المحلية بالكهرباء وبقطاع سياحي نابض بالحياة مقابل الأرض.[٢١] في هذه الفترة، تفقد المجتمعات المحيطة ببحيرة القرعون أراضيها المنتجة سابقًا لصالح البحيرة، ولا تحصل على الكهرباء على مدار الساعة وطوال أيام الأسبوع، وليس لديها أنشطة سياحية، وتعاني من حالة صحية سيئة. في قرى أخرى مثل حوش الرافقة وبر الياس، تعمل قنوات الري كمجارٍ. في نهاية المطاف، كانت الخدمة التي يقدمها استعمال النهر هي السماح لمصادر التّلوّث (الصناعات والمستشفيات والبلديات...) باستغلال قنوات المياه ونقل ملوثاتها إلى مكان آخر.[٢٢]

كسب الرزق مقابل المصلحة العامة

دمّر التلوث خدمات النظام البيئي للنهر وللبحيرة، وخرّب خدمات الإمداد.[٢٣] لم يعد بإمكان الأشخاص الذين استخدموا الموارد الطبيعية سابقًا كمصدر للدخل الوصول إليها.[٢٤] بالنسبة إلى المزارعين والرعاة وأصحاب أماكن الترفيه، من الضروري احتساب المياه التي كانت متوافرة مجانًا في السابق على أنها

---

١٧. تشكل خدمات النظام البيئي المنفعة الأنثروبولوجية المستمدة من الطبيعة.، ولا مفر من المقايضات عند إدارة هذه الخدمات، حيث تؤدي المكاسب الاقتصادية و/أو الاجتماعية إلى اضطرابات بيئية وخسائر اجتماعية أخرى.

١٨. تشمل الأغذية المنتجة السلع الزراعية والمزارع الحيوانية لإنتاج اللحوم والألبان.

١٩. المصلحة الوطنية لنهر الليطاني هي هيئة عامة أُسِّسَتْ في العام ١٩٥٤، وتتمثل مهمتها في تنفيذ وصيانة ري نهر الليطاني والطاقة الكهرومائية، فضلًا عن مراقبة جميع الأنهار اللبنانية. http://www.litani.gov.lb/wp/

٢٠. Litani River Authority 2021

٢١. الاستحواذ على الأراضي كان يعني أنّ عائلات عديدة كانت تعتمد على الزراعة في الوادي، ثمّ أصبح عليها الاستناد إلى مصادر أخرى للدخل مثل السياحة.

٢٢. صرّح أحد الخبراء بأنّ العديد من الصناعات توجّه مياه الصرف الصحي مباشرة إلى النهر، أو بشكل غير مباشر عن طريق إرسالها إلى محطات معالجة مياه الصرف الصحي البلدية التي تعجز عن معالجة المياه الصناعية. إضافة إلى ذلك، تستأجر الصناعات مقاولين للتخلص من نفاياتها الصلبة، وهؤلاء غالبًا ما يتخلصون من القمامة الصناعية في قنوات النهر أو البحيرة.

٢٣. خدمات الإمداد هي منتجات يتم الحصول عليها من النظم البيئية مثل الماء والغذاء وحطب الوقود. أمّا الخدمات الثقافية وخدمات التنظيم والخدمات المساندة فهي الفئات الثلاث الأخرى لخدمات النظام البيئي.

٢٤. Millenium Ecosystem Assessment 2005

تكلفة. ومَن يستطيع تحمّل تكاليفها يدفع لتأمين المياه النظيفة عبر حفر الآبار وتركيب الفلاتر أو الشراء من مصادر أخرى. مِن هنا، خسر الصيادون مصدر رزقهم بسبب نفوق أسماك النهر وحظر الصيد في البحيرة، وفقد المزارعون مصدر المياه السطحية، كمًّا ونوعًا، حيث ملأت مياه الصرف الصحي الخام والنفايات الصناعية قنوات المياه. اعتاد والد ضحى الذهاب إلى الصيد مع صديقه الصيّاد المجهّز بكل مستلزمات الصيد والذي أخبرها عن قصص رحلاتهما. كانت هذه الرحلات بمنزلة طقوس، وقد توقفت الآن، "لأنه الآن، يمكنك فقط شراء الأسماك".

منذ العام ٢٠١٩، لم يعد يُسمح للمزارعين – من قبل مصلحة نهر الليطاني التي كانت تنفذ قراراتها من خلال البلديات – باستخدام النهر أو البحيرة لري محاصيلهم، كما مُنع الرعاة من أخذ أغنامهم وماعزهم للرعي أو للشرب من المياه. تسبّب تلوث المياه في خلافات، حيث إنَّ الأفراد الذين اعتمدوا على النهر لتوليد دخل منخفض الكلفة عبر صيد الأسماك والزراعة وإنتاج الألبان على نطاق صغير، عجزوا عَن التكيّف بشكل صحيح. يُنظر إلى هذه المجتمعات المحلية على أنها الأكثر تضرّرًا من التلوث، بما أنَّ سبل عيشها مهدّدة في حين لم يُقدَّم أي بديل لها.[٢٥]

استمر العديد من منتجي المواد الغذائية في استخدام مياه النهر. وكانوا يستخدمون مياه الصرف الصحي والمياه الغنية بالكيماويات لمواصلة توليد الدخل، وتراكمت الملوثات في الغذاء، لاسيما في الأسماك والخضروات الورقية، ثم كانت توزّع للاستهلاك البشري.[٢٦] صُدمت كوثر، وهي خبيرة مياه اعتادت زيارة المنازل للتوعية بشأن فرز النفايات، عندما رأت مكب نفايات بر الياس على حدود النهر "حيث يستخدم بعض المزارعين السوائل المتسربة من المكب لري الخضروات. لقد كان أمرًا لا يصدق حقًّا، فنحن جميعًا نأكل هذه الخضار المروية بالماء من مكب النفايات، لاسيما في البقاع". بالنسبة إلى العديد من سكان البقاع، لم يتضح أنَّ مصادر الغذاء في المناطق ملوثة حتى العام ٢٠١٩. عندها فقط، أدركوا أنهم باتوا عاجزين عن الوصول إلى مصادر الغذاء الموثوق بها التي عرفوها من قبل، وأنّهم يحتاجون الآن إلى بذل جهد إضافي لضمان سلامة أسرهم.

وفي أثناء البحث عن مصدر نظيف للخضروات، توجهت نجود من مجدل بلهيص إلى قرية حيث منعت البلدية ري الأراضي من مياه الليطاني، وطلبت من المزارعين حفر الآبار أو استخدام مياه الأمطار في الري. سألت نجود مزارعًا عن مصدره لمياه الري، وقد دُهِشَتْ حين أخبرها بأنَّ لديه بئرًا جفّت، ولأنه لم يتمكن من شراء المياه هذا العام، فهو الآن يملأ البئر من مَجرى النهر.

عندما سألته عن الحل الذي اعتمد عليه قال: 'من تحت ضهر البلدية، أجيّر مياه النهر لتعبئة البئر'. جاوبته بأنَّ هذا عمل ضار، فقال لي: 'إنَّ ليس هنالك ضررًا، فالأرض تنظف المياه وتصبح مياهًا عادية'. في ناس ما عم تسمع، ما عم تهتم، بهمها مصلحتها الشخصية وخلص، المهم شغلتها تمشي. 'عم أقول لكِ عم بيصير في تكلفة كبيرة عالمزارعين'... سألته: طب كيف بتبيعهن؟ وقال: 'ببيعهن لبرا. بس الخضرة والفواكه ملوثة قد ما كان حتى لو هو التراب بنقّي المياه". – نجود (٢٨)، مجدل بلهيص

---

٢٥. رأى خبير المياه الذي درس مشاكل الجودة والحلول في القرعون أنَّ المجتمعات الأكثر تأثرًا هي التي كانت تستفيد اقتصاديًّا من النهر والبحيرة.

٢٦. Mcheik, et al. 2018

لا مياه ولا بديل

على الرّغم من العيش على ضفاف النهر، تواجه مجتمعات الليطاني تحديات في الحصول على المياه النظيفة لضمان احتياجاتها.[٢٧] المياه البلدية التي تأتي من شبكة المياه الحكومية نادرًا ما تكون متوافرة الآن، ومؤخرًا لم تتمكن الحكومة من توزيع المياه على المنازل بسبب انقطاع الكهرباء لنقص في الوقود. هذا يفرض على أفراد الأسرة البقاء في حالة تأهب للاستفادة من هذه المياه قدر الإمكان عن طريق ملء غالونات من صنبور المطبخ والتأكد من امتلاء خزان المنزل أيضًا. "قد تنسين الاعتناء بنفسك حتى تتمكني من توفير كل شيء لمنزلك وعائلتك. هذه أولوية"، تقول هالة، وهي أم وحيدة، غالبًا ما تظل مستيقظة في الليل للتأكّد من أنها لا تفوّت فرصة جمع المياه عندما يحين الوقت. وحسب نساء حوش الحريمة، فإنهنَّ يتحملن عواقب الخلاف الذي يؤثر في توافر المياه، كما أنهنَّ محملات بالأعمال والمخاوف بسبب الخلاف القبلي والسياسي المحلي على رئاسة البلدية. وفي الوقت الذي تعم مشاكل الكهرباء لبنان بأكمله الآن، تؤكّد نساء حوش الحريمة أن لا أحد يتحمل المسؤولية عنهنَّ، ولا أحد يمثلهنّ أو يمثل كفاحهنَّ من أجل توفير الكهرباء أو المياه، وهذا يترك المياه متاحة لهنَّ ساعة واحدة فقط يوميًا. وفي هذا الصّدد، تقول إحدى النساء: "بتجي الكهربا بأوقات ما خرج وبصير شو ما كنت عم تعملي بتتركيه لتستفيدي من الوقت، لأنه هلق فينا نشغل المي، هيدا إذا كان عندك وقت من الأساس... فبتشغلي الغسالة وبتكوي الغسيل وبتشطفي الدار..."

أمّا الحصول على المياه من مصادر أخرى، فيشكّل عبئًا أيضًا، إذ أصبح ضخ مياه الآبار مكلفًا للغاية، وقد تسربت إليها مياه الصرف الصحي.[٢٨] باتت ناقلات المياه الخاصة، القادمة أيضًا من مصادر المياه غير معروفة وغير جديرة بالثقة، باهظة الثمن ولا تستجيب لحاجة المتصل إلّا إذا كانت الخزانات المراد ملؤها تستحق التنقل.

"النا أكتر من خمس سنين مش مستعملينه للبئر، بس منستعمله للشطف برا لأن تلوّث يا من الليطاني يا من ال*Liban Lait* وفي بير ارتوازي لإلنا، منستعمله للطبخ للغسيل للحمام والشرب، وكنا عم نفوت نحمم الولاد، ويا دلّي قول الريحة مش حلوة، ريحة وسخ، بعدين عملناله فحص إجت شركة وقالت إنّو مش صالح للاستعمال". – منيرة (٣٣)، حوش الرافقة

إنَّ الوعي بشأن مصدر المياه وجودتها في أوساط المجتمع اللبناني جدّيٌّ، وهو يتزايد بين مجتمع اللاجئين السوريين. وعلى الرّغم من هذه المعرفة، لا تستطيع النساء في كثير من الأحيان تحمّل تكاليف البدائل؛ ففي حوش الرافقة، تُجاور خزانات الصرف الصحي بئر ماء حفرها صاحب الأرض منذ سنوات عديدة.

---

٢٧. Diane, Michele and Giorgio 2017

٢٨. Nabil and Safaa 2018

ويُعَدُّ استغلال آبار المياه أحد أسباب انخفاض منسوب المياه الجوفية والجفاف في الليطاني (Khair, et al. 1994). في الصيف، يجف الليطاني تمامًا ولا يتدفق فيه سوى مياه الصرف الصحي والمياه الصناعية. يتم تخفيف التلوث لاحقًا بمياه الأمطار في الشتاء. وعندما يصبح التلوث أقل كثافة وأقل وضوحًا، فإنَّ المياه تُستغَل للاستخدام المنزلي، لاسيما للتنظيف والري.

وعندما يرتفع منسوب المياه الجوفية وينبع ماء الآبار من الأرض، تملأ نساء المخيم جرادلهنَّ للاستفادة من الوضع، على الرّغم من المخاطر الصحية الشديدة.

"الجور الصحية تبعول هول الخيم هنا، بقرب البئر الذي نعبي منه المياه. فين بتروح المجارير لي بالجورة؟ بتروح عالبئر!" –إلهام العبدالله (٢١)، حوش الرافقة

تحظى المجموعات السورية بدعم المنظمات غير الحكومية للحصول على مياه صالحة للشرب وعلى تركيب الصرف الصحي وصيانته. ووفقًا للنساء، غالبًا ما تكون خدمات المنظمات غير الحكومية غير كافية وتمييزية وتهمل حفظ الصحة؛ فحوش الرافقة، إحدى "مناطق الإسكان العشوائي"[٢٩] المتاخمة للنهر مستثناة تمامًا من تلقي الدعم المائي، بينما تتلقى الأخرى مبلغًا غير كاف. ووفقًا لخبير في جودة المياه، غالبًا ما تفشل المنظمات غير الحكومية في الإشراف على جودة مياه المقاولين، ولا يمكّنها ضمان عدم ملء الخزانات النظيفة بالمياه العشوائية لاحقًا من قبل الساكن. في المخيمات، تُحفَر خزانات الصرف الصحي تحت منازل اللاجئين، وقد اشتكت النساء في حوش الرافقة من أنَّ المنظمات غير الحكومية المسؤولة عن تفريغ الخزانات تصل في كثير من الأحيان في فصل الشتاء في وقت متأخر عن الموعد المحدد، ما يتسبب في فيضان الخزان.

حاوية في الهواء الطلق

تبتلع رائحةٌ كريهة أنفاس المرء على طول نهر الليطاني. تتغير الرائحة وفقًا للموقع، ما يعطي إحساسًا في بعض الأحيان بأنَّ الهواء يشبه إلى حد كبير المواد الكيميائية، مع عدم وجود قدرة مؤكدة على تحديد المادة الكيميائية أو خليط المواد الكيميائية. وفي أحيان أخرى، يمكن ربط الرائحة مباشرة برائحة مياه الصرف الصحي. في القرعون، سبب الرائحة الكريهة هو البكتيريا الزرقاء،[٣٠] وهي طحالب سامة، لونها أخضر مائل إلى الأزرق، تغطي البحيرة الكائنات المائية وتخنقها، وتتراكم، وتجف كرغوة بيضاء في زاوية البحيرة.[٣١]

وفي ضوء ما سبق، يشتكي الجميع في المنطقة من الرائحة ومن الصداع والشعور بالإحباط. وكلما كانت الرائحة أقوى، شعر السكان بالغضب والعجز؛ فالرائحة الكريهة تعطل الخطط الاجتماعية والروتين، وتثير مشاعر الخجل والخوف. وعندما تكون الرائحة كريهة، تلغي النساء خطط الزوار، وتُبقي الأمهات أطفالهنَّ داخل المنزل.

---

٢٩. إنّ تعبير "منطقة إسكان عشوائي" هو المصطلح الرسمي المستخدم لمخيمات اللاجئين السوريين. أمّا المجتمعات المحلية السورية واللبنانية، فهي تشير إليها ببساطة باسم "المخيمات". يُستخدم المصطلحان بالتبادل في هذه الورقة.

٣٠. البكتيريا الزرقاء هي بكتيريا ضوئية تطلق السموم التي يمكن أن تسبب أعراضًا شبيهة بالحمّى، ومشاكل في الجهاز التنفسي، ومشاكل في الجهاز الهضمي، وطفحًا جلديًا.

٣١. SPNL 2021, Yazbek, Fadel and Slim 2019

"أوقات بيكون جايي لعنّا ضيف بالصيفية بقلّه لجوزي: لك الريحة ما بينقعد، احكي معهم وأجّل لمرة ثانية. مش كل الأوقات النهر هيك بيعطي ريحة، ما بعرف بركي أوقات على الشوب أو الهواء بيدفشهُ ما بعرف".
– ميادة ي.، حوش الرافقة

قالت نساء كثيرات إنهنّ اعتدن تجاهل الرائحة؛ فبينما كنت أغادر أحد المنازل بعد مقابلة في حوش الرافقة، أشرتُ بسذاجة إلى وجود رائحة كبريت أو حديد يحترق، فأجابتني سريعًا السيدة التي كنت أجري معها المقابلة: "أيّ ريحة؟"

عندما تكون الرائحة قوية لدرجة عدم القدرة على تحمّلها، يدخل الجميع إلى منازلهم ويغلقون النوافذ بشكل عرضي، كما لو كان ذلك طبيعيًّا، وهذا غالبًا ما لا يبعد الخطر. الرائحة هي تذكير يومي بالحاضر الرهيب والمستقبل المخيف، وتذكير بحلقة التسوس والالتهابات والأمراض الفتاكة غير القابلة للكسر.

"صرنا متأقلمين مع الموضوع نوعًا ما، بس بيرجع بيجي الموضوع بيعملك ***trigger*** لمّا حدن يقلّك فلان معه ***cancer*** أو فلان توفى أو لك فلان رجع تأثّر من ورا الليطاني. حتى أمرار لما تطلع الريحة بترجعي بتتذكري أنا قديش وقفت وقديش تعذبت وأنا شو عملت وطلع صوتي على الإعلام يعني كيف بدّي وصّل صوتي أكتر من هيك؟ وبرجع بوقف... برجع بنسى شوي، وإذ بيصير شي وبرجع بتذكر..."
– ضحى ي. (٢٣)، حوش الرافقة

مجتمع محروم من الطبيعة

لقد رافق تدهور حال النهر فقدان الطبيعة المحيطة.[٣٢] فالأشجار لم تعد تنمو على ضفاف النهر، وكل ما تبقّى هو بعض العصي المنفردة. نادرًا ما تُرى الحيوانات بالقرب من النهر، والطيور تتجنب الليطاني، والطيور المهاجرة التي كانت تصل إلى البقاع بفارغ الصبر لتتوقف غريزيًّا لم تعد تقترب من النهر بسبب الرائحة. لم يعد بالإمكان سماع الضفادع خلال موسم التزاوج، وحتى الأفاعي اختفت، كما ذهبت الأسماك تمامًا من النهر ولا يمكن العثور عليها إلّا في البحيرة.[٣٣]

ترافق فقدان الأماكن الخضراء مع التوسع العمراني[٣٤] والتغيرات في الممارسات الاجتماعية. إلى ذلك، يعني فقدان الطبيعة خسارة المساحات الخضراء العامة المفيدة للراحة العقلية، وللتجمعات العائلية، وللتواصل مع البيئة الطبيعية والتعلم منها.[٣٥]

---

٣٢. شعبان وحمزة (٢٠٢٠) أعلنا الليطاني نهرًا ميتًا.
٣٣. أشارت النساء في القرعون إلى أنَّ غواصين في البحيرة رأوا سمكًا "بحجم الذراع".
٣٤. يشكل التوسع العمراني عاملًا رئيسًا في تدهور جودة المياه في حوض الليطاني العلوي (M Khatib, Baydoun and Elkordi 2018)، ما أدى بدوره إلى الانهيار البيئي العام.
٣٥. Vanaken and Danckaerts 2018, Sugiyamaa, et al. 2018

"إنُه منحب يكون عننا متنفس، ولادي مثلًا بحب آخدهم عالطبيعة ليتعلموا عنها. بالروضة هلق عم يكتشفوا فصل الخريف، إنو كان فيني آخد ولادي نزلهم يشوفوا كيف بتتساقط الأوراق، وكيف بتكون الشجرة صغيرة. في كتير قصص الأولاد بتتعلمها من الطبيعة. صح نحن هون قاعدين بالطبيعة بس مش متل ما كان قبل لا ".
– هلا، بر الياس

البيئة الملوثة هي في الواقع فرصة ضائعة للترفيه والاستجمام، كانت تستفيد منها النساء من خلال اصطحاب أطفالهنَّ في الهواء الطلق، وقضاء الوقت في الاختلاط مع الآخرين، وأخذ استراحة من الأعمال المنزلية. كانت، على وجه الخصوص، لتصبح فرصة تستفيد منها العائلات في أثناء الإقفال التام بسبب كوفيد–١٩.[٣٦]

"أنا بيتي ***directly*** بيطل على الليطاني وقديه محزن هيدا الشي إنو بالسيارة بصير قاطعة أنا ومسكرة مناخيري وعم اشتكي إن يه شو هيدي الريحة ما فيني شمها..." – ضحى، حوش الرافقة

وفيما لم تعد زيارة ضفاف النهر خيارًا منذ العام ٢٠٠٠، أصبحت بحيرة القرعون مؤخرًا وجهة يتجنبها السائحون.

"قريبتها لأمي متجوزة بالكويت كانت كل سنة تجي، صرلها شي سنتان ثلاثة مش عم تجي بسبب الأوضاع الصحية... الأمراض لي عم بتصير، الريحة. مثلًا من قبل كنتِ تمرّي حد البحيرة مكنتيش تشمي الريحة وبسبب الوسخ صار في ريحة أقوى. صار في عالم بتخاف إنو تمرض فمن هيك وقفوا السواح يجوا".
– تحاويل (٢٠)، قرعون

لا تزال البحيرة تثير ازدواجية مربكة؛ فقد تضمن أحدث الأنشطة الاجتماعية التي أقيمت بالقرب منها ما يأتي:[٣٧] نشاط ركوب دراجات مخصَّصًا للدعم المعنوي لشقيقين شابين مصابيْن بالسرطان، وتنظيف النهر الذي جرى ردًّا على ملايين الأسماك النافقة التي كانت تطفو على النهر وتتحلل على الشاطئ. وعلى نطاق واسع ومن وجهة نظر بعيدة، فإنَّ البحيرة جميلة ومفيدة لإنتاج الطاقة، لكنها أيضًا قاتمة ورائحتها كريهة وتُسبّب الموت والمرض.

الطبيعة كملاذ متاحة الآن فقط في الأماكن البعيدة مِن النهر، مثل تلال مجدل بلهيص وباب مارع وضهر البيدر، وحتى بالقرب منها في عنجر، وفي مجرى نهرِ العاصي الأنظف. ما زالت سيدات البدو، الكبيرات والصّغيرات منهنَّ في الخضر، يسافرن مع قطيعهنَّ خلال موسم الترحال. ينصبن الخيام ويمضين الصيف من حزيران إلى أيلول في الهواء الجبلي النظيف في ضهر البيدر "بأمان من النهر والأمراض التي يجلبها". تغريد التي تعمل في مجال إعادة التحريج تذهب لزيارة المواقع التي زرعتها بعيدًا مِن بحيرة القرعون، والآن بعدما بلغت من العمر ما يكفي للقيادة، أصبحت تستخدم إمكان الذهاب بعيدًا والعثور على أماكن "أفضل" للاسترخاء.

---

٣٦. Pouso, et al. 2021

٣٧. ذلك وفقًا لبترا شديد، خبيرة في السياحة المحلية والالتزام المجتمعي.

"نهر الليطاني خلص، صار متل نهر الموت، في كتير شباب وصبايا ماتوا من وراه، في كتير ناس من الضيعة خسروا ناس، أنا إذا بتقوليلي نهر الليطاني أنا بقلّك إني بكرهوا، ما بيعنيلي. كنت إلي كتير ذكرى حلوة إلو صار ذكرى بشعة، صار سلفك، ابنك، خيك، إبن عمك ماتوا من وراه ليش بدّك تحبيه؟"
– منيرة، حوش الرافقة

إنَّ حالة الحرمان من الطبيعة التي أعربت عنها نساء الليطاني، تسلط الضوء على التناقض الصارخ بين هوية المكان التي كانت لدى الأجيال الأكبر سنًّا وتلك التي استُبدِلَتْ الآن بنوع محيّر من التعلّق. وعلى الرّغم من الشعور بالارتباط بقراهنَّ، لاسيما من خلال الروابطَ الاجتماعية، تشعر النساء بالغربة[٣٨] عن بيئاتهنَّ الطبيعية حيث لا تُلبّى التوقعات ببيئة نظيفة وآمنة ويسهل الوصول إليها.

أثر التلوث في صحة المجتمع

تقول النساء اللواتي تحدثت إليهنَّ إنهنَّ يأكلن السم ويشربنه، وإنّ جلدهنَّ يلامس المياه التي تسبب الحساسية، وإنّهنَّ يتنفسن هواءً سامًّا.

التلوث والتلامس البشري وتأثيره في الصحة

يفاقم التلوث البيئي لنهر الليطاني بشكل كبير عبء المرض لدى المجتمعات المحلية، حيث يعيش الأفراد في حالة صحية سيئة ويفقد الناس حياتهم قبل الأوان بسبب المرض.[٣٩] يتسبب تلوث الهواء والماء والغذاء في المرض والوفاة. ولقد أدت كثرة ملامسة السموم الكيميائية فضلًا عن البكتيريا والفيروسات والفطريات إلى زيادة نسبة الإصابات بالأمراض وإطالة أمدها، وإلى ارتفاع أعداد الوفيات، ما شكّل كلفة باهظة على المجتمعات المحلية اجتماعيًّا واقتصاديًّا.

صرّحت النساء اللواتي انتقلن حديثًا إلى مخيَّمَي حوش الرافقة وَحوش الحريمة مرارًا وتكرارًا بأنَّ أطفالهنَّ لم يمرضوا من قبل كما هو الحال الآن.

تقول إحداهنَّ: "كتير في حرارة. الأولاد دائمًا عندهم حرارة عالية. ولا حتى فينا نتكلّف سعر الدواء – صار حقه ٨٠٠٠٠ ليرة". كما شاركت لاجئة سورية ساكنة في حوش الرافقة، قائلةً: "كلّ الناس هون عندهم غريب (grippe) بسبب الرائحة وكل الوقت في مرض".
تتجول الحشرات والقوارض الناقلة للأمراض في القرى المجاورة للمياه؛ ففي مخيم حوش الحريمة، تنادي مجموعة النساء جارها الذي خدشه فأر قبل أسبوع، وتصف بحماسة كيف أنَّ لدغة البعوض في المخيم تختلف عن أي لدغة في مكان آخر، وتُسبّب انتفاخًا كبيرًا وتورّمًا، وغالبًا ما تسبب أيضًا حساسية.

---

٣٨. الشعور بالغربة يأتي نتيجة فقدان الحس بالمكان المرتبط بعدم القدرة على تحسين ظروف العيش والرغبة في الرحيل مِن دون القدرة على ذلك. إنَّ تلوث المياه والتبعات الناتجة عنه يؤدّيان إلى فقدان الحس بالمكان (E. Cross 2001; Nor n.d.).

٣٩. Hessel 2008

ويصرّح سكان المخيمات بأنهم يعانون من آلام في المعدة وإسهال وقيء بسبب شرب المياه غير النظيفة، إذ يصاب الناس الذين يعيشون في المنطقة بأمراض المعدة بسبب الطعام. وكما أوضحت النساء، تتسبب مياه النهر المتسخة فضلًا عن المياه القذرة التي تصل إلى صنبور المنزل في حدوث طفح جلدي متكرر للأطفال والنساء والرجال. تصاب النساء بشكل خاص بالتهابات بكتيرية وفطرية متكررة في مناطقهنَّ الحساسة. وقد تمكنت كوثر من خلق بيئة آمنة للنساء اللاتي اشتكين من عدوى الخميرة، وعلمت أنّ النساء لم يكنّ على دراية بأنّ سبب الحكة هو المياه التي كنّ يستخدمنها لتنظيف أنفسهنّ.[٤٠] كما أقرت مجموعة من النساء اللبنانيات في حوش الحريمة بأنهنَّ عندما يشعرن بالحكة في مناطقهنَّ الحساسة، يذهبن إلى الصيدلية لشراء مرهم مضاد للفطريات، لأنهنَّ لا يستطعن تحمّل تكلفة الاستشارة الطبية أو الفحوص لمعرفة السبب المحدد للطفح الجلدي.

"أنا إلي فترة عايشة هون وما كان هيك قبل، وقتا كنت بالجامعة مثلًا، ما كان في هلقد ناس مريضة وهلقد في ناس بتاخد إدوية حساسية. بلّش هالشي من شي ٥ أو ٦ سنين. كانوا يحكوا بالمرض [السرطان] بس ما كان هلقد منتشر المرض والحديث عنه، مثلًا بكل بيت في حدا مريض. بكل بيت في ولد مثلًا عم ياخد إدوية ربو، بكل بيت في ولد قاعد عالأكسيجين أو بكل بيت في ولد حاطينلو ***vapeur*** بحال عمل كريزة ربو".
– بترا، خبيرة سياحة من عيتنيت

كما لوحظ أنَّ مشاكل الجهاز التنفسي ونسبة الإصابة بالربو قد ازدادتا بشكل كبير، لاسيما عند الأطفال، وكما ذُكر لنا مرارًا وتكرارًا "أصبح لدى كلّ شخص جهاز استنشاق الآن". تقول تقلا (٢٥ سنة) وهي خائفة على ابنتها التي تصاب بنوبات غضب كلما ينفد لديها الدواء: "لم يعد بإمكاننا العثور على البخاخ، وحتى لو وجدته، فقد كان ١٧٠٠٠ ليرة لبنانية سابقًا، والآن أصبح سعره ٢١٧٠٠٠ ليرة لبنانية".

السرطان والموت

كان يُعتقد في البداية أنَّ السرطان ناتج عن عوامل وراثية أو إرادة إلهية. لكن خلال السنوات الست الماضية على الأقل، أدركت مجتمعات الليطاني أنَّ بيئتها المعيشية تعرّضها للعوامل المسببة للسرطان. وعلى الرّغم من هذا الوعي، يتردد كثيرون/ات في إجراء فحوص طبية خوفًا من معرفة أنهم/هنَّ مرضى ويحتاجون/يحتجن إلى التعامل مع ورم خبيث. شعرت هالة، إحدى الناجيات والناشطات في بر الياس، بكتلة في الكتف. وعندما ذهبت لإجراء الفحص الطبي، علمت أنها مصابة بسرطان الثدي في مراحله المبكرة.

٤٠. إنَّ تقريرًا لمنظمة أوكسفام للعام ٢٠٢٠ (Rima and Hiba 2020) يفحص إدارة النظافة في أثناء الدورة الشهرية بين اللاجئات السوريات في البقاع، يقر بسوء ظروف المياه والصرف الصحي والنظافة الصحية داخل المخيمات، بما في ذلك سوء النظافة وممارسات صرف صحي مشكوك فيها وعدم كفاية المياه. لكنَّ التقرير يفتقر إلى ذكر نوعية المياه السيئة في القائمة.

"يعني من تلات سنين تقريبًا.... أنا شخصيًّا كتير أثّروا فيني هالشب والبنت، عدا عن الأهالي الكبار بالعمر اللي تأثروا... اسمه حسين، كان أكبر مني بسنة وكنّا أنا وياه كتير رفقة وفي صحبة وفي قرابة، والبنت التانية أكبر مني بشي سنتين، لازم يكون هلق عمرها ٢٥ سنة إسمها حبيبة، هل الاتنين كانو خسارة كتير كبيرة بنفس السنة للأهل والأصدقاء وللضيعة كلها يعني. يعني ولا مرة كان فيني قول أنا لشو نازلي عالعزاء، إنو إلّا ما بدّك تروحي، إنو حرام علينا" . – ضحى، حوش الرافقة

تتحدّث كَارِمى، من بر الياس، عن ستة أفراد من العائلة نفسها ماتوا جرّاء السرطان، وحبيبة التي يتحدث عنها الجميع في حوش الرافقة والتي كانت تبلغ من العمر خمسةً وعشرينَ عامًا عندما ماتت قبل والدها وجدتها اللذيْن يعانيان أيضًا من مرض السرطان.[٤١]

اللوكيميا، وسرطان الغدد الليمفاوية، وسرطان الثدي، وسرطان المعدة، وسرطان الرئة، وسرطان الجلد... أُدرجت جميعًا على أنها سرطانات عانى منها أفراد المجتمع المحلي أو ماتوا منها. تُكرر النساء أنَّ تأثير السرطان على الشباب هائل، حيث يختفي التّلاميذ من المدارس لقضاء بعض الوقت في المستشفيات. وتحدثت النساء بمرارة عن فقدان تلاميذ المدارس زملاءهم، مشيرات إلى أنَّ الأطفال يخشون فكرة فقدان أحبائهم.

الطريق المسدود والصحة النفسية

إنَّ الخوف من الموت والقلق بشأن تلوث المياه والغذاء يستنزفان الصحة النفسية لدى المجتمعات المحلية حول الليطاني.[٤٢] وظروف معيشية كهذه تسبب تثبيطًا لكبار السن والشباب، وشعورًا بالمكيدة وعدم القدرة على التصرّف أو تغيير المصير المحكوم عليه بالفشل.

"ما النا نعمل شيء. لما الطائرة تحوم فوق راسنا بسوريا شو كنا نعمل؟ بتترك أمرك ل الله. نفس الشيء هون، تاركين أمرنا بيد الله" . – عيوش، حوش الحريمة

---

٤١. يوجد في لبنان أعلى معدلات الإصابة بالسرطان بين بلدان المنطقة (Charafeddine, et al. 2017). يصنف موقع وزارة الصحة العامة حدوث السرطان حسب النوع والجنس لكنه لا يعلن عن توزيعه الجغرافي. على الرغم من إشارة المجيبين/ات إلى دراسة ذكرت معدلات الإصابة بالسرطان في قرى الليطاني، لم يجر تشارك هذه الأبحاث أو العثور عليها عبر الإنترنت. وعلى الرغم من كون السرطان نتيجة واضحة للتلوث، امتنع العديد من المجيبين/ات عن ذكر المرض.

٤٢. Wutich, Brewis and Tsai 2020, Noubani, et al. 2020 Hessel 2008
وتتسبب المخاطر الصحية للتلوث وعدم الحصول على المياه النظيفة والطعام في ازدياد مخاوف النساء وعدم قدرتهنَّ على تلبية تطلعاتهنَّ نحو حياة أفضل. بالتالي، فإنَّ المساهمة في مسائل الصحة النفسية غير المعالَجة في مجتمعات البقاع، تشمل التعرض للحرب والعنف، والقيود الاجتماعية والاقتصادية، وعدم المساواة الاجتماعية (للنساء) والأنظمة الاجتماعية الأبوية (Noubani, et al. 2020).

تقلق الأمهات باستمرار من الأمور غير المرئية كافّة التي تضر بأسرهنَّ؛ فالنساء السوريات مهووسات بعدم اقتراب أطفالهنَّ من النهر منذ غَرَق طفلين يبلغان ١٠ سنوات قبل عامين. النساء خائفات ولكن في كثير من الأحيان يعبّرن عن اعتيادهنَّ هذا الإحساس، حيث أصبح التعامل مع النهر والموت جزءًا من الحياة اليومية.[٤٣]

عبء اقتصادي

لا يزال العبء الاقتصادي يزداد سوءًا لاسيما نظرًا إلى الأزمة الاقتصادية.[٤٤] تشتكي النساء من سعر الدواء، إذ قالت إلهام الّتي تعاني مِن صداع شديد بسبب رائحة النّهر، وهي سيدة سورية من حوش الرافقة، إنَّ علبة بانادول أصبحت تساوي الآن يومين كاملين من العمل اليومي، وتتجادل هي وصديقاتها حول سعر الدواء ليستقر سعر العلبة أخيرًا على ٣٧٠٠٠ ليرة لبنانية. وتعبّر هلا (بر الياس) التي مات أشقاؤها بسبب مرض السرطان عن عزائها، فهي أيضًا كانت تشتكي من أسعار الأدوية.

"كله كتير غالي. كله دَوبل أو تربل. باخذ هلق دواء أعصاب... من يوم اللي توفّت أختي وخيِّ وخيِّ التاني توفوا... هلق بطبقوا التلات سنين من وقت أختي... يعني صرت آخد كمان هلق دواء أعصاب، كنّا نجيبو ب ١٨,٠٠٠ وهلق صار ما فوق الخمسين، بال١٠٠،٠٠٠ صار... البندول، كنا نجيبو ب ٢,٠٠٠، وهلق صار ب٥٤,٠٠٠. طب هيدي البندول، شو بدّك تخلّي لدوا أعصاب ودوا هورمون... الحمدلله خلصنا منو هيدا".
– هالة، بر الياس

أصبحت زيارة الطبيب مكلفة للغاية، حيث تشمل الزيارة أيضًا تكلفة النقل التي باتت "مُدَوْلرة".[٤٥]

هلا، وهي أم وحيدة لطفلين تحتاج إلى زيارة طبيبها في بيروت، لكنها تتجنب الرحلة منذ عام الآن، أوّلًا بسبب النفقات المرتبطة بالرحلة، وثانيًا بسبب الخوف من الإصابة بفيروس كورونا والاضطرار إلى التعامل مع العواقب المالية لذلك. تستمر تكلفة الدواء في الزيادة. إلى ذلك، أدى فشل الحكومة في تغطية تكلفة أدوية السرطان وعلاجه إلى ازدياد صعوبة طلب العلاج مِن قبل المرضى أو الحصول عليه.

---

٤٣. نشرت مدونة نمس في العام ٢٠٢٠ قصة مصورة بعنوان "الموّيتة" ما معناه "محركها للموت"، حيث كان لدى الشخصية الرّئيسة في القصة، بتول، وميض من الفكر المقلقة حول الثورة وحقوقها وعائلتها والسياسة المشرقية عندما تلتقي أحد المتعهدين في الليطاني الذي يعدَها بنهر جديد نظيف بحلول الظهيرة. تندفع بتول إلى شراء ملابس السباحة، وتتعدّد الوفيات التي شهدتها، حيث مات والدها ووالدتها وشقيقها وابنها بسبب النهر. ترتدي ملابس السباحة وعليها علامة تحذير سامة، ويسيل لعابها من فكرة السباحة في النهر. تقف بتول إلى جانب النهر بينما يقوم المقاول بفتح قنوات المياه السميكة. وبينما تتدفق الأوحال الخضراء في مجرى النهر، تصرخ بتول "سأموت لأسبح في النهر!" وتقفز وتموت.
https://www.instagram.com/p/CAXr9gNKwFr/?utm_source=ig_web_copy_link

٤٤. تكافح النساء في البقاع من أجل الحصول على العلاج الطبي (Maria Gabriella Trovato 2021)، وغالبًا ما تتسبب ديناميكيات النوع الاجتماعي في المجتمعات السورية في إعطاء الأولوية لصحة الرجال وحصولهم على الأدوية على حساب النساء (Shadi, et al. 2021).

٤٥. غالبًا ما ينتقل المرضى الذين يحتاجون إلى استشفاء إلى بيروت، إذ إنَّ المراكز في البقاع تفتقر إلى الخدمة الملائمة كما أنها لا تحظى بالثقة (Nadine, et al. 2021).

"النهر يؤثّر على الجميع!" لكن على بعضهم أكثر من بعضهم الآخَر...

بينما يحمل الهواء الرائحة الكريهة وتحمل المياه الملوثات البرازية والكيميائية مباشرة إلى المنازل أو من خلال الخضار، تردد صدى النساء: "النهر يؤثّر على الجميع". قالت نساء عديدات إنَّ تلوث نهر الليطاني ينتشر عبر البلاد، حيث تنتقل الخضار و"المونة" إلى ما وراء حدود النهر. تحتوي الخضار على ملوثات كيميائية مثل الزرنيخ والرصاص وغيرهما، والملوثات الميكروبيولوجية مثل إي كولاي والسودوموناس وغيرهما... وبعضها مقاوم للمضادات الحيوية.[٤٦] لا أحد في لبنان بمنأى عن ابتلاع تلوث الليطاني.

ولكنَّ الرائحة والهواء يشكّلان تجربة حصرية لأولئك الذين/اللّواتي يعيشون/يعشنَ في جوار المياه. وحسب النساء، فإنَّ المجتمعات التي تأثّرت صحتها بشكل مباشر، وفي أغلب الأحيان وبشدة، هي المجتمعات التي تعيش بالقرب من النهر، لاسيما المجتمعات السورية التي تعيش في المخيمات على ضفاف النهر، والمجتمعات اللبنانية التي تطل واجهات منازلها مباشرة على نهر الليطاني. كما تتأثر بشكل كبير الفئات الأضعف مثل الأطفال، والحوامل، وكبار السن، حيث إنَّ مناعتهم ضعيفة وقدرتهم على التعافي من المرض معرضة للخطر. تشارك معلمة مدرسة في حوش الرافقة قلقها بشأن كبار السن الذين تكون صحتهم أصلًا في حالة حرجة، فتتدهور حالتهم الصحية بسهولة عند الإصابة بفيروس أو ببكتيريا.

"انتي بتعرفي بلدنا، ببلدنا الي معه بيتعالج والي ما معه بموت ببيته" – هالة، بر الياس

تقول نساء الليطاني، لاسيما في بر الياس وَحوش الرافقة وَحوش الحريمة، إنهنَّ ضحايا معاملة غير عادلة وإهمال من قبل الحكومة. وتقارن النساء ظروفهنَّ المعيشية بالمجموعات المحلية التي تعيش في زحلة، عاصمة البقاع الأوسط الغنية. وفقًا لسيلين من سكان زحلة، لا تصل الرائحة أبدًا إلى هناك، وحدود النهر مسيجة في معظم الأماكن، ويجري إصلاح مشكلات الوصول إلى المياه والتلوث بسرعة. أمَّا في بر الياس، فقد نُقِلَتْ الامتحانات الرسمية التي كان من المقرر إجراؤها في المدرسة المحلية إلى أخرى حتى لا يتعرض التّلاميذ من قرى وبلدات أخرى مثل زحلة للرائحة. تطل هذه المدرسة العامة على النهر، وتستضيف تلاميذ بر الياس الذين يتنفسون رائحة النهر بشكل يومي. في القرعون، تعبّر النساء عن الظلم الذي يتعرضن له، فهنّ على نهاية خط النهر حيث تُنقل الأوساخ كافّة من أماكن أخرى لتتراكم في بحيرتهنَّ.

٤٦. Madi 2012

قصص التأقلم: ضبط آلة مكسورة

من أجل تنظيف المياه والطعام...

اتخذت نساء الليطاني تدابير للحد من تعرضهنَّ للملوثات. ومن أجل تنظيف المياه الملوثة، تغليها النساء في المخيمات على الحطب، خاصة إذا رغبنَ في تحميم طفل رضيع أو إعطائه الحليب. تُباع الخضار الملوثة حول نهر الليطاني وعبر لبنان، لكن تحاول المجتمعات المحلية تجنبها، كما النّساء، إذا كان بإمكانهنَّ تحمّل تكاليف التنقل لشراء الخضار أو لزراعة الخضروات بأنفسهنَّ. تعطي نساء حوش الحريمة قائمة بمواقع الأسواق التي يتجنّبنها لشراء الخضار، وهي تشمل قب الياس، وتعنايل، والمرج، والحوش، ومكسة، وجديتا، والمنصورة. بدلًا من ذلك، يذهبن إلى أراضي السهل الزراعية ويقطفن الخضار بأنفسهنّ من الدفيئات. وكما أوضحن لي، يمكنهنَّ التعرّف إلى رائحة الخضروات الملوثة وملمسها؛ إذ عندما يُروى البقدونس والجرجير والأوراق الخضراء الأخرى من مياه الصرف الصحي، تبدو ضعيفة ورائحتها مثل العفونة، ويكون الباذنجان طريًا جدًا وقذرًا. تعرفَ النساء ما إذا تمّ حصاد البطاطس من موقع الليطاني إذا كان حجمها "كبيرًا جدًا". كذلك، تنظّف كثيراتٌ منهنَّ الخضار جيّدًا بالخل والملح، ويتركن اللحوم لتنضج جيّدًا؛ فعلى سبيل المثال، إنّ ميّادة من حوش الرافقة التي تتخذ إجراءات إضافية دائمًا، تغلي الدجاج مرّتين قبل إضافته إلى الوجبة.

وعلى الرّغم من هذه المعرفة المكتسبة، تدرك النساء أنَّ لا يمكنهنَّ أن يثقن دائمًا بالمصادر، وأنهنّ دائمًا معرَّضات لخطر شراء طعام من شأنه أن يضرّهنَّ. وفي الواقع، بينما يمكن احتواء معظم البكتيريا والفيروسات والفطريات من خلال الغسيل أو الطّهو في درجة حرارة عالية، فإنَّ مثل هذه الممارسات لا يمكن أن تحمي من تلوث المعادن الثقيلة.[٤٧]

التعويض عن الحق في الطبيعة

تُنشئ نساء كثيرات حول الليطاني نسختهنَّ الخاصة من أرض غنية بالطبيعة، مع أنّهنَّ يعشن في بيئة محرومة من الطبيعة. يحمينَ المساحات الصغيرة التي يسيطرن عليها وينسّقنها، ويزرعن الأشجار، ويقمن بالتزيين بأواني الزهور. تخبرنا هدى من بر الياس عن شرفتها الخضراء التي تثير غيرة الآخرين/الأخريات، وكيف وجدت العائلة والأصدقاء ملاذًا حيث يتجمعون في هذه المساحة الخضراء. وتعتني هدى بمئة وعاء من النباتات والزهور الداخلية في حديقتها. أمّا بشرى التي تعيش في مخيم حوش الرافقة منذ عامين فأنشأت حاجزًا أخضر لشرفة منزلها، وطلبت من زوجها بناء ردهة طويلة ملأتها بالنباتات المزيّنة والمفيدة. "هذه هي المكنسة المثالية!" تقول لنا وهي تشير إلى الخيزران الأخضر الذي تقصه وتجففه وتجمعه لاستخدامه كأداة تنظيف.

---

٤٧. تتراكم المعادن الثقيلة بيولوجيًا في الخضار، وتتضخم بيولوجيًا في جسم الحيوانات والإنسان أيضًا (Madi 2012; Maatawi 2021). والملوثات مثل الحديد والرصاص والزنك التي يتم تناولها من خلال الطعام تبقى في جسم الإنسان وتزداد فيه، لإحداث آثار صحية ضارّة طويلة الأجل.

طب الأعشاب

"الخبيزة بتنحط كفوطة، بتشيل الألم" – امرأة من عشيرة الخضر، حوش الحريمة

من أجل التخفيف من عبء النفقات، تبذل النساء كلّ ما في وسعهنّ لخفض التكلفة الطبية. وللتكيف مع الزيادة الحالية في الأسعار، تحلّ النباتات الطبية محلّ الأدوية. وفي حوش الرافقة، يلجأن إلى أكبر النساء في المخيم للحصول على المشورة. على سبيل المثال، طلبت هؤلاء النساء من إلهام استبدال مراهم الطفح الجلدي وأقراصه والحبوب بالخبيزة، على أن تغليها وتشرب كوبًا منها، وتستخدم منشفة مبللة بالخليط وتدهنها على الطفح الجلدي. "الخبيزة" هي سليقة تُقطف من كروم العنب والسهول، وتخدم أغراضًا متعددة، ويقال أنّها تعمل كمضاد حيوي، كما أنها تخفف الالتهاب. يشربها بعضهم في حالات المرض، ويستخدمها آخرون للغرغرة بها إذا كان لديهم خراج في أفواههم. وتستعمل النساء أيضًا شاي النعناع والبقدونس للتخلص من تقلصات الدورة الشهرية. "إنهما أفضل من الدواء!" تقول كاملة، فيما توافقها مجموعة النساء على رأيها. ولتخفيف أعراض الإنفلونزا، يُوصف شاي "الزعتر" للتّقليل من آلام الصدر، ويُنقص النعناع وشاي البرتقال من احتقان الأنف، ويُعطى النعناع بالكمون لمعالَجة آلام المعدة.

تعطي المعرفة بالأدوية العشبية دورًا اجتماعيًّا مهمًّا للنساء المسنات اللواتي يقدّمن النصائح الأساسية للتخفيف من الألم. ولكنَّ الأمراض الناجمة عن البكتيريا والفيروسات التي طورت مقاومة للأدوية ومرض السرطان لا يمكن علاجها بالطّرائق التقليدية؛ فالمعارف التقليدية، على الرّغم من رومانسيتها، لا يمكن أن تحلّ مكان نظام الرعاية الصحية والوصول إلى الأدوية والأطباء.

توعية وتحرُّكات ومفهوم المسؤولية

من هم الملوثون؟

يحتوي مجرى النهر على جميع النفايات السائلة والصلبة الممكنة في البقاع. تتدرج أسباب تلوث الأنهار في أربع فئات: مياه الصرف الصحي، والنفايات الصناعية، والنفايات الصلبة، والجريان السطحي الزراعي.[٤٨] النساء على دراية بمصادر التلوث، بخاصّة مياه الصرف الصحي والنفايات الصناعية والمخلفات الصلبة، بينما لم يتم تحديد الجريان السطحي الزراعي كمصدر تهديد.[٤٩] ووفقًا للنساء اللّواتي قابلتهنَّ، عادةً ما يتمّ التخلص من مياه الصرف الصحي لكلّ قرية عند نهاية النهر الموجود فيها، حيث تبدأ عادةً حدود القرية الأخرى، ما يخلق سلسلة من مياه صرف صحي تتدفق بكثافة وببطء شديد خلال موسم الجفاف في النهر وفي قنوات مياه الأمطار البلدية. يحتوي تصريف المياه المستعملة على مياه الصرف الصحي الخام أو غير المعالجة التي تأتي من الشبكات البلدية، وبدرجة أقل ومنذ وقت قريب، من مخيمات اللاجئين. كما أنَّ القطاعات الصناعية التي تستخدم أخلاطًا كيميائية خطيرة

٤٨. Sherif and Fadi 2013

٤٩. الوعي قليل حول تأثير الممارسات الزراعية السيئة مثل الاستخدام المفرط لمبيدات الآفات والأسمدة، وكما ذكرنا سابقًا، يُنظر إلى المزارعين على أنهم ضحايا التلوث.

لصناعة منتج أو لاستعمالها كمنظفات، تتخلّص من نفاياتها السائلة في النهر.[٥٠] وفي حين أنَّ العديد من القطاعات الصناعيّة تفعل ذلك، ذكر بالاسم مرارًا وتكرارًا أهل المجتمع المحلي، لاسيما أولئك الذين يعيشون في حوش الرافقة، أنَّ أكبر ملوث صناعي في المنطقة هو Liban Lait "ليبان ليه". ووفقًا لضحى، "كان الأمر أكبر من أن يجري التعامل معه من قبل أفراد هذه البلدة فقط، فقد وصلت الأمور إلى دعاوى قضائية أرادت إغلاق هذه الصناعة الملوثة للغاية". وتأتي النفايات الصلبة التي تُلقى مباشرة في النهر من المراكز الطبية والمستشفيات والمسالخ والمطاعم والصناعات، ما يخلق مزيجًا من الأشياء التي تطفو على مياه النهر، ويؤدّي إلى انسداد البنية التحتية. تشير السيدات أيضًا إلى ذلك، بقولهن: "إنها قذرة، فالقمامة تتراكم على طول الطريق من عنجر إلى هنا [حوش الحريمة]". وبحسب الخبيرة سارة ضيا: "تغرق النفايات في قاع النهر والبحيرة، وبما أنَّ تحللها يتطلب سنوات، فهي ستبقى حتمًا مصدرًا دائمًا للتلوث".[٥١]

يلوم أفراد المجتمع المحلي الحكومة على تشجيعها البلديات على التخلص من مياه الصرف الصحي في النهر. تقول النساء إنَّ هناك طرائقَ صحية يمكن تبنّيها بسهولة، مثل الاعتماد على الطريقة البسيطة لخزانات الصرف الصحي، أو محاولة ربط الشبكات بمرافق معالجة المياه التشغيلية. من ناحية أخرى، إنَّ مرافق معالجة مياه الصرف الصحي مكلفة للتشغيل وتتطلب نفقات وقود عالية، ما يترك المجتمع المحلي والخبراء متشككين في قدرة الصناعات والبلديات واستعدادهما لتشغيلها بشكل صحيح، خصوصًا في هذه الظروف الاقتصادية. ينطبق هذا بشكل كبير على حالة الشركات الخاصة التي ستوقف وحدات المعالجة الخاصة بها لتقليل تكاليف الإنتاج وزيادة مكاسبها، وفقًا لخبير المياه الذي عمل على موضوع تلوث القرعون.[٥٢]

وكلّما سُئلت النساء عمَّا يتم فعله بشأن التلوث، يقلن: "لقد سرقوا الأموال". في حوش الرافقة، يقع حل التلوث حاليًا أمام أعين المجتمع المحلي؛ فأفراده يرونَ/يرينَ بشكل يومي صوامع شبكة الصرف الصحي الطويلة التي وضعها مجلس الإنماء والإعمار، وهو الكيان المسؤول عن معظم أعمال البنية التحتية في لبنان وصيانتها، بجوار النهر منذ العام ٢٠٢٠.[٥٣] ذكرت النساء في القرعون أنّ الأموال لا تُخصَّص بشكل

٥٠. روت كوثر القصة الجميلة عن نساء بحيرة في اليابان: كانت البحيرة كبيرة جدًا لدرجة أنَّ المجتمعات المحلية اعتقدت أنها ستجدد نفسها. وكان يجري التخلص من المياه السوداء والمياه الرمادية، وعندما أصبح التلوث واضحًا للمجتمع، وجدت إحدى النساء أنَّ هناك مصنعًا للمنظفات كان يستخدم الفوسفور ويرميه في المياه. حشدت هذه السيدة النساء الأخريات اللواتي بدأن في صنع الصابون الخالي من الفوسفور. وعندما أصبح المجتمع مكتفيًا ذاتيًا، بدأ المصنع يخسر المال.

٥١. وفقًا لسارة، يقال أنَّ البحيرة أصبحت شديدة التخثر، ما يعني أنّ الكميات الزائدة من التلوث قد ساهمت فيبروز كميات وفيرة من العناصر الغذائية للطحالب للنمو إلى ما لا نهاية على السطح.

٥٢. كما صرّح أعضاء المجتمع المحلي والخبراء.

٥٣. في العام ٢٠١٩، وجهت مصلحة نهر الليطاني رسالة إلى مجلس الإنماء والإعمار تفيد بأنه لا يلتزم بالقانون ٦٣ الذي يطالب بإنجاز المشاريع المتعلقة بالشبكات ومحطات المعالجة في مهلة ٧ سنوات من صدور القانون (Holtmeier 2019).

صحيح، وأنَّ مشاريع عديدة لا تتعاطى مع المشكلة نفسها بل تُطبَّق في حوض الليطاني السفلي.[٥٤] ذُكر الفساد على جميع المستويات باعتباره العامل الأهم في تسبيب التلوث، ولم يتم وضع الحلول بعد.

تؤدّي الأزمة الوطنية الحالية إلى تفاقم التلوث وضياع جهود التخفيف السابقة. وبينما كانت مصلحة نهر الليطاني تمكّن البلديات وتطبّق سلطتها لمعاقبة الملوثين، فإنّ الافتقار إلى الميزانية لدفع تكاليف الموارد البشرية يهدّد قدرتها على الإشراف، حيث يعاني المسؤولون والعاملون الميدانيون من نقص في عدد الموظفين والأجور، ما يمنحهم القليل من الحوافز لإنجاز أعمالهم بشكل صحيح.[٥٥] إنّ حملة إنفاذ القانون التي تطبقها مصلحة نهر الليطاني منذ العام ٢٠١٩ معرضة لخطر التراجع.[٥٦] ومع زيادة الطلب على المنتوجات المحلية، تعيد الصناعات الصغيرة العمل من دون الانتباه لنفاياتها. هذه الصناعات الصغيرة إمّا ترمي نفاياتها مباشرة في النهر وإمّا تُوجّه مياهها الصناعية إلى محطات المعالجة البلدية، ما يعطّل عملها، لأنها لا تملك التكنولوجيا المناسبة لمعالجة النفايات الكيميائية.

"بظن أنه رجعوا يفتحوا بعد ما بلشت الأزمة، لأن صار كتير في ضغط على الصناعة المحلية. بس هون السؤال، هلأ بعدهم عم بطبقوا النظام يلّي بلّش يتطبق، أو إن خلص لأن البلد خربان بطل حدا سئلان، ويلي بيحكي بهيك موضوع بدهم يقولوله 'شو باك جاي هلأ عم تتفلسف وهو في اشياء أهم'"
– سارة ضيا (٢٨)، خبيرة مياه

تُحمّل النساء مَن هم في السلطة مسؤولية التلوث، إذ تَسبّب إهمالهم وجشعهم وفسادهم في الموت والحزن. ووفقًا لهؤلاء النساء، فإنّ أي شخص يشغل منصبًا في السلطة هو المسؤول: الحكومة، والأحزاب السياسية، ورؤساء البلديات، ومصلحة الليطاني، وأصحاب الصناعات. وبما أنّ الدولة مركزية للغاية، فإنّ المناطق المهمّشة مثل البقاع غير معترف بها في خطط التنمية الحكومية. لقد تحدثت النساء معي باسم "أنتم" أو "هم"، بالإشارة إلى بيروت وجبل لبنان على أنهما "هناك، من حيث تأتين"، وقارنَّ بلداتهنّ المنسية والمدمّرة بمدني وضيعي "التي تُدار بشكل جيّد". ذكرت نساء في برّ الياس أنّ بلديات ووزراء متعاقبين يتستّران على الملوثين ويقدّمان حلولًا مضللة تعود عليهما بالربح.[٥٧]

٥٤. بدأ العمل في مسألة مكافحة التلوث في حوض الليطاني السفلي منذ مرحلة التخطيط في العام ٢٠٢٠ (ELARD 2020). وحسب أحد خبراء المياه، من الأسهل معالجة التلوث بعد عبور المياه بحيرة القرعون ومحطة الطاقة الكهرومائية، خاصة أنّ شبكات الصرف الصحي في الحوض السفلي تدار بشكل أفضل.

٥٥. تواصل شخصي مع خبير مياه.

٥٦. أجبرت مصلحة نهر الليطاني في السابق صناعات كبيرة على تشغيل محطات معالجة خاصة بها، كما منعت صناعات صغيرة ومتوسطة الحجم من رمي النفايات في النهر، ما أجبر الكثيرين على إغلاق أعمالهم. يمكن تتبع قصص إنجازات مصلحة نهر الليطاني من خلال حسابها على تويتر.

٥٧. في احدى مدن الليطاني، يقال أنَّ رئيس البلدية يستفيد من الملوثين، لاسيما من خلال الرشاوى. بينما بالمعنى الأعم، تُقدَّم الأموال لمكافحة التلوث إلى الوكالات المتهمة بسوء إدارة الصناديق الوطنية مثل مجلس الإنماء والإعمار.

الحشد ودور النساء

ترى النساء أنّ الوعي والتثقيف هما أهم عوامل الحماية من الضرر الناجم عن التلوث والتّحفيز نحو التغيير. تناقش النساء التلوث مع بعضهنّ بعضًا، لاسيما خلال الزيارات الصباحية، ثم يتحدّثن عن الموضوع في منازلهنّ. هذا ينطبق بشكل خاص على الأمهات اللواتي يعلّمن أطفالهنّ كيفية التكيف مع ظروفهم المعيشية. ويعوّض التعليم المنزلي نقص التربية البيئية في المدارس الرسمية. ووفقًا للنساء، فإنّ الرعاية والشعور بالمسؤولية يدفعان إلى نشر الوعي.

النساء اللواتي التقيتهنّ ويشغلن مناصب مهنية، يركّزن مواردهنّ لتحديد الأولويات، ويعملن كوسيطات وهمزة وصل؛ "الرَّيِّسة" نينا من باب مارع، وهي كانت قد وصلت إلى منصب رئيسة البلدية حيث عينتها الأطراف المتعارضة لإيجاد أرضية مشتركة، أدركت أنّ الحصول على المياه النظيفة شاغل مُلحّ، وحافظت على نبع مياه القرية. وكانت سارة تؤدّي دور الوساطة وتشارك المعرفة بين شركة خاصة ومؤسسة عامة (مصلحة الليطاني) والأوساط الأكاديمية (الجامعة الأميركية في بيروت) قبل الانتقال إلى مشاركتها الشباب في مسائل المياه مع موقع "حلول المياه" (Waterlution).[٥٨] أمّا كوثر التي عملت مع منظمة محلية كانت تتعاقد مع مزودي المياه لمخيمات اللاجئين، فطورت آلية يدوية لمراقبة المياه يمكن للمقاولين استخدامها، وتكفلت بزيادة الوعي لدى مجتمع اللاجئين بمعرفة مسائل جودة المياه.

أفضت المناقشات إلى تسجيل ثلاث محاوَلات رئيسة للتّحرُّك. في العام ٢٠١٧، كانت احتجاجات بر الياس أولى المحاولات المجتمعية المسجلة ضد التلوث. في ذلك العام، ماتت فتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا تُدعى "أسماء" بسبب مرض السرطان، ما هزّ المجتمع المحلي الذي كان يمرّ أصلًا بسلسلة من الجنازات وأخبار الإصابة بالسرطان. واحتجّ تلاميذ المدارس تحت شعار "نداء طفل"، بينما حاول النّاشطون ردم النهر وقنوات المياه التي تعبر بر الياس. وحسب النساء، فإنَّ أهالي بر الياس وَحوش الرافقة هم الوحيدون الذين تحدثوا في ذلك العام واحتجّوا، بل وأغلقوا طرقًا منها طريق بيروت – دمشق الدولي السريع. لاحقًا في بداية العام ٢٠١٩، أصبحت الاحتجاجات في حوش الرافقة اعتيادية، ومع كل حالة وفاة بالسرطان، كان الناس ينزلون إلى الشوارع. شاركت النساء في احتجاجات حوش الرافقة عندما كانت الحشود كبيرة. ووفقًا لهنَّ، كنّ يشعرن براحة أكبر في الحضور مع عائلاتهنّ. وقبل شهرين من ثورة ١٧ أكتوبر، أغلق ناشطون وناشطات في القرعون قنوات الري التي كانت تنقل رائحة الصرف الصحي والنفايات الصناعية.

وقد أفادت النساء أنَّ خلال ذلك الوقت وحتى الآن، كانت مصلحة الليطاني بقيادة سامي علوية تدعم المجتمع المحلي وأثبتت أنها نشيطة قانونيًا، لاسيما من خلال التواصل الإعلامي. وبينما استمرت أعمال المصلحة، تجاوزت ثورة أكتوبر ٢٠١٩ الاحتجاجات وجهود التّحرُّكات. جلبت ثورة ٢٠١٩ الأمل للنساء اللواتي قلن إنّ الشباب والشّابّات أصبحوا/نَ متحمسين/ات للعمل والدفاع عن حقوقهم/نَّ المدنية.[٥٩]

---

٥٨. https://waterlution.org/

٥٩. في حوش الرافقة، الحزبان الأساسيان، أمل وحزب الله، أعربا شفهيًا عن دعمهما الاحتجاجات في العام ٢٠١٩، ثم قمعاها عندما بدأت ثورة أكتوبر ٢٠١٩ حتى لا ترتبط بها.

أشارت النساء اللواتي شاركن في الاحتجاجات إلى أنّهنّ أدّين دورًا مهمًّا في الثورة، حيث شجّعن أولادهنّ خصوصًا البنات على المشاركة، "فلقد شارك جميع أفراد الأسر". وقيل أنَّ الاحتجاجات سلطت الضوء على مسائل بيئية رئيسة في لبنان، من بينها تلوث نهر الليطاني.

"وقتها حسيت بغضب وقوة، بتحسّي إنه مين ما كان قدامك عنجد فيكي تقتليه. انه نحن وعم نموت بس اطلعوا فينا حسّو فينا، اعملوا شي" – موادة، حوش الرافقة

ووفقًا للنساء، كان الذين قادوا التظاهرات "المتعلمين والأشخاص الذين يستطيعون فعل شيء ما"، وقد تمت الإشارة إلى هذا بشكل خاص في بر الياس وَحوش الرافقة. كانت الاحتجاجات في الواقع شاملة للنساء من العائلات ذات الامتيازات، والنساء اللواتي كان شركاؤهنّ يتحدثون بصوت عالٍ ومدوٍّ في الاحتجاجات. إلّا أنّ ذلك لم يشمل الكثيرات ممّن شعرن بأنّ احتجاجات الأهالي لا تعنيهنّ؛ فندى وابنتها ناتالي كانتا تعيشان في بيروت، زوج ندى في الجيش وغائب في الغالب، وقالتا إنهما لم تتأقلما مع العيش في القرية بعد، لذلك، لا تتدخلان ولا تعرفان في معظم الأوقات إذا حدث أي شيء جماعي. كذلك، لم تشارك نساء العشيرة في حوش الحريمة والنساء في المخيمات السورية في أي جهد متعلّق بالتّحرُّكات؛ فرجال العشائر لا يسمحون بذلك، ويشعر السوريون بالتهميش الكامل عن الحوار. شعرت النساء المحرومات مثل نساء عشائر حوش الحريمة واللاجئات السوريات اللواتي صودف أنهنّ غير قادرات اجتماعيًا وماليًا على تبنّي بدائل مستدامة للتلوث، بأنهنّ مستبعدات من الاحتجاجات. فتقول إلهام، وهي سيدة سورية ذات الـ٢١ سنة، وتسكن في حوش الرافقة: "بيعتبرونا غرب ما فينا نشارك [بالاحتجاجات]."

خلال هذه الفترة من التّحرُّكات المحلية والوطنية، شعرت النساء بالقوة لأنّ البيئة العامة منحتهنّ فرصة لتشارُك حزنهنّ وغضبهنّ علانية. كانت وسائل التواصل الاجتماعي أداة قوية تستخدمها النساء لنشر محتوى ثوري بحرّيّة ولرفع مستوى الوعي حول تلوث الليطاني، وكان هذا صحيحًا بشكل خاص بالنّسبة إلى اللّواتي لم يتمكنّ من حضور الاحتجاجات شخصيًّا مثل ربات البيوت مع أطفال صغار. كانت النساء أيضًا في طليعة المنافذ الإخبارية التي تروي قصصًا من واقع الحياة، لأنهنّ معرضات لتهديد أقل من الرجال من قِبَل الروابط السياسية والاجتماعية.[٦٠] "عندما أردن طرح الأسئلة في منزل يوجد فيه مريض بالسرطان، كانَت المرأة دائمًا هي التي تُجيب عنها، فالرجل لا يريد أن يظهر على شاشة التلفزيون أو حتى لا يريد التحدث". – كارْمى، بر الياس

وحسب النساء، كانت جهود المحتجّين/ات المحلية غير متسقة. ووفقًا لسهيلة من حوش الرافقة، كانت التحركات تعتمد على رغبة الأحزاب السياسية. كرر/ت الكثيرون/ات ذلك الآن. "لا أحد يفعل أي شيء في الواقع" لتلبية احتياجات المجتمع المحلي، ما يخلق حلقة دائمة من اليأس والاستسلام.

---

٦٠. ذكرت سهيلة ونساء أخريات من حوش الحريمة أنَّ الرجال يعملون في المصانع نفسها التي تُسبب التلوث. ومن المحتمل أن يكون الرجال أقرب إلى الأحزاب السياسية التي تسيطر على خطاب المحتجّين.

"بتحسي حالك بدّك تبكي، ليكي رحنا مرتين، كتير كان في عالم وهيك، بس عم أقولك ما طلع شي. اجا وقتها حجازي واجا كاميرات والإعلام حكيوا وقالوا انو حوش الرافقة مضررة أكتر شيء بين كل الضيع عشان السرطان، حطّوا كل شيء عالتلفزيون، بس انتهى امرنا خلصوا ولحدّيت هلق ولا شيء".
– منيرة (٣٣)، حوش الرافقة

الانعكاسات السلبية للتحرك: السمعة والعلاقات الاجتماعية-الاقتصادية

يُعتقد أنَّ الإعلام والناشطين/ات دمّرا سمعة القرى وعطّلا العلاقات الاجتماعية؛ فأهل المجتمع المحلي لا سيما أصحاب الأعمال يلومون الناشطين وليس الملوثين. أسواق الخضار، وأصحاب المناطق الترفيهية بالقرب من البحيرة، والصناعات الصغيرة التي تمكنت مصلحة نهر الليطاني من السيطرة عليها وملاحقتها في العامين الماضيين، انتهى بها/بهم الأمر إلى تهديد الناشطين/ات/ وعائلاتهم/هنّ. كما يُعتقد أنّ مؤيّدي التحركات يدمرون سبل العيش حيث شُوّهَتْ سمعة المزارعين والأسواق التي تبيع الأطعمة الملوثة من قبل وسائل الإعلام، فجرى تجنّبها من المجتمع المحلي.

كما يتم تجنّب تفاصيل أنواع التأثيرات الصحية طويلة المدى مثل مشاكل الصحة الإنجابية والسرطان؛ تجنب العديد من الذين/اللواتي تكلمت معهم/هنّ ذِكر السرطان أو شرحه بالتفصيل، مع أنّ بعضهم/هنّ قد عاش تجارب ذات صلة مع أفراد عائلاته، بينما قال/ت آخرون/أخريات كثيرون/ات إنهم/هنّ شعروا/نَ باليأس حيال ذلك. وينطبق ذلك بشكل خاص على قرية القرعون، حيث تثير البحيرة الجدل، إذْ حتى وقت ليس ببعيد، كان وجودها يُمَجَّد كمصدر للعيش والترفيه. تظل معدلات الإصابة بالسرطان طي الكتمان، وعلى الرّغم من وعي المجتمع الصلة بين السرطان والتلوث، إلّا أنَّ الخطاب الحالي يمحو الارتباط وأعداد الإصابات الكبيرة من الذاكرة الجماعية للمجتمعات. توقّف أفراد المجتمعات المجاورة عن الزواج من قرى قريبة من الليطاني. في الواقع، لقد ذُكرت لي الاختلالات التناسلية والتشوهات الخلقية المنسوبة إلى التلوث في العام ٢٠١٩، ولكن لم تُذكَر أبدًا في هذه المرة.[٦١] وحسب المجتمع المحلي، لم تعد النساء يتزوّجن من رجال من بر الياس وَحوش الرافقة حتى لا يصبحن قريبات من النهر، أو يصبن بالسرطان، أو يتزوجن من شخص مصاب به. يجري الحديث كثيرًا عن العلاقة بين التلوث والموت، في حين أنّ تفاصيل التسلسل غير واضحة في النقاش.

تحاول مجتمعات الليطاني حاليًا التخلص من السمعة السلبية، خاصة بالنظر إلى الاقتصاد المتدهور. لقد كان هذا ناجحًا حتى الآن حيث تقول المجتمعات إنّ كُلًّا من الكوفيد-١٩ والوضع الاقتصادي صرف انتباهها عن الظلم البيئي اليومي والنضال. أدّى فيروس كورونا إلى تسريع وفيات أولئك الذين يعانون من

٦١. يتسبب التلوث البيئي الناجم عن مواد كيميائية عضوية ومعادن ثقيلة في اضطراب أنظمة الغدد الصماء (الهرمونية) في الجسم، ويسبب مشاكل في الصحة الإنجابية، لاسيما عند النساء، ما يؤدي إلى احتمال حدوث تشوهات خلقية (Al Noaimi, et al. 2021; Canipari, De Santis and Cecconi 2020; United States Environmental Protection Agency 2021).

ضعف المناعة والمصابين بالسرطان، كما أنّ الوضع الاقتصادي يجعلهم يضعون أولوياتهم في الاحتياجات الأساسية أكثر من الحق في بيئة نظيفة.

الخلاصة

يشكّل عجز المرء عن أن يكون وأن يتصرف وأن يدافع عن حقه في الحياة تجسيدًا للاضطهاد؛ فعلى مدى سنوات لم تنته، سمح نظام مُهمل وجشع بتسمم الأراضي والنباتات والحيوانات، إلى حد يمتد إلى ما وراء النهر البالغ طوله ١٧٠ مترًا مربَّعًا، ويصل إلى جميع أنحاء لبنان. وتعمل نساء الليطاني، كونهنّ يحافظن على المنازل والأراضي، على التكيّف مع محيطهنَّ والحفاظ عليه، بينما يشعرن بالعجز في مواجهة الإهمال المتعمد. وحسب رأيهنّ، فإنّ المشكلة أكبر من أن تُدار على نطاقها الفعلي، وهناك طبقات متعددة يجب تسويتها، كما شرحت لنا ضحى، فتقول:

"ما حدا بقا قادر يتحمل. [لو كنت بموقع سلطة] أول شيء كنت بكفّي بهذا المشروع، بغيّر الإمدادات وبعمل طريق المجارير لحاله كرمال يبطّل في رواب. كمان بشيل التلوث والرواسب من التراب، بشتغل على المزارعين الذين يعلمون بالتراب وبطريقة تنظيفه وتنظيف الأرض. وبرجع بشتغل بالأرض من أوّل وجديد. كمان بشوف مين عنده أمراض بقدر عالجه، بقدر ساعده".

وكلّ ما يمكن للمرء فعله هو العمل على إصلاح الضرر في أجزاء متقطعة، فيبدأ كل واحد في أرضه، "تمامًا كما نفعل في منازلنا".[٦٢] إنّ قدرة النساء على التكيف وإدارة أنفسهنّ ومشاركة قوتهنّ مع بعضهنّ بعضًا في ظل الظروف الصعبة أكبر ممّا يتخيله المرء. ولمّا شاهدت حماستهنّ لاستضافتي ولمناقشة أمر عزيز للغاية، فقد جرى التخفيف من الحديث الثقيل عن الموت والخسارة، فيما بقي ثقله حاضرًا. تركت النساء اللواتي تحدثتُ إليهنّ ملاحظة مماثلة، فقد كنّ يأملن أن تهزّ قصصهنّ الوضع الراهن من خلال منحهنّ السلطة والقوة للتصرف، ومن خلال دعوة المجتمعات المحلية إلى الاتّحاد، وللضغط على كلّ مَن هو مسؤول عن تشكيل ظروفهنّ المعيشية لتصبح صالحة للعيش.

٦٢. المثير للسخرية أنّ إدارة الملوثات الصناعية والنفايات السائلة يشار إليها رسميًّا باسم "الممارسة الجيدة للتدبير المنزلي" (Good Housekeeping Practices) وهنالك كتيبات رسمية تُرشد إجراءات التحديد والتقييم والإدارة لتقليل التأثير البيئي والآثار الصحية المجتمعية ذات الصلة للعملية الصناعية.
https://www.epa.gov/sites/production/files/2015-11/documents/goodhousekeepingbusiness.pdf

لائحة المراجع

Al Noaimi, G., Yunis, K., El Asmar, K., Abu Salem, F. K., Afif, C., Ghandour, L. A., & R. Dhaini, H. (2021, July 15). Prenatal exposure to criteria air pollutants and associations with congenital anomalies: A Lebanese national study. Environmental Pollution, 117022.

Braun, V., & Clarke, V. (2006). Using thematic analysis in psychology. Qualitative Research in Psychology, 15(3), 77–101.

Canipari, R., De Santis, L., & Cecconi, S. (2020, November 26). Female Fertility and Environmental Pollution. International Journal of Environmental Research and Public Health , 17.

Darwich, T., Shaban, A., & Hamzé, M. (2018). The National Plan for Litani River Remediation. In A. Shaban, & M. Hamzé, The Litani River, Lebanon: An Assessment and Current Challenges (Vol. 85). Beirut: Water Science and Technology Library.

Diane, M., Michele, P., & Giorgio, C. (2017). Domestic water in the Bekaa Valley, Lebanon Demand, access and institutional aspects. Beirut: IIED.

E. Cross, J. (2001). What is Sense of Place? 12th Headwaters Conference, Western State College.

ELARD. (2020). Business Plan for Combating Pollution of the Lower Litani River Basin. Beirut: ELARD, CDR, Litani River Authority.

ESCWA. (2021, September 2021). Multidimensional poverty in Lebanon (2019-2021) - Painful reality and uncertain prospects [EN/AR]. Retrieved November 20, 2021, from https://reliefweb.int/report/lebanon/multidimensional-poverty-lebanon-2019-2021-painful-reality-and-uncertain-prospects

Hessel, F. (2008). Burden of Disease. E. (W. Kirch, Ed.) irch W. (eds) Encyclopedia of Public Health. Springer, Dordrecht.

لائحة المراجع

Holtmeier, L. (2019, May 21). Despite new efforts to tackle pollution in the Litani River, challenges remain. Retrieved December 2, 2021, from Executive Magazine: https://www.executive-magazine.com/special-report/despite-new-efforts-to-tackle-pollution-in-the-litany-river-challenges-remain

Hussein, E. M. (2017, July 13). Bar Elias Litani Pollution, Lebanon. Retrieved November 22, 2021, from Environmental Justice Atlas: https://ejatlas.org/conflict/litani-river-pollution-bar-elias-case

Khair, K., Aker, N., Haddad, F., Jurdi, M., & Hachach, A. (1994). The environmental impacts of humans on groundwater in Lebanon. Water, Air, and Soil Pollution, 79, 37-49.

Litani River Authority. (2021). Lebanese Republic The Litani River Authority. Retrieved November 25, 2021, from http://www.litani.gov.lb/en/?page_id=71

Litani River Authority. (2021). Litani River Authority. Retrieved November 25, 2021, from http://www.litani.gov.lb/en/

M Khatib, J., Baydoun, S., & Elkordi, A. (2018). Water Pollution and Urbanisation Trends in Lebanon: Litani River Basin Case Study: Science and Management. In V. Source, Urban Pollution. Beirut: Vital Source.

Maatawi, S. (2021). حليب الأبقار الطازج كمؤشر على تلوث البيئة المحيطة بالعناصر الثقيلة Sebha University Journal of Pure & Applied Sciences, 20.

Madi, B. (2012). Chemical and microbiological safety of vegetables grown in the upper Litani basin .

Maria Gabriella Trovato, N. A.-A. (2021). Syrian Refugees in Lebanon: Protection amidst Crises. American University of Beirut. Beirut: ADMIGOV .

Mcheik, A., Awad, A., Fadel, A., Mounzer, C., & Nasreddine, S. (2018). Effect of Irrigation Water Quality on the Microbial Contamination of Fresh Vegetables in the Bekaa Valley, Lebanon . American Journal of Agriculture and Forestry, 6(6), 191-197.

لائحة المراجع

Nabil, A., & Safaa, B. (2018). Groundwater Quality in the Upper Litani River Basin. In S. Amin, & H. Mouin, The Litani River, Lebanon: An Assessment and Current Challenges (Vol. 85, pp. 87 - 106). Beirut: Springer.

Nada, N., Chaden, H., Walaa, D., Khaled, T., & Frédéric, V. (2019, January). Assessment of Heavy Metal Pollution in the Sediments of the Lower Litani River Basin, Lebanon.

Nadine, Z., Diaconu, K., Naja, F., El Koussa, M., Loffreda, G., Bou-Orm, I., & Saleh, S. (2021). Dynamics of non-communicable disease prevention, diagnosis and control in Lebanon, a fragile setting. 15(4), 191-197.

Nor, A. (n.d.). The Meaning of Urban River Pollution and Sense of Place: An Ethnographic Study of the Klang River, Malaysia. Conference: XVIII ISA World Congress of Sociology.

Noubani, Karin, D., Lilian, G., Maria, E. K., Giulia, L., & Shadi, S. (2020). A community–based system dynamics approach for understanding factors affecting mental Health and Health seeking behaviors in Beirut and Beqaa regions of Lebanon. Globalization and Health, 16(28).

Pouso, S., Borja, Á., Fleming, L. E., Gómez-Baggethun, E., White, M. P., & Uyarra, M. C. (2021). Contact with blue-green spaces during the COVID-19 pandemic lockdown beneficial for mental health. Science of The Total Environment, 756.

Rima, M., & Hiba, T. (2020). Menstrual Hygiene Management Among Syrian Refugee Women in The Bekaa. Beirut: Oxfam.

Shaban, A., & Hamzé, M. (2020). The Litani River, Lebanon: An Assessment and Current Challenges (Vol. 85). Beirut: Springer Water Science and Technology Library.

Shadi, S., Lina, A., Hani, D., Dana, N., Ranime, H., Zeinab, J., . . . Nour, E. A. (2021). Prevalence of non-communicable diseases and associated medication use among Syrian refugees in Lebanon: an analysis of country-wide data from the Sijilli electronic health records database. Conflict and Health.

لائحة المراجع

Sherif, A., & Fadi, D. (2013). Lebanon Cost Assessment of Water Resources Degradation of the Litani Basin. European Eunion, Sustainable Water: Integrated Management (SWIM) - Support Mechanism. Beirut: European Eunion.

SPNL. (2021, June 3). SPNL Warns: Be aware of cyanobacteria blooms this summer. Retrieved November 30, 2020, from SPNL: https://www.spnl.org/spnl-warns-be-aware-of-cyanobacteria-blooms-this-summer/

Sugiyamaa, T., Carvera, A., Koohsari, M. J., & Veitchd, J. (2018). Advantages of public green spaces in enhancing population health. Landscape and Urban Planning, 12-17.

The World Bank. (2021). Lake Qaraoun Pollution Prevention Project. Retrieved from https://projects.worldbank.org/en/projects-operations/project-detail/P147854?lang=en

Topalian, N. (2017, 10 4). Bekaa residents protest Litani River pollution. Retrieved 10 20, 2021, from Al-Mashareq: https://almashareq.com/en_GB/articles/cnmi_am/features/2017/10/04/feature-01

United States Environmental Protection Agency. (2021). What is Endocrine Disruption? Retrieved from https://www.epa.gov/endocrine-disruption/what-endocrine-disruption#chemicals

Vanaken, G.-J., & Danckaerts, M. (2018, November 27). Impact of Green Space Exposure on Children's and Adolescents' Mental Health: A Systematic Review. International Journal of Environmental Research and Public Health, 15, 2668.

Wutich, A., Brewis, A., & Tsai, A. (2020, May 21). Water and Mental Health. Wiley.

Yasmina, E. A. (2019). A Broader View of the Litani's Pollution Crisis: Mounting Conflicts and Hidden Pitfalls. American University of Beirut, Issam Fares Institute for Public Policy and International Affairs . Beirut: AUB Policy Institute.

Yazbek, H., Fadel, A., & Slim, K. (2019). Facts About The Degradation Of Lake Qaraoun, Lebanon, And Cyanobacterial Harmful Algal Blooms (Habs) . Journal of Environmental Hydrology, 27.

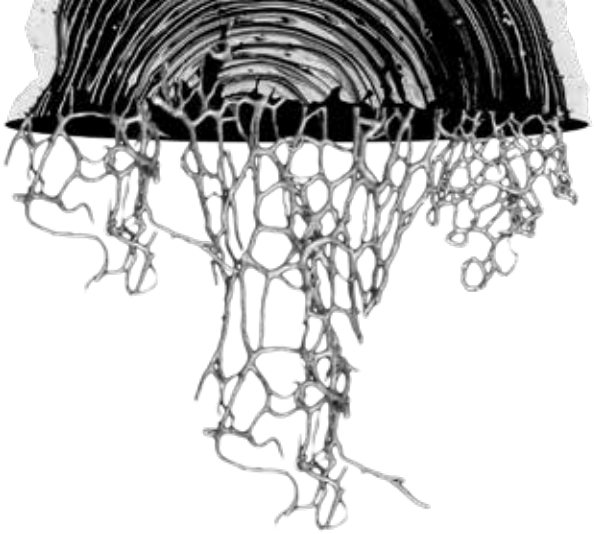

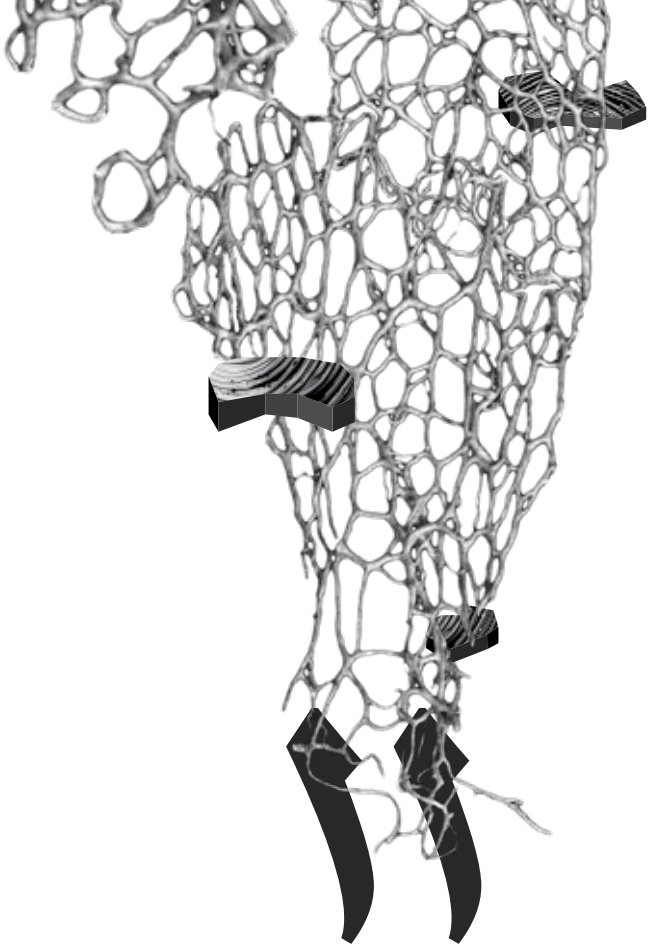

١١

صفاء ط.

من محررات هذا الكتاب وكتاب "تسعينيات نسوية" الصادر في ٢٠٢١. محررة في مشروع ويكي الجندر. مهتمة بالمعرفة النسوية والكويرية باللغة العربية، وكلّ ما يرد في هذا النص من تفاصيل الحياة.

ما تبقّى من بيروت

علاقتي بالمكان علاقة ملتبسة. بيروت، المدينة، أحبها وكأنني لم أعرف مكانًا غيرها. أعيش فيها منذ أكثر من ستة عشر عامًا، عشت قبلها أكثر من ثمانية عشر عامًا في ضيعتي، إلّا أنني لم أعرف مكانًا أكثر منها. لا أدري ما سبب هذا التعلق، ولِمَ أتوق العودةَ إليها دومًا مهما زرت من مدن وقرى.

أحاول فهم هذه العلاقة. بيروت مدينةٌ تختنق بأبنيتها الّتي تزداد ارتفاعًا يومًا بعد يوم، مساحتها العمرانية تكبر طولًا وتشطح عرضًا ومساحاتها العامة تتقلص دقيقةً تلو أخرى. تفتقد المدينة المساحات العامة والخضراء، اجتاحتها المطاعم والمراكز التجارية التي أصبحت ملجأ الناس الوحيد لقضاء الوقت بعدما فقدوا تدريجًا الشاطئ وضفاف نهر بيروت وأجزاء كبيرة من غابة الصنوبر التي كانت ممتدة لعقود على مساحات كبيرة من البربير إلى المزرعة، وقصقص، وبدارو، وفرن الشباك، إضافة إلى الغبيري وحتى ما نعرفه اليوم كطريق المطار، والتي تقلصت لتصبح حرجًا صغيرًا بين الطيونة وقصقص يقابله ميدان سباق الخيل.

أشعر تجاهها بالحب ولكنه، ربما، حب من طرف واحد، حب غير مريح. أعرف كم تظلمني وكم تظلم غيري من أناس يلجأون إليها يوميًّا باحثين عن سبل للحياة. فيها وعيت معنى القهر، وفيها عشت كيف تقمع النساء والهويات الجندرية المختلفة، ولكن فيها أيضًا عرفت التّظاهرات، والانتفاضات، وأشكال الحرية، ومحاولات النضال. وفيها وجدت الأمكنة القليلة التي تحتضننا كأشخاص غير نمطيين/ات وتعطينا الأمان لخلق هويّاتنا أو لإعادة اكتشافها.

أحببت الحياة التي قدمتها لي هذه المدينة. في وجهها الآخر، وجدتُ في بيروت دائمًا شيئًا جديدًا أتعلمه، أشياء جميلة لأشاهدها وأمورًا لأكتشفها.

بعيدًا من بشاعة واجهتها الجديدة، أستطيع أن أجد في أزقتها الخلفية القديمة أبنية جمالها في بساطة بنيتها العمرانية. في بيروت مسارح قليلة، منها ما اختفى ولكن كان في ما تبقّى منها عروض ومحاولات دائمة لأداء نصوص ومسرحيات تستفزّ الواقع وتشاكسه.[١] ورغم أنّ دور السينما الكثيرة فيها تحولت كأسواقها إلى جزء من المولات الضخمة بعروض تجارية متتالية، إلّا أنَّ بعضها حاول إيجاد مساحة مختلفة؛ قدَّمت عروضًا ومهرجانات سينمائية غير تقليدية سمحت لي ولكثيرين/ات مثلي بمشاهدة أفلام ليست الأولى في شبابيك التذاكر، وبتحقيق الأرباح، وبصناعة الإدهاش، ولكنها محاولات للمتعة والاكتشاف. وإن كان ما يتردد في ملاهيها وحاناتها المنتشرة تلك الموسيقى ذات الإيقاع الواحد

١. عندما كنت أكتب هذا النص في تشرين الأوّل ٢٠٢١ توجه الأمن العام اللبناني إلى مسرح المدينة لمنع عرض مسرحي، بحجة عدم عرضه على الرقابة للموافقة. خرجت الممثلات مباشرة، وقدمن مقاطع من المسرحية في الشارع أمام باب المسرح.

السريع المتكرّر، ولكن متى أصغيت قليلًا، سمعت خلف جدران كنائسها ومسارحها وجامعاتها وحانات الأزقة الخلفية ما يدهش من موسيقى بيزنطية وكاثوليكية تقليدية إلى معزوفات كلاسيكية غربية وجاز وطرب شرقي بأصوات أصيلة، وأغانٍ شعبية تشبه أحياءها.

كان يتسنى لي كل يوم أن أحضر فيلمًا جديدًا، أشاهد مسرحية، أستمتع بحفلة موسيقية، أو أشارك في ندوة ثقافية أو في نقاش سياسي. احتمالات لا تنتهي متوافرة لي أنا التي كنت أتوق إلى تعلُّم أشياء جديدة كل يوم؛ هو شغف يجعلني أتذكّر أسباب حبّي للحياة.

ولكنني كنت أبحث في الوقت نفسه عن مساحات لأتنفس. في ساعات ما قبل مغيب الشمس، أذهب متى استطعت لأتمشى من عين المريسة إلى المنارة وأشاهد الشمس والأمواج. وعندما فتحوا حرج بيروت في العام ٢٠١٥ وسمحوا بزيارته بعد إقفال دام سنوات، صرت زائرة دائمة، مرة لأمشي ومرة لأجلس تحت شجرة وأقرأ؛ المهم أنني محاطة بمساحة خضراء.

ثم اكتسبت مع صديق عادة جديدة؛ في نهايات الأسبوع ننطلق في مشوار خارج بيروت. اكتشفت مناطق كثيرة، نزور ضيعًا جميلة، نأكل فيها، نمشي ونكتشف آثارها وطبيعتها. مرة نذهب شمالًا ومرة بقاعًا ومرة جنوبًا. في الصيف نقصد البحر؛ نبحث عن الشواطئ العامة على الساحل. أحاول أن أحفظ البلدات كلها وما يميّز كلًّا منها: في بسكنتا بساتين الكرز والإجاص المحيطة بها، وفي العاقورة جمال بيوتها الموزعة بإتقان ومساحات تجعلك تشعر بالقرب وتترك لك المجال لتتنفس في آن، وفي كفرحلدا الطريق الترابي بين الأشجار الذي يوصلك إلى الشلال، وفي دير القمر طرقاتها الداخلية حيث لا تدخل السيارات، وفي حدث الجبة تراثها في قلب طبيعتها حيث تمشي بين التلال لترى ناووسًا هنا ومغارة كانت مسكونة هناك، وفي معاصر الشوف أحياؤها، وفي شبعا التلال والوديان المحيطة بالطريق للدخول إليها، وفي حاصبيا نهرها، وفي فقرا جسرها الصخري، وفي الناقورة فضاءاتها المفتوحة الواسعة والممتدة، وفي المتين ساحتها، وفي بكاسين موقعها في كعب وادٍ تحيط به غابات الصنوبر.

أحاول أن أحتفظ في رأسي بصورة الطريق إلى كل منها. نمرّ بضيعة لا نعرفها، بينما نقصد ضيعة أخرى مشهورة ونُدهَش بروعتها فنتوقف فيها ونغير مسار يومنا.

وكان هذا كله قبل الأزمة الاقتصادية، وقبل انتشار كورونا وانهيار البلاد. في السنتين السابقتين، انكمشت الحياة، ولم تعد كما عرفتها.

لم يكن الحجْر الذي فُرض عليّ في شقة في بيروت فترة سيئة بالمطلق. استطعت أن أعمل من المنزل، قرأت الكثير من الكتب التي كانت تنتظر على الرفوف، شاهدت الأفلام على كمبيوتري المحمول، واستمعت إلى الموسيقى من سبيكر أهداني إياه صاحبي.

افتقدت فقط الخروج إلى الطبيعة، للمشي في جبل أو وادٍ. افتقدت السباحة في البحر. افتقدت السفر وزيارة أماكن جديدة في هذه الأرض.

حياة بيروت الصاخبة، المقاهي والمطاعم، ومهرجانات الموسيقى والأفلام، لربما كانت حياة جميلة. أفتقدها أحيانًا وأشعر بأنَّ بيروت كئيبة بشكل ما من دونها. ولكنني اليوم مع عدم قدرتي على التحرّك خارج دائرة بيروت الصغيرة، أشعر بأنَّ أكثر ما ينقصني هو تلك المشاوير في نهايات الأسبوع. أعرف بيروت وتفاصيلها وضجيجها جيّدًا، وأشتاق إلى أماكن تقدم لي متعة الدهشة والاكتشاف ولكن أيضًا الهدوء والألوان والأفق الواسع.

ليس لدي مكان محدد أحب الذهاب إليه. لا أبحث عن الألفة في تلك الطبيعة بل عن أماكن جديدة في كل مرة، ليس تعلقًا بأرض أو بمكان محدد بل ارتباط بجمال هذه الطبيعة وتوق إلى اكتشافه والارتياح له كأنه مكاني.

سألت نفسي دائمًا لماذا أتهرب من بلدتي ومحيطها وأبحث في المناطق الأخرى عن أماكن طبيعية. لي ذكريات من الطفولة حين كنت أزور مع أهلي عين المياه في طرف البلدة والجدول الصغير المتدفق منها. كما لي ذكريات من المشي في التلال المحيطة مع أمي وخالاتي "للتسليق"، العادة الموسمية في الربيع للبحث عن الأعشاب المختلفة التي تنمو وحدها في الطبيعة وتستعمل للمؤونة كالصّعتر البري، أو تُطهى مباشرة كالهندباء والتي سميناها دائمًا "علت" ولم أعرف أنها "هندبة" إلّا عندما جئت إلى بيروت وافتقدت عادة "التسليق". العين جفت قليلًا واجتاح الزفت بعض الأماكن المحيطة بها، ولكنَّ أمي وخالاتي حافظن على عاداتهنَّ. اعتزلت الذهاب معهنَّ، وفي زياراتي للبلدة أكتفي ببيت العائلة الصغيرة وببيت جدتي. أتجنب الابتعاد من عتبات البيوت وأحشر نفسي فيها منذ وصولي حتى مغادرة الضيعة. جربت مرات في السنوات الماضية أن أمشي قليلًا في الوديان الصغيرة المجاورة. ألتقط بعض الزهور في طريقي وأراقب أشعة الشمس والسكون، ولكنَّني أشعر بالغربة بشكل ما عن هذا المكان. لِمَ أبحث عن الأماكن الواسعة المفتوحة في مناطق أخرى وتضيق بي هنا؟

لا أملك إجابة محددة ولكنني امرأة. هناك في الأماكن التي نولد فيها، يشعر المحيط بأنه يمتلكنا. يتملك تحركاتنا ويراقبها. في المحيط الذي نولد فيه، يبقى دائمًا ذلك الشعور بأننا مكبلات بنظرة العائلة والمجتمع الأكبر. بلدتي تلال متجاورة، وبيتنا في أعلى إحدى تلك التلال، ولكنَّ الأماكن الواسعة فيها لا تتّسع لكلّ الفكَر ولا لحرية النساء وحيواتهنّ. أهرب أنا إلى أماكن أخرى حيث لا أحد يعرفني، ولا بدّ مِن أنّ هناك امرأة في تلك الأماكن تهرب إلى حيث لا أحد يعرفها.

○ ◒ ○

كنت أعتقد لفترة طويلة أنه يكفي أن تتوافر في بيروت مساحات عامة خضراء وأرصفة وشاطئ عام لِتُمسِيَ قابلة للحياة، ربما. ولكننا نحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير؛ نحتاج إلى بيئة، إلى مكان يحتفظ

بطبيعته وتاريخه وثقافته، ويرحب بناسه المقيمين/ات كما الوافدين/ات والزوار.

في السنوات السابقة، إضافة إلى زياراتي لمناطق خارج بيروت، حاولت كلما سنحت الفرصة أن أسافر إلى بلاد مختلفة. دهشتي ومتعتي في اسكتشاف أماكن جديدة تبدوان لي أحيانًا مفارقة أمام تعلقي ببيروت. أثينا، عاصمة اليونان ومدينة أوروبية حديثة كانت أحد الأماكن التي زرتها. كنت أتمشى في الشوارع و"أتفركش" بالتاريخ كيفما استدرت. في كلّ جزء من المدينة تجد موقعًا أثريًّا كان جزءًا من المدينة القديمة: هنا مدرسة الفلاسفة الإغريق، وهناك المكتبة، وفي الجانب الآخر من المدينة المكان الذي كانوا يراقبون فيه الفضاء. وكلّ موقع يتداخل بشكل تلقائي مع الطبيعة، كلّ موقع أثري جزء من مساحة طبيعية كبيرة فيها الرمال كما الأشجار والأعشاب والزهور. لا أتحدث هنا عن المواقع الأثرية الكبيرة كالأكروبوليس على سبيل المثال، بل عن بقايا من الحياة السابقة للمدينة وناسها، حيث شعرت بأنّ المدينة امتداد لها. المدينة جديدة ولكنها امتداد للتاريخ، ما زال جزءًا منها ومن ثقافتها ومن بيئتها المحيطة.

وفي أثناء عملية إعادة الإعمار في التسعينيات، وجدوا في بيروت مواقع أثرية عديدة، أحدها ما زال موجودًا تحت "أسواق بيروت الحديثة" ويُمنع الناس من الوصول إليه، والباقي لا نعرف اليوم ما حصل له. لا أريد للمدينة أن تعيش على آثار الماضي وبقاياه، بل أن تحتضنه وتنمو.

بيروت كانت تلالًا، والتلال توحي لي بالتموج، بطبيعة مختلفة لهذه الأرض؛ طبيعة لا تشبه واجهتها البحرية الجامدة الحالية.

ساحل يمتد إلى تلة في الأشرفية أو تلة الخياط، يبدو كليشيه، ككليشيه قرب البحر من الجبل ولكنه حقيقة في زمن ما.

بيروت كان لها نهر أيضًا، نهر بيروت؛ مدينة بتلال، ونهر، وشاطئ، وطبقات من الآثار.

ذهبت عدة مرات في جولات مع معماريين لأعرف أكثر عن تاريخ البناء في مناطق مختلفة من بيروت. في إحدى الجولات في زواريب داخلية في فرن الشباك، تعرفت إلى تطور العمارة في النصف الأول من القرن الماضي. في فرن الشباك كما في زقاق البلاط وبعض أحياء الأشرفية وبدارو، لا تزال بعض البيوت القديمة صامدة، بطوابقها القليلة التي كانت تزداد طابقًا مع كلّ عقد ومع كلّ جيل جديد، ولكنها لم تتجاوز الأربعة أو الخمسة طوابق. يشرح المعماري كيف كانت المداخل تُبنى مع مراعاة اتجاهَي الريح والشمس، وكيف يتم اختيار ترتيب الغرف الداخلية مع التفكير بالتوقيت الذي في خلاله ستدخلها أشعة الشمس على مدى ساعات النهار. الشبابيك والأبواب بإطارات خشبية وألواح زجاج، تسمح عند إقفالها بحجب الريح وبإدخال أشعة الشمس في البرد. كما تسمح أباجورات خارجية مع فتحات صغيرة أفقية بدخول هواء عليل وبعزل الشمس في الحر؛ هي بيوت تتأقلم مع الطبيعة بتلقائية. هل ما زلنا نفكر في هذا كلّه عندما نبني البنايات الزجاجية العالية اليوم، أم يكفي أنّ لدينا المكيفات ووسائل التدفئة لنستبعد ذلك كلّه؟

مدينة ببيوت تعرف محيطها بانسيابية، بتلال ونهر وشاطئ وطبقات من الآثار. أكان يمكن الإبقاء على هذا كلّه؟

وبدلًا من أن تكون تلالًا ببنايات متراصة ومساحات عامة مسورة خضراء ومتحف وبضعة مبانٍ تاريخية؛ أتخيل كيف كان يمكن للمدينة أن تكون تلالًا، ببيوت تدخلها أشعة الشمس والهواء، وبنايات تترك مساحة بينها لأشجار الصنوبر بين البيوت، وطيور لا تخاف من سطوحها وساكنيها. أتخيل كيف كان يمكن أن تكون لنا مدينة حديثة وبطبقات متداخلة من حقبات تاريخية إنسانية مختلفة، ونهر على أحد أطرافها، وشاطئ على الطرف الآخر، وبحر بمياه نظيفة وأسماك حية. فماذا حصل بدلًا من ذلك؟

بيروت ما بعد التوسع العمراني والمركزية، ارتفعت حرارتها واختفت فيها الظلال والنسمات.

بيروت ما بعد الحرب لم تعد فقط شرقية وغربية، لم تعد مقسومة بخط تماس، بل قسمتها الجسور الكبيرة والأوتوستردات بين أحياء الأغنياء المنسقة وأحياء الفقراء المهملة. يفصل بين الصيفي والخندق الغميق مئتا متر، وجسر فؤاد شهاب، ومليارات من الدولارات. ويفصل بين الرملة البيضاء والأوزاعي مئتا متر، وجسر، ومليارات من الدولارات أيضًا. وهكذا، جسور في كلّ مكان، بنايات تنطح السماء بملايين الدولارات، وأحياء خلفية تغرق في العتمة والتهميش وتنقطع عنها المداخل إلى باقي المدينة.

بيروت ما بعد الانهيار ازدادت توحشًا، وعتمة، وقمعًا، وظلمًا. كان تفجير مرفإ بيروت كارثة اقتصادية واجتماعية وبيئية وصحية، لا أعرف إلى متى ستحمل المدينة ونحمل معها صدماته. وبيروت ما بعد انفجار ٤ آب ٢٠٢٠، تنتظر في كلّ يوم احتمال وقوع كارثة جديدة. تختزن احتمالات تدمير لامتناهية.

لا نجاة في هذه البلاد، كلّ كارثة تستحضر أخرى؛ فعندما احترقت غابة بمساحات هائلة في عكار في تموز ٢٠٢١، استرجعت مباشرة صور حرائق الدامور في تشرين الأول ٢٠١٩، وكيف كلَّما اشتعلت نار لا قدرات أو موارد كافية لإطفاء الحريق.

أحزن بأنانية على أماكن لا أعرفها جيّدًا، أحزن لأنني لم أعرفها وأفكر بأهلها الذين هم جزء منها ورأوها تحترق. تقرّبنا الكوارث والخسارات المتشابهة والأحزان من أماكن نفقدها من هذه البلاد.

ننتظر ويزداد الوضع سوءًا؛ انفجر صهريج فيول في بلدة عكارية أيضًا. لا يكفي أنه انفجر بأهل المنطقة خلال أزمة نقص حاد في الفيول، بل أيضًا لا موارد لنقل الجرحى إلى المستشفيات، لا مستشفيات شغالة ولا طاقم طبّيًا في المنطقة أصلًا. نُقل بعض جرحى الانفجار في عكار إلى بيروت، وحتى هنا عجزوا عن إسعافهم، فنُقلوا إلى خارج البلاد. هناك بيئة دُمرت وموارد طبيعية استنزفت. والأسوأ، علامَ حصلنا في المقابل؟ نعيش في الخراب؛ خراب كامل وممتد.

بينما أترك بيروت لأذهب في اتجاه مناطق أخرى، أمرّ غالبًا بجبال اقتطعت منها أجزاء كبيرة وتبدو كأنَّ وحشًا ابتلعها وترك صخورًا بيضًا في مساحة خضراء. وأتخيل أنَّ أحدهم اقتلع هذا الجزء كله من الجبل وركّبه في مكان آخر، ربما بشكل أبنية بشعة وربما حواجز إسمنتية تفصل الشاطئ عن الناس على طول الساحل.

تخبرني مريم، والدة صديقتي، أنها عاشت سنوات طويلة في الصرفند، بلدة جنوبية ساحلية، وتتذكر كيف كانت في كل يوم تحضّر ركوة قهوة وتحملها مع فنجان لتمشي بها دقائق إلى الشاطئ القريب وتجلس على صخرة تشرب قهوتها مع البحر. اليوم أصبح الوصول إلى الشاطئ في المنطقة محصورًا بمداخل قليلة جدًا، بينما تحاصر الأسوار والاستملاكات بقيته. وتسعى جهة سياسية نافذة إلى تحويل جزء من الميناء في منطقة عدلون الموازية إلى مشروع سياحي كبير، أو ربما مرفإ لليخوت بدلًا من إعادة تأهيله للصيادين والأهالي.

أحنّ إلى المدن الساحلية التي يتصل فيها الشاطئ بالمسكن والحياة اليومية. أحبّ القرى التي تبدو فيها البيوت جزءًا من محيطها الطبيعي، وتمتدّ المصطبة إلى الحاكورة المجاورة وتتصل من دون جهد بالأراضي والجرود المحيطة. وحين أقول من دون جهد، لا أقصد أنَّ الناس فيها لم يتعبوا/يتعبن لبناء بيوتهم/نَّ أو لتسوية أراضيهم/هنّ، بل أنهم عرفوا/نَ بشكل بدهيّ، وربما أيضًا عبر المعرفة المتناقلة، كيف يبقون/يبقَينَ امتدادًا لبيئتهم/هنَّ ومناخها ونوع التربة فيها. في الصيف الأبواب والشّبابيك مشرّعة، ومدخل المنزل مفتوح طوال النهار. يتداخل شطف السطيحة الخارجية بالمياه الجارية مع ري النباتات المزروعة والمحيطة. ثم هناك استراحة قصيرة لشرب القهوة تتخللها مناداة جارة من المنزل المجاور والجار المار في طريقه للمشاركة في ارتشاف فنجان والتحدث عن غلّة اليوم أو حصاده.

أنتبه إلى أنني عندما أتخيل بيروت أبحث فيها عن هذه الصورة وأنني عندما أهرب منها، أهرب إلى مدن وضيع تشبه صورة المكان الذي أريده. أفقد شيئًا في ضيعتي فأبحث عنه في بيروت، وأفقد شيئًا في بيروت فأبحث عنه في قرى ومدن أخرى. وغيري كثيرون/ات رحلوا ورحلن ليجدوه/ليجدنه في بلاد أكثر عدالة.

لِمَ أكتب عن هذا كلّه؟ لأن لا عدالة قضائية من دون عدالة اجتماعية اقتصادية ومن دون عدالة جندرية وعدالة بيئية، ولا عدالة بيئية من دون تنوع طبيعي حيوي ومن دون عمران يعرف محيطه وينتمي إليه. ولأننا بحاجة إلى هذا كلّه، لا أولوية لعدالة على حساب أخرى.

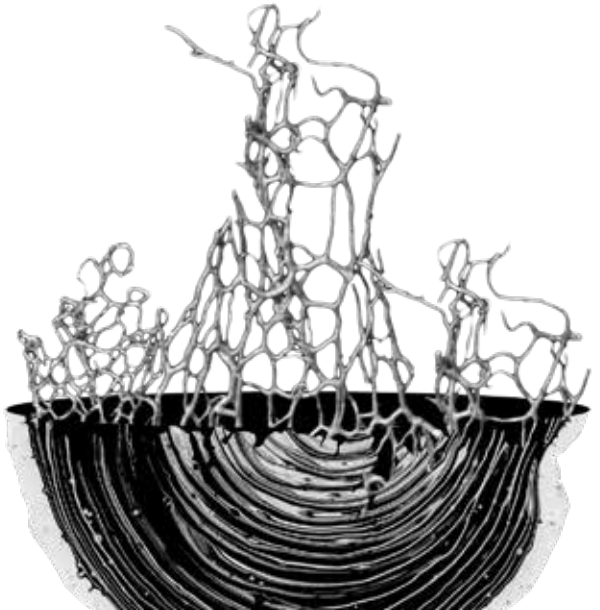

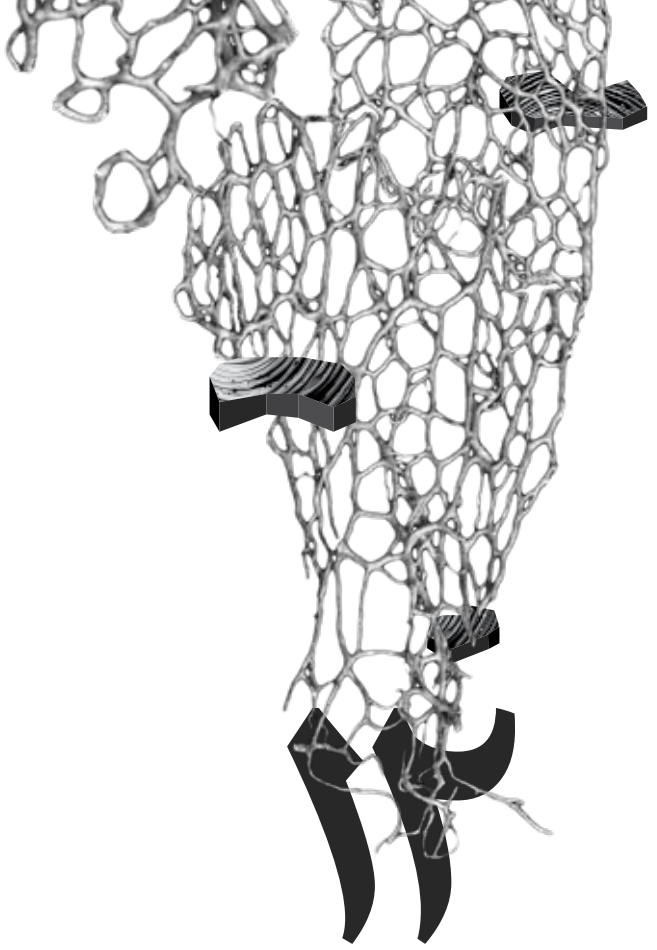

ريتا باروتا

ترجمة: مايا العمّار

طالبة دكتوراة في جامعة القديس يوسف، تخصص علوم انسانية (الخيار: الاتصال والمعلومات)، موضوع الأطروحة: الخطابات الكويرية في السينما اللبنانية المستقلة. زميلة باحثة في المعهد الألماني للأبحاث الشرقية (OIB) منذ كانون الأول ٢٠٢٠. حاصلة على ماجستير في الصحافة من بانثيون-أساس (باريس ٢ – فرنسا). مجازة في الصحافة المكتوبة من الجامعة اللبنانية. تعمل منذ أكثر من عشر سنوات في التدريس الجامعي و١٢ سنة في الصحافة المطبوعة والإلكترونية. تتمحور اهتماماتها البحثية حول الكويرية، الجنسانية واللغة.

في الرّابعة، انتهَت!

كنتُ في الرّابعة من عمري. أربعة أعوام فقط.
محظوظةً كنتُ بتلك الأشجار الّتي هويتُ تسلّقَها.
دعوني أقولها: لا يحتاج الطّفل/ة إلى الكثير. فقط بضعة برارٍ، بضعة ألوانٍ، شجرة تسمح له بلعب الغُمّيضة والرّيح.

المكان: "بحمدون الضّيعة"،[1] العام: ١٩٨٣. بإمكان الطّفولة أن تمتدّ لسنوات، وبإمكانها أن تنتهي في يومٍ أو يومين. لكنّ أحدًا لا يُكرّس وقتًا للتّفكير بمدى تأثير فجائيّة نهايتها على الطّفل/ة نفسه/ها.

هل ما زلتُ أتذكّر أم أنّها إسقاطاتي؟ لستُ متأكّدةً. لكن، ما أنا على يقينٍ منه هو التّالي: كنتُ سعيدةً. ونَعَم، إنّ السّعادة ممكنةٌ، فقط للأطفال الّذين يعيشون في حضن الطّبيعة.

كان لي صديقٌ اسمه ماكس. وماكس هو كلب الجيران الّذين يسكنون الطّابق الأوّل، في حين كنتُ أقيم في الطّابق الثّالث. كنتُ أخبر ماكس عن أماكن اختبائي، وعن الثّلجة الأولى السّاحرة والفاتنة، والّتي عنها كنتُ أسألُه: "هل هذا قطنٌ؟ هل يُعجبك القطن؟ هل يمكننا أكله؟"
وكان ماكس يجيبني وأنا أفهم ما يقوله لي. وحدي أنا كنتُ أفهمه. ما زلتُ، حتّى الآن، أعتقد أنّ ماكس كان الشّاهد الوحيد على أيّام طفولتي في تلك البلدة في جبل لبنان. ماكس والشّجر. وأعتقد أيضًا أنّ جميع الأطفال الّذين لعبتُ معهم، اختفوا.

يختفي الأطفال حين يتوقّفون عن الضّحك.

كنتُ حرّةً، حرّةً درجة الطّيران. كدتُ مرّةً أن أقع من الطّابق الثّالث، ظنًّا منّي أنّ طيراني سيوصلني بطريقة أسرع إلى ماكس. أمسكَتْ أمّي بي في اللّحظة الأخيرة. كيف أشرح لها أنّ الطّفل/ة لا يمكن أن يموت إذا وقع من الطّابق الثّالث؟

لم تدرك أمّي السّببَ وراء شحّ كلامي، بعد ذلك الصّيف.

كانت بحمدون بلدةً صاخبةً. كانت أصوات النّاس عاليةً. كنتُ أحبّ ضجيجها الّذي عنى لي الحياة. فالأشخاص ذوو الأصوات العالية ليس لديهم ما يخفونه. أمّا أولئك الّذين يهمسون، فمُرعبون؛ يُصبحون مرعبين بالنّسبة إليّ.

---

١. "بحمدون المحطّة" و"بحمدون الضّيعة" تشكّلان منطقة "بحمدون" الّتي تبعد ٢٣ كم عن العاصمة بيروت وتعلو ١,١٥٠ مترًا، فوق وادي لامارتين، وتقع على الطّريق العامّ المؤدّي إلى الشّام.

كنتُ أملك درّاجةً على شكل نحلة، وتحديدًا النّحلة زينة. كانت زينة ونحّول شخصيّتين من مسلسل كرتونيٍّ للأطفال، وكنتُ أريد أن أصبح مثل زينة. لكن، بدلًا من أن أصيرها، امتلكتُ درّاجةً على شكلها. كنتُ دائمًا برفقة أناس، غير ممسوكة، أي أنّ أحدًا لم يمسكني. والحبّ الموجّه إليّ كان يتّخذ شكلَ المناداة باسمي كلّما ابتعدتُ، أو اختفيت عن الأنظار.

أحببتُ تلك العادة الّتي كانت تُشعرني بأنّني مهمّةٌ، وبأنّني شخصٌ يُفتقد إليه. كان الهواء يردّ صدى اسمي، وكان اسمي يصل إلى العصافير. وهذا ما كان يُفرحني.

○ ● ○

بعدها، حلّ الصّمت.
بعدها، كانت بيروت.
لم يعد لي صديقٌ اسمه ماكس. لم يعد هنالك من أشجار. وكأنّ اسمي دخل طيّ النّسيان، ورُمي بين عشرة أسماء أخرى كانت تتشارك شقّةً صغيرةً في شارع مار ميخائيل في الأشرفيّة.

عرف العام ١٩٨٣ بما سُمّي بـ "حرب الجبل". كان على أمّي ولادة شقيقتي الصّغيرة. قالوا لنا إنّ الحظَّ حالفنا حين غادرنا البلدة قبل اندلاع الاشتباكات. لكن، إلى أيّ مدى يمكن وصف طفلٍ بالمحظوظ، والحياة الّتي عرفها انتهت فجأةً؟

كانت شقّة جدَّتي في مار مخايل المكان الوحيد الّذي استطعنا البقاء فيه. لم نكن نملك شيئًا، فقط طفلةً حديثة الولادة ملفوفةً بقماشة مستشفى. أين ماكس؟ لماذا أراني نائمةً على الأرض؟ لماذا هي شديدة الصّمت هذه الشّقّة؟ لماذا يخيفني القرب من سائر أفراد الأسرة لهذه الدّرجة؟ لماذا يُمسك بي أحدهم الآن؟ لماذا أُلمَس في مناطق من جسدي ما ظننتُ يومًا أنّها تُلمس؟

جدران، لا أشجار.
همسات، لا أصوات.
رجال، لا ماكس.
كائنٌ حيٌّ كان يُفترض به أن يكون طفلةً، ما عاد يعرف مَن هو أو لماذا يشعر بالخوف طيلة الوقت.

في غضون أيّام، خسرتُ طفولتي.
كنتُ في الرّابعة من عمري. لم أعد أتنفّس، ولم أعد أضحك. والشّقّة الّتي كانت تحوي أفرادًا آخرين من العائلة، صارت تضيق أكثر فأكثر. كنّا جميعًا ننام في غرفة واحدة.
أتذكّر أنّني كنتُ أستطيع أن أغفو فقط حين ينام أبي إلى جانبي ويُغمرني بين ذراعيه. لكنّ أبي لم يكن حاضرًا خلال النّهارات، ولا ماكس الّذي كنتُ أثق به أيضًا. كانت يدان أُخرَيان تُمسكان بي، فأصبحَتْ بيروت حكمَ إعدامٍ عليّ.

كنتُ طفلةً بلا صوتٍ، وأظنّني ما زلتُ كذلك.

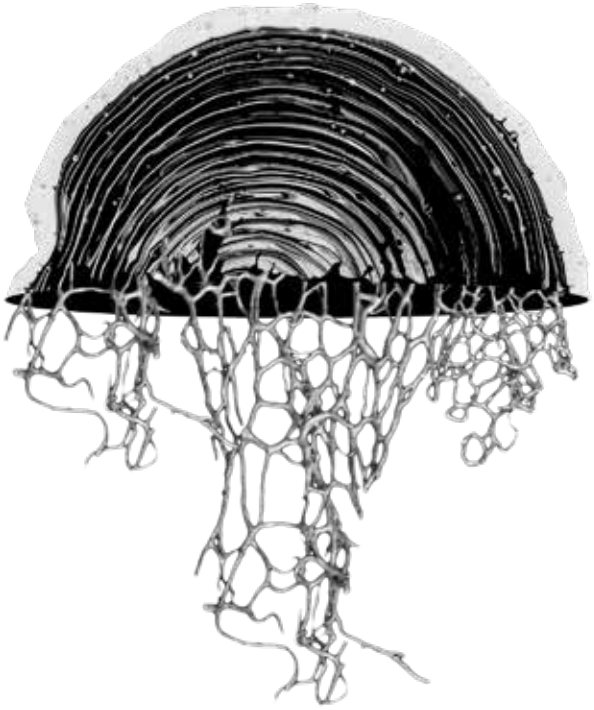

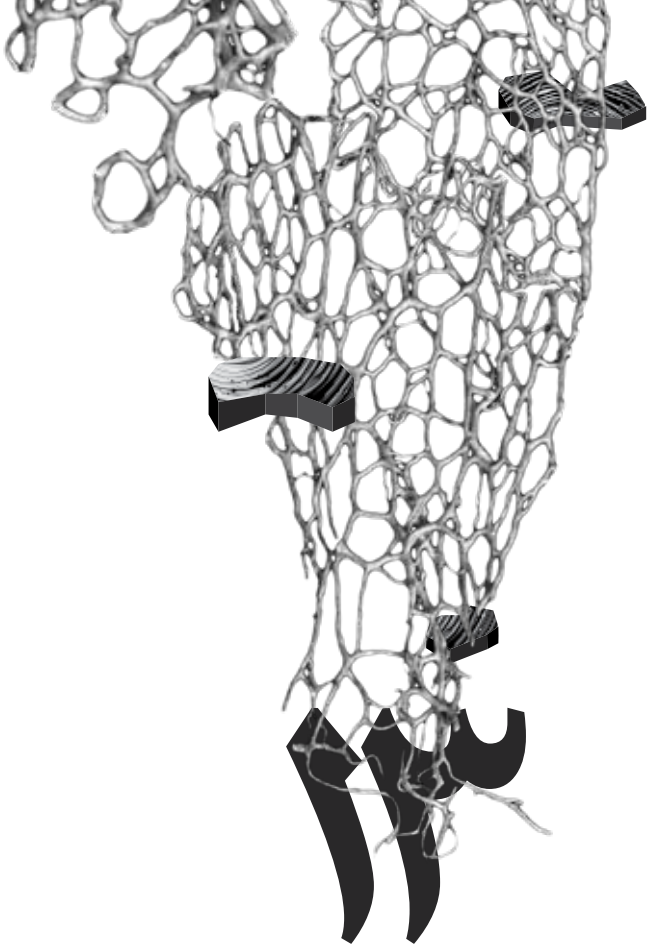

ريما الخطيب

تطوير وتحرير: فريق التحرير

منسقة التواصل المجتمعي في ورشة المعارف
لعام ٢٠٢١

رحلات نسويّة-بيئيّة

مقدّمة [١]

بين جيلٍ من النّسويّات حامل لشعارات مثل "النّظام الأبويّ قاتل" و"قضايانا متعدّدة، نضالنا واحد"، مؤمن بتقاطع الهويّات والأنظمة وأساليب العنف، ومقتنع بأهمّيّة خَلق منصّات ومنظّمات وأماكن تسعى إلى تجسيد هذا الخطاب؛ وبين حركة "بيئيّة" متجدّدة ومتشعّبة تحمل قضايا مثل الاكتفاء الاقتصاديّ- الزّراعيّ وحقّ الوصول إلى المساحات العامّة والدّفاع عن الأراضي وناسها وتطوير بدائل في التّنظيم وفي العلاقة مع الأرض، تتداخل في حيواتنا وهمومنا وقضايانا؛[٢] وفي ظلّ واقع يزداد عنفًا وقسوةً يومًا بعد يوم، دفعنا تشابك الأزمات نحو العمل من أجل ترابط أقوى بين الحركات الاجتماعيّة. فكان تركيزنا، خلال عام ٢٠٢١، على بناء علاقاتٍ وتحالفاتٍ بين الحركة النّسويّة الّتي ننتمي إليها في "ورشة المعارف" وبين الأفراد والمجموعات الّتي تعمل بطريقة ما على تعافي علاقتنا بالأرض والبيئة. لذا، كانت هذه السّنة رحلةً إلى عوالم بعض المجموعات، وبدء نقاشات نأمل أن تستمرّ وتكبر لتكوّن بنًى تحتيّةً لعلاقات تضامنٍ وتكافلٍ تعبر وتشبك المناطق والجماعات والحركات.

بدأنا بالتّعرّف إلى المجموعات البيئيّة المختلفة. فقمنا ببحث حول المبادرات والخطابات، وقرأنا عن المواضيع والحملات البيئيّة في لبنان في السّنوات الماضية. لكن، كان من المهمّ أن نلتقي ببعض هذه المجموعات في مناطقها وأرضها، فتوجّهنا جنوبًا وشمالًا وبقاعًا، كما دعونا مجموعات وأفرادًا من/ في طرابلس والشّوف وصيدا وبيروت إلى ملاقاتنا والمشاركة في نقاشاتنا. لاحظنا أنّ عددًا من المساحات الجديدة الّتي تفتح في أنحاء لبنان، تتبنّى المواضيع الثّقافيّة- الاجتماعيّة والزّراعيّة- البيئيّة، وتتناول مقاربة ثقافيّةً وتثقيفيّةً.

بالطّبع كانت تأثيرات الانهيار الاقتصاديّ المتزامن مع جائحة كوفيد ١٩ تأخذ حيّزًا من الأحاديث كلّها، وأحيانًا بطرقٍ غير متوقّعة، مثلًا: كيف كان هذا الوضع محفّزًا لبعض المجموعات والأفراد للبدء بالمشاريع، وأعطاهم وقتًا أكبر كرّسوه لبناء بدائل بدلًا من التّصادم الدّائم مع الجهات الرّسميّة أو الحزبيّة أو غيرها. لكنّ الانهيار أيضًا قد قلّص من فرص التّلاقي بين المجموعات والأفراد، بخاصّةٍ في مناطق لطالما كانت مهمّشة.

وضع البلد كان المحفّز للّقاء والسّبب في صعوبته أيضًا: كانت ٢٠٢١ سنةً استمرّ خلالها انهيار العملة والغلاء المعيشيّ، وكانت سنةَ نقص أو انقطع فيها البنزين والكهرباء والدّواء. لا نخفي أنّ جهوزيّة الأشخاص للحديث والنّقاش عن النّسويّة البيئيّة كانت تحدّيًا، فلم يكن الكلّ على استعدادٍ لإيجاد الوقت

---

١. هذا النّصّ هو عملٌ جماعيٌّ بامتياز. في صيدا كان رجا المجذوب يدوّن النّقاشات الحاصلة. في عكّار وسعدنايل، دوّنت كلٌّ من ريما الخطيب وزينب ديراني الملاحظات. ثمّ أضفنا ذكرياتنا وملاحظاتنا، خصوصًا بعد أن كتبت ريما المسوّدات الأولى لهذا النّصّ، إلى أن طوّره وحرّره فريق التّحرير.

٢. هذا التّشابك بين الحركات موجودٌ، والتّضامن يحصل، ولو على درجاتٍ، أو قد يبدأ على مستوى أفرادٍ أو مجموعاتٍ محدودةٍ، ولو لم يكن معلنًا بشكلٍ رسميٍّ أو موثّقًا.

والطّاقة اللّازمين للتّفرّغ إلى هذه النّقاشات في ظلّ قساوة المعيشة. لكنّنا، وبرغم ذلك، بذلنا أقصى جهودنا للعمل حول هذه التّحدّيات، وبسببها. في كلّ رحلة ونقاش قمنا بهما، كنّا نعود بروح جديدة وإلهام أكبر. تعلّمنا الكثير وزاد اقتناعنا بوجود رغبة أو حاجة مشتركة لدى عدد كبير من المجموعات لخلق فرص استكشاف لطرق تساهم في دعم بعضنا البعض، حتّى ولو كانت هذه الجهود بمثابة بذرة لن تستوي ثمارها إلّا بعد عدّة سنوات.

أوّل السّكّة، نحو صيدا

رحلتنا الميدانيّة الأولى كانت نحو صيدا، في أيلول ٢٠٢١، بالتّعاون والتّنسيق مع فريق "سكّة" — ليال الخطيب ومروى موسى ومحمّد غملوش. "سكّة" هي المساحة- الحلم لليال ومحمّد. لطالما حلما بالزّواج والعيش في المبنى الّذي هو مركز "سكّة" اليوم. وبعد سنين من المحاولات، وبعد أن كان المبنى جزءًا من مشروع الضّمّ والفرز، تمّ افتتاح سكّة في ظهر يوم ١٧ تشرين الأوّل ٢٠١٩. افتتحوا المكان في النّهار، ونزلوا إلى الشّارع في اللّيل، مع انطلاق انتفاضة ١٧ تشرين. أصبحت "سكّة" مساحة عامّة ومجّانيّة، يقصدها الأشخاص المنخرطون في التّحرّكات، ويُدعى إليها أفرادٌ ومجموعاتٌ من مناطق مختلفة للّقاء والنّقاش ومشاركة الخبرات. مع غياب مساحات مثلها في صيدا، صارت "سكّة" مكانًا يستطيع أن يذهب إليه الجميع، وخصوصًا الأفراد غير المنتمين إلى الأحزاب أو المجموعات السّياسيّة والطّائفيّة والّذين يبحثون عن مساحة تجمع الثّقافة والفنّ والعمل الاجتماعيّ، كما شرحوا لنا.

نتذكّر أنّ هذه الرّحلة كانت في أحد شهور أزمة المحروقات، لأنّنا علقنا في زحمة الطّوابير على الأوتوستراد من خلدة إلى صيدا. اصطحبنا معنا أنجيلا سعادة من جمعيّة "جبال" والباحثة سينتيا عيسى من المؤسّسة الإعلاميّة المستقلّة "مصدر عامّ".

في صيدا، انضمّ إلينا كلٌّ من لين جبري واسماعيل الشّيخ حسن من فريق "نحيي الأرض"، اللّذين أعدّا لنا جولةً في الأرض الزّراعيّة وشوارع المدينة حولها، فتعلّمنا عن تاريخ وحاضر منطقة صيدا والجوار. ها هم يخبروننا عن نضالهم كمجموعة مهتمّة بالبيئة والتّخطيط المستدام، بالإضافة إلى خلق مساحات خضراء في المدينة والمحافظة عليها. قاموا بتنظيم ندوات وتقديم تصوّرات واقتراحات لمساحات بديلة ضمن مجموعة "للمدينة".[٣] كانت هذه مساعيهم لمقاومة مشاريع البلديّة الّتي كانت تخطّط للمزيد من الإعمار، وبالتّالي لمزيد من تدمير للأراضي الزّراعيّة، ولوقف مشاريع مزج مياه الصّرف الصّحّيّ مع الأنهر وحصرها في مجار إسمنتيّة اصطناعيّة لا تستطيع احتواء مياهها الفائضة خلال الشّتاء. يشهد

٣. من صفحة "للمدينة": "للمدينة مبادرةٌ محلّيّةٌ نشأت في منطقة صيدا في سنة ٢٠١٣ على أيدي أفراد يعيشون فيها، أتوا من خلفيّات بحثيّة ومهنيّة وناشطة مختلفة. ما يجمعهم في "للمدينة" إيمانهم بدور الإنتاج المَعرفيّ المهمّ والتّنشيط الاجتماعيّ في تمكين السّكّان المَحلّيّين كَي يلعبوا دورًا فاعلًا في تطوير وحماية جوانب مختلفة في بيئتهم المبنيّة والطّبيعيّة."
https://lilmadinainitiative.wordpress.com/من-نحن/

أفرادٌ من الأجيال الأكبر سنًّا، ممّن قامت مجموعة "للمدينة" بالحديث معهم عن ماضي تلك الأنهر، أنّها كانت تشكّل مصدرًا للمياه في المدينة وأكثر؛ فكانت مصدرًا للحياة الاجتماعيّة ومساحةً لتعزيز التّواصل والتّقارب بين أهالي المنطقة. خلال زيارتنا، عبرنا مشيًا على الأقدام ضفاف أحد تلك الأنهر، وهو نهر القملة، الّذي قام فريق "للمدينة" بنشر بحثٍ حوله تحت عنوان "نهر القملة في صيدا الكبرى: حكايات اختفائه ومحاولات استرجاعه". خلال رحلتنا، كانت صورة النّهر، وهو يتدفّق من قسطل إسمنتيّ كبير تملؤه الأوساخ وتفوح منه روائح المجارير، تجعل من الصّعب علينا تخيّله كمكانٍ للاجتماع ولتقضية الوقت. مياهه لا تصلح حتّى للمشي قربها، فماذا عن الاستعمال اليوميّ لهذه المياه؟!

قال اسماعيل: "صيدا الآن هي بيروت من خمسين أو ستّين سنة". فصيدا اليوم تشبه بيروت عندما كانت أكثر خضارًا. يفتح ذلك مساراتٍ متعدّدةً لمستقبل صيدا، بحسب اسماعيل، إذ لم تتخطَّ المدينة نقطة اللّاعودة بعد؛ فبساتينها وأنهارها ومساحاتها الخضراء لا تزال موجودةً، ويمكن الحفاظ على ما تبقّى منها. تشرح لين أنّ قنوات الرّيّ المتروكة، والّتي من الممكن ترميمها واستعمالها، تكفي جميع النّاس وبوفرة، دون الحاجة إلى الاعتماد على الكهرباء والمازوت. وتضيف لين أن هذه القنوات تصنّف كأحد العوالمٍ الأثريّة في مدنٍ أخرى، وما يميّزها في هذه البقعة الجغرافيّة هو أنّه لم يشهد تاريخ أهالي المنطقة أيّ حربٍ على المياه، بسبب إمكانيّة وصولها للجميع بوفرةٍ وعدالةٍ.

لكنّ شبكة الحكم السّياسيّة- الماليّة الّتي تسيطر على صيدا دفعت إلى هدم أجزاءٍ منها بهدف التّوسّع العمرانيّ، "وتحويل الأرض إلى سلعة، دون خلق مساحات عامّة ومشتركة". ثمّ، عطّلت الأزمة الاقتصاديّة مشاريع العمران الّتي كان يُنفق عليها من قبل جهات محلّيّة ودوليّة، وأوقف الانهيار هجمة البناء "لأنّه لم تعد هناك قوّةٌ شرائيّةٌ في السّوق" ولأنّ الدّولة انهارت فتوقّفت المشاريع المموّلة من الدّولة، كما يوضح اسماعيل. واستطاع فريقا "للمدينة" و"نحيي الأرض" أن ينكبّا على حلمٍ قديمٍ بأن يكونا جزءًا من العمل على/ مع أرضٍ زراعيّةٍ متاحةٍ للعامّة.

لسخرية القدر، تمكّن فريق "نحيي الأرض" من البدء بهذا المشروع- الحلم بسبب الأزمة الاقتصاديّة الّتي يمرّ بها لبنان. وبسبب قلّة الطّلب على الأراضي، استطاعوا أن يجدوا أرضًا من خلال "عقد مزارعة" مع مالكها، أي تقاسم إنتاج المحصول مع المالك. وحوّلوها إلى "حديقة أهليّة زراعيّة" في وسط المدينة، حيث يستطيع المزارعون زراعة محصولٍ يمكنهم استعماله أو بيعه. الوضع ليس مثاليًّا والموارد ليست متاحةً دائمًا، لكنّ هذا ما توفّر لهم. من هذا المنطلق، يكون العمل المستمرّ في تحويل هذه المساحة نحو علاقاتٍ أكثر توازنًا وعدالةً.

بالنّسبة إلى لين واسماعيل وباقي فريق "نحيي الأرض"، إنّ حبّ الأرض والرّغبة في تعلّم الزّراعة هما أهمّ مقوّمات العمل في الحديقة الأهليّة. لم يضعوا أيّ شروطٍ أخرى عندما فَتح الفريق باب الدّعوة لمزارعين/ات للعمل معهم على هذا المشروع، وحاولوا أن يكوّن خطابهم شاملًا قدر الإمكان، جندريًّا وعمريًّا ومن حيث الخلفيّات الاجتماعيّة. فقاموا بوضع الإعلان مخاطبين فيه المزارعين والمزارعات، والنّساء والرّجال عامّةً. منذ البداية، كان هناك تواجدٌ كبيرٌ للنّساء في المزرعة – وهذا أيضًا ما لاحظه

أعضاء فريق "سكّة" في مشاريعهم الزّراعيّة. وقد لا تعرّف مبادراتٌ مثل "سكّة" و"نحيي الأرض" عن نفسها بأنّها نسويّةٌ، ولكنّ أثر النّسويّة واضحٌ فيها من خلال مساحاتٍ ومجموعاتٍ آمنةٍ وتقبّل الاختلاف. كما أنّ النّساء جزءٌ أساسيٌّ وحيويٌّ من المشاريع وفي صنع القرارات حول هذه المشاريع.

هنا، لا بدّ من توضيح العلاقة بين المجموعات؛ فـ "سكّة" تعمل عبر تواصل دائم ودعم متبادل مع "نحيي الأرض"، وهما يحصلان على بذور للزّرع (ودعم ونصائح) من "بذورنا جذورنا" في سعدنايل، المزرعة الّتي تحفظ وتوزّع بذورًا أصيلةً غير معدّلةٍ جينيًا والّتي قمنا بزيارتها مع فريق "سكّة" بعد شهرين من لقاء صيدا. ورغم أنّ مزرعة "نحيي الأرض" ليست مساحة عامّة تمامًا بعد، إلّا أنّها مشروع مساحةٍ عامّةٍ، تفتح أبوابها للجميع نهار الأحد لبيع الخضار والفاكهة والمأكولات، بالإضافة إلى كونها مساحةً خضراء مجانيّةً لمن يشاء.

تحدّثنا خلال اللّقاء عمّا قد تتعرّض له الحركتان النّسويّة والبيئيّة؛ فقد تصطدم النّسويّات باللّامبالاة والنّسيان أو استلاب القضايا وتحويرها، وقد تتعرّض للهجوم المباشر على حملات أو خطاب أو مجموعات وأشخاص. أمّا مبادرات مثل "سكّة" و"نحيي الأرض" و"للمدينة" في صيدا، فتلاقي إمّا التّهميش واللّامبالاة أو التّهديد وحملات التّشويه حين تواجه مشاريع مدمّرةً أو بعض التّشكيك بأنّ لديها غايةً بالتّرشّح على الانتخابات، فقط لأنّهم يحاولون تفعيل مجتمعٍ مدنيٍّ في صيدا وفتح مساحةٍ آمنةٍ وداعمةٍ له.

عرفنا، خلال نقاشنا، أنّ جزءًا من عمل "نحيي الأرض" هو تعزيز علاقة الأطفال بالأرض والطّبيعة، والتّعليم من خلال هذا التّواصل الّذي ينشأ بين الأطفال والأرض – والّذي يذكّرنا بمبادراتٍ مثل "حرشنا" في بيروت، ويدخل أيضًا في عمل "بذورنا جذورنا". لذلك، في نهاية اللّقاء، ومع وجود الفنّانة أمل كَعوَش بيننا، وهي جزءٌ من "نحيي الأرض"، ومشاركتها معنا في النّقاش، كانت لنا فرصة أن نستمع إلى أغنيتها الّتي يشاركها فيها الأطفال:

نُحيي الأرض
والأرض تحيينا

عكّار بيننا

في الفنيدق، تمزح النّاشطات أنّهنّ دواعش، تعليقًا على كمّيّة الأخبار والصّور النّمطيّة المنتشرة في لبنان عن عكّار كمرتع لمنظّمة "داعش". كانت رحلتنا بعد حوالي شهر من انفجار خزّان بنزين في بلدة التّليل، الّذي أدّى إلى احتراق الشّباب الّذين تهافتوا لملء غالونات منً مادّة أصبحت نادرة ومكلفة في هذا الصّيف الفاسد. حوّل تفجير ١٥ آب بعضًا من الضّوء والتّعاطف نحو عكّارً، ولو لفترةٍ قصيرةٍ.

لذلك، كانت الرّحلة إلى عكّار مؤثّرةً، ليس فقط لأنّها منطقةٌ لا نقصدها عادةً فكان هناك الكثير لنتعلّمه من المجموعات، بل أيضًا لأنّها أرجعتنا، مرّةً أخرى، إلى الأرض والنّضال في سبيلها وإلى الحفاظ على ممارسات تركّز على ما تنتجه هذه الأرض، وعادةً ما تتوارثه النّسوة. كان تواصلنا الأوّل مع التّعاونيّة الزّراعيّةً لتنمية قدرات النّساء في فنيدق، ومن خلالها، تمّ وصلنا بجمعيّة "سيّدات عين الذّهب"، "عكّار بيتنا" و"زهرة الأجيال". توقّفنا للحظاتٍ في طرابلس لملاقاة زميلةٍ في النّسويّة من طرابلس، كانت تعمل سابقًا في عكّار. توجّهنا إلى مكان اللّقاء، فكان مقرّ التّعاونيّة الزّراعيّة حيث استقبلتنا السّتّ فدوى زهرمان، "المختارة".

المختارة هي ممثّلة التّعاونيّة الزّراعيّة ومديرتها. يدعوها الجميع بهذا الاسم لأنّها ترشّحت سابقًا ولم تتمكّن من الحصول على ما يكفي من الأصوات، رغم اعتراف مجتمعها بأحقّيّة حصولها على هذا المنصب واللّقب الّذي يصاحبه.

أخبرتنا المختارة عن مسار وصولها إلى قيادة التّعاونيّة، بعد أن فشلت إدارتها السّابقة في تطوير عملها. حينها –كما شرحت لنا– بدأت التّعاونيّة تقلّص من الخسارة بل وتحقّق نموًّا، وكوّنت شبكة علاقاتٍ متفرّعة استعانت بها لتنظيم دوراتٍ تدريبيّةٍ للنّساء المنتسبات إلى الجمعيّة لتنمية قدراتهنّ، وللقيام بأعمالٍ صيانةٍ وتوفير معدّاتٍ في التّعاونيّة، وفي تصريف وتصدير منتوجاتها.

حكت لنا عن تدخّل البلديّة في عملها: مرّةً، شرعت في بناء "كيوسك" لبيع منتجات التّعاونيّة على أرضٍ تملكها، لكنّ البلديّة منعتها وقامت بإصدار حكم "بحث وتحرّي" باسمها. أوضحت المختارة أنّ سبب المنع كان لإجبارها على استئجار أرضٍ من البلديّة بعقد استثمارٍ تقوم بدفع رسومه، وهو بالفعل ما اضطرّت إلى القيام به. تقوم الجمعيّةً الآن بصناعة المونة وتصديرها. في سؤالنا حول تأثير الأزمة على العمل، أعلمتنا أنّ المشترين خارج لبنان باتوا يجدون أسعار المونة منخفضةً مقارنةً بارتفاع سعرها بالعملة المحلّيّة، ما زاد من مبيعات التّعاونيّة خارج لبنان.

بعد حديثنا مع المختارة، وصلت السّيّدات من الجمعيّات المجاورة: فاطمة حمّود ومنال صلاح الدّين من "عين الذّهب"، غالية طالب من "عكّار بيتنا" وصالحة قدّور من "زهرة الأجيال". أخبرننا عن نشاطاتهنّ في توفير دورات تعليميّة وتدريبيّة للنّساء كجزء من عملهنّ الاجتماعيّ، من صفوف صيفيّة لمحو الأمّيّة ودعم مدرّسي الطّلّاب، ودورات لغةٍ وتمريضٍ. وتدخل ورش العمل الزّراعيّة وتوزيع الشّتل أو الأدوات الزّراعيّة وصنع المونة وصنع الحرف والعمل مع النّباتات العطريّة في نطاق عمل هذه الجمعيّات، من بين أنشطة اجتماعيّة–اقتصاديّة أخرى. تخبرنا غالية مثلًا، من "عكّار بيتنا"، عن تعاونهنّ مع سكّان البلدة لإنشاء حديقة عامّة. وهكذا، بين الزّراعة والمونة وتجديد العلاقة بالغابات والحفاظ عليها، تتداخل أعمالهنّ الاجتماعيّة–البيئيّة.

حين سألنا غالية لاحقًا أن تستفيض في الشّرح عن مشاريع "عكّار بيتنا"، خصوصًا في هذا الوقت، أخبرتنا عن العمل مع التّلاميذ خارج دوام المدرسة، لتقديم الدّعم في كافّة المواد، بالتّنسيق مع الأهل

والمعلّمات/ين. كما أنهنّ يدرّبن مراهقات ومراهقين ويعملن على وضع كتاب للأطفال. وتشدّد غالية على أنّ عملهنّ عبارةٌ عن توجيه الموارد المحدّدة الّتي يملكنها نحو مجتمعاتهنّ. فتساهم هذه الجمعيّات في فتح مكتبات ومسرح داخل المدارس الرّسميّة، وتنظيم مخيّمات صيفيّة، وتأمين باصات لطلّاب الجامعة من وإلى القرية، بحيث أقرب جامعةٍ تقع في طرابلس. وكجمعيّات نسائيّة، تتناول مشاريعها قضايا العنف المبنيّ على النّوع الاجتماعيّ. في الوضع الاقتصاديّ الرّاهن، شحّت الموارد الماليّة وضاقت مساحات عمل النّساء، ولم يعد عملهنّ يأخذهنّ نحو بيروت أو إلى مناطق لبنانيّة أخرى حيث يستطعن الالتقاء بنساء وناشطات زميلات لهنّ.

في الحديث عن صعوبات العمل، مزحت إحدى السّيّدات بأنّها تتمنّى لو يتمّ اختطافها لتحصل على بعض من الوقت والمساحة الشّخصيّة، بعيدًا من همومها اليوميّة في حياتها الشّخصيّة ونشاطها الاجتماعيّ. فهي تشعر دومًا بمسؤوليّةٍ تجاه النّساء والفتيات في الضّيعة، بخاصّةٍ مع غياب أدنى درجات الخدمات الّتي يحتجن إليها.

تشاركت النّساء أبرز التّحدّيات الّتي يواجهنها، كالنّزاعات مع البلديّة: يتكرّر استلاب البلديّات لأعمال ونجاحات الجمعيّات والاستحواذ على الفضل بدلًا منها. هنا، تلوم النّساء الجهات المانحة الّتي تستمرّ بتمويل البلديّات بالرّغم من فشلها المستمرّ.[٤] لكنّ الحاضرات شاركن أيضًا النّجاحات الصّغيرة الّتي التمسنها؛ أخبرننا بأنّ أهالي النّساء والفتيات اللّواتي يعملن معهنّ، باتوا يثقون بالجمعيّات، فاستطاعت هؤلاء النّسوة والفتيات الحصول على بعض "الامتيازات" الإضافيّة في رفقة الجمعيّات، مثل العودة إلى البيت في ساعة متأخّرة أو الذّهاب في رحلات إلى بيروت أو مناطق أخرى. كما كان واضحًا لنا وجود حسٍّ جماعيٍّ/ عائليٍّ بين النّساء، ومسؤوليّة تجاه بعضهنّ البعض. كذلك، لاحظنا التّرابط بين النّاشطات في الجمعيّات ومساندتهنّ لبعضهنّ البعض.

من دون التعميم على البلديات ككل، أو الغوص في العمل المتوقّع منها، لاحظنا في معظم نقاشاتنا أن البلديات لا تمثّل الحل في تكوينها وتوجهها الحالي، بل هي عادة ما تكون على علاقة تنافسية مع المجتمع المدني على الموارد، وعلى علاقة صدامية مع المبادرات الحقوقية. والمختارة هنا لم تستطع أن تصل الى موقع "رسمي" فصبّت قدراتها في التعاونية. أي أنه، وبالرغم من إدراكنا بأهمية الأدوار التي قد تلعبها السلطات المحلية، في معظم الأحيان، لا تحقّق هذه الجهات طموحات واحتياجات الأفراد والمجموعات الساعية للعدالة وللتغيير.

وأخيرًا، بما أنّنا كنّا على مقربة من غابة العذر الشّهيرة، فكان لا بدّ لنا من القيام بجولة سريعة فيها قبل توجّهنا مجدّدًا نحو بيروت، لكن ليس قبل أن تدعونا المختارة لنملأ صندوقًا من التّفّاح الأحمر والأخضر، نأخذه معنا ونتقاسمه في ما بيننا.

٤. الحديث عن البلديات تكرّر في أكثر من لقاء. ومع إدراكنا لأهمية الأدوار التي قد تلعبها السلطات المحلية، في معظم الأحيان، لا تحقّق هذه الجهات طموحات واحتياجات الأفراد والمجموعات الساعية للعدالة وللتغيير، بل عادة ما تعكس هيمنة الأحزاب في مناطقها، وتكون على علاقة تنافسية مع المجتمع المدني على الموارد، وعلى علاقة صدامية مع المبادرات الحقوقية.

العودة إلى جذورنا

الزّيارة الميدانيّة الأخيرة كانت صوب البقاع، حيث انطلقنا من فرن الشّبّاك مع زميلتنا يارا أيّوب (ممثّلةً عن جمعيّة Fe-male) نحو مزرعة "بذورنا جذورنا" في سعدنايل. انضمّ إلينا كل من ليال ومروى ومحمّد من "سكّة" (صيدا)، وبولس سعد من مجموعة "طريق النّحل"، وهم مجموعةٌ من الأشخاص المهتمّين بالأعشاب المحليّة، مقرّهم بلدة بتلون في الشّوف. عند وصولنا إلى المزرعة، قام سيرج، أحد مؤسّسي "بذورنا جذورنا"، باستقبالنا وبتعريفنا بالمزرعة في جولة داخل الأرض، كما أفادنا بطرق تصميمها وإدارتها. نموذج المزرعة يختلف عن النّماذج الزّراعيّة المعتادة أو التّقليديّة. شاركنا سيرج قصّة حصولهم على الأرض من أحد مالكي الأراضي في المنطقة. في البداية، سخر منهم المزارعون المجاورون، الّذين يعتمدون بكثرة على المبيدات والمغذّيات الاصطناعيّة في محاصيلهم، إلى أن حلّت الأزمة الاقتصاديّة لتقلب الموازين؛ فهذه المواد كلّها مستوردةٌ، كما البذور، على عكس بذور مزرعة "بذورنا جذورنا".[٥]

يمكننا وصف نموذج "بذورنا جذورنا" بأنّه طبيعيّ، بحيث لا يستخدم المزارعون أيّ مواد كيميائيّة، كما أنّهم لا يقومون بفصل النّباتات عن بعضها البعض. هم مؤمنون بأنّ الأرض تغذّي نفسها بنفسها وأنّ ما يسقط أو يؤخذ من النّباتات بسبب عوامل طبيعيّة (كالرّياح أو الماشية) سيعود إليها. لا يمانعون اختلاط النّباتات ببعضها البعض، فهناك أشجارٌ ونباتاتٌ تستفيد من وجودها في الظّلم المجاور. هم يخوضون عمليّةً تجريبيّةً، مدركين استمراريّة تعلّمهم من الأرض.

بعد الغداء -الّذي تضمّن وجبةً من الخضار قمنا بقطفها- بدأ النّقاش. موضوع حديثنا الأبرز كان عن تقاطع النّضالات. اتّفق الجميع على أنّ نضالاتنا المترابطة تكاد تكون واحدةً، ليس فقط على صعيد لبنان بل على الصّعيد العالميّ. فالمصادر والموارد المتاحة محدودةٌ على الكوكب، وبالتّالي وجب علينا العمل لواقعٍ مختلفٍ. لكنّنا أيضًا نحتاج إلى تصوّر مستقبلٍ مختلفٍ عمّا يخبره واقعنا.

شرح لنا بولس، من فريق "طريق النّحل"، أنّ هدف مجموعته هو العيش على الأرض بطريقة مستدامة وأنّهم أيضًا في خضمّ عمليّة تعلّميّة ويودّون التّعرّف أكثر إلى البذور وإلى الجذور، من قصص ومعرفة ونبات كذلك. وشاركتنا يارا رؤيتها للنّسويّة البيئيّة؛ رأيها أنّ المسألتين لا تتقاطعان فحسب، إنّما تصبّان في صلب بعضهما البعض بحيث أنّنا نحارب النّظام نفسه، سواء كناشطات نسويّات أو بيئيّات أو الاثنان معًا. وذكّرنا فريق "سكّة" بحاجة الجميع إلى الشّعور بتضامن مجتمعيّ، وفي الوقت نفسه "الانسلاخ" عن الاعتماديّة على النّظام الرّأسماليّ. أبدوا أيضًا رغبتهم بالتّعلّم من الآخرين ومشاركة معرفتهم الّتي اكتسبوها من خلال "سكّة".

ختامًا، وافق الجميع على أهمّيّة بناء هذه العلاقات والخبرات والرّؤى للمدى البعيد، رغم أنّ الانهيار يجعلنا نعيش كلّ يومٍ بيومه، ويجعل التّخطيط يبدو كعملٍ مستحيلٍ أو جهدٍ مهدورٍ.

---

٥. فريق مؤسّسي "بذورنا جذورنا": وليد، سالم ، فيردي، لارا، زوي، فؤاد وسيرج.

في آخر النّهار، قمنا بزيارة سريعة لمركز شاركت في تأسيسه زميلتنا ريتّا التنوري، حيث افتتحت ورفاقها مركز "بيادر" في سعدنايل، بالقرب من المزرعة. "بيادر" يشكّل مثالاً آخر عن المساحات الجديدة الّتي بدأت تظهر في جميع المناطق، ذات جوانب ثقافيّة وتعليميّة ونشاطيّة، إضافةً إلى حديقة المركز الصّغيرة الّتي سوف يقومون بزرعها. يقدّم "بيادر" دروسًا خصوصيّةً لتلاميذ المدارس، كما ينظّم نشاطاتٍ تتناول الرّسم واللّعب والموسيقى والرّقص.

شكّلت هذه الرّحلات عودةً إلى الأرض، في الموضوعات الّتي تطرّقنا إليها، وفي اللّقاءات في الهواء الطّلق وزيارة الأماكن والمدن حيث تقوم هذه المبادرات. كانت تجربة بعض طرق التّنظيم العابرة للأجيال والمناطق والحركات الاجتماعيّة، تدفعنا نحو التّفكير أكثر في أهمّيّة تعزيز وتطوير بنى تحتيّة لعلاقات وشبكات دعم وتعلّم تربط بين المجموعات والقضايا في لبنان، وقد تمتدّ بسهولة إلى سائر المنطقة والعالم.

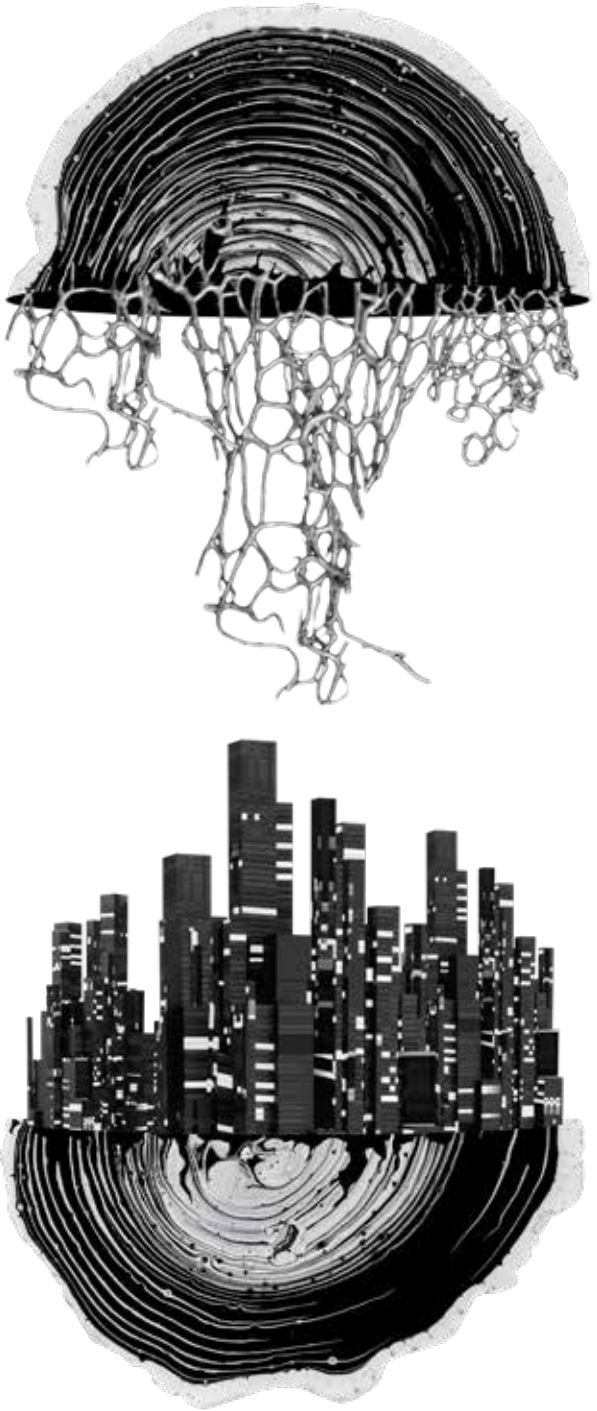

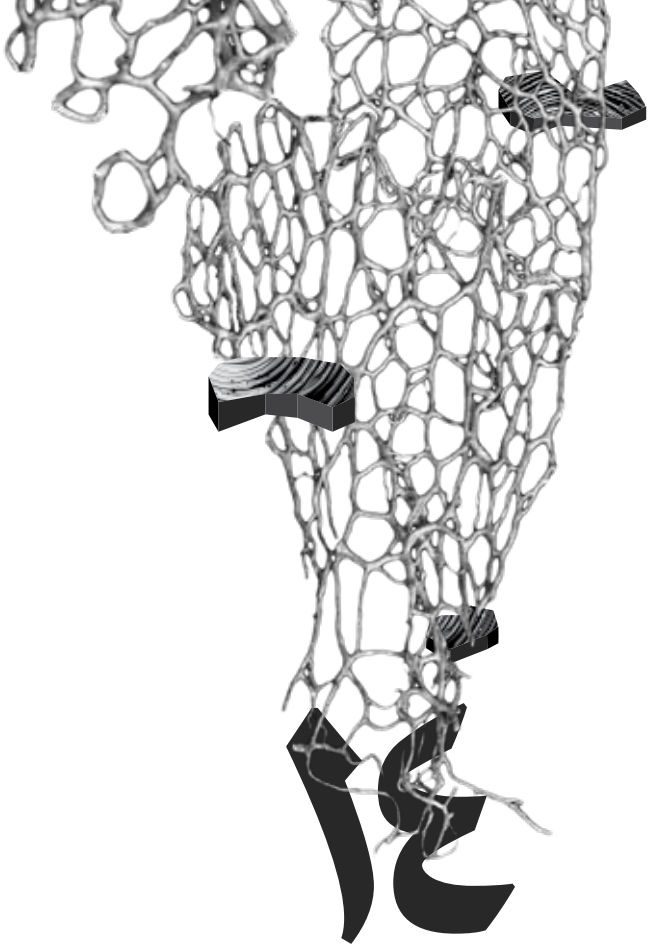

١٤

إبتسام ديب

ترجمة: ايلينا مهنا

شغوفة ببنية الطّبيعة، توازنها وتناغمها. حاصلة على ماجستير في الإخراج الفنّيّ من كليّة الفنون الجميلة في الأكاديميّة اللبنانيّة للفنون الجميلة (ALBA، جامعة البلمند)، في العام ٢٠١٤. إلى جانب التّصميم الجرافيكيّ، ينصبّ تركيزها على "صنع الفنّ مع الطّبيعة". طوّرت ابتسام مشروعها "Wildcraft" بحيث صارت تقدّم ورش عمل تركّز على فنّ إعادة تدوير الورق، بالإضافة إلى ورش الرّسم كتجربة علاجيّة. "Into the wildink" هو المكان الّذي ترسم فيه رحلتها في البراري.

INTO THE WILDINK

BY IBTISAM DIB

الحبر البرّي

حول الرّسم

كنت في السّادسة، أو السّابعة ربّما، من عمري. أذكر أنّني كنت أقف على الشّرفة بانتظار إنهاء والدي عمله في الحديقة. كنت أتطلّع إلى الأسفل، متمسّكةً بالسّياج جيّدًا، وأراقب قطرات الماء الّتي تغطّي العشب الأخضر. ثمّ، سألت بحماسٍ: "بابا، إجا فصل الشّتي؟"، لكنّه كان شهر تشرين الأوّل/أكتوبر بكلّ سحره!

بينما كنت أراقب وأتخيّل كيف سيصمد العشب الأخضر خلال فصل الشّتاء، وجدت شيئًا غريبًا لم أره من قبل. شعرت بالفضول حيال قبّعات الفطر الصّغيرة الّتي تغطّي الأرض، حول جذع شجرة قديم. فنزلت لإلقاء نظرة عن كثب، لأندهش بالطّبقات الصّغيرة المخبّأة تحتها. منذ ذلك الحين، أصبحت فضوليّةً بشأن تفاصيل الطّبيعة كلّها، وذلك بفضل قفزة الإثارة الفجائيّة الّتي شعرت بها عندما اكتشفت شيئًا جديدًا. كان الشّعور بالسّحر، وكأنّ تلك التّفاصيل الطّبيعيّة ليست من هذا العالم! أردت أن أشعر بذلك أكثر وأكثر. لذلك، كلّما سنحت لي الفرصة، كنت أركض في البراري متتبّعةً والدي للبحث عن العناصر الّتي لا أراها كلّ يوم.

جمعت أشكالًا بصريّةً في عقلي الباطنيّ، مثل الخطوط الصّغيرة في عروق الأوراق، الأنماط الّتي شكّلتها قطرات النّدى، مآبر الزّهر، أسراب الطّيور المحلّقة في السّماء وهي ترسم أشكالًا مجرّدة جميلة... وهكذا، بدأت رحلتي الفنّيّة! فرحت أترجم التّفاصيل الّتي أراقبها على الورق.

تعكس رسوماتي رحلتي في مراقبة ملمس الأشياء والأنماط الموجودة في البراري، والجمع بينها لخلق رسومات فريدة. هذا ما أسمّيه اليوم Into the wildink.[١] عندما بدأت بالخروج إلى الطّبيعة لاكتشاف تفاصيلها ومراقبتها، أصبحت امرأة هادئة. اليوم، يمكنني مقاومة الفوضى والطّاقة السّلبيّة الّتي قد تحيط بي؛ فقد تعلّمت كيفيّة التّغلّب على المشاكل بسلام. تعكس رسوماتي أيضًا صورةً في داخلي، صورة امرأة تقف في سلام وسط الفوضى وتظلّ هادئة ثابتة، تقدّر الصّمت في حين تزفر الارتباك الّذي يكمن في ذهنها. المحفّز الأوّل لخيالي هو الفطر؛ يلهمني بالطّريقة الّتي يتشكّل بها وفي تشريحه المعقّد. فكيف لك ألّا تقع في حبّ التّقوّسات والخياشيم الّتي تشبه الأخاديد؟

أعتقد أنّ الوجود الرّائع لهذا العالم المعقّد، هو شكلٌ أساسيٌّ من أشكال إلهام البشر.

---

١. حساب ابتسام على انستجرام، حيث تنشر رسوماتها وأعمالها.

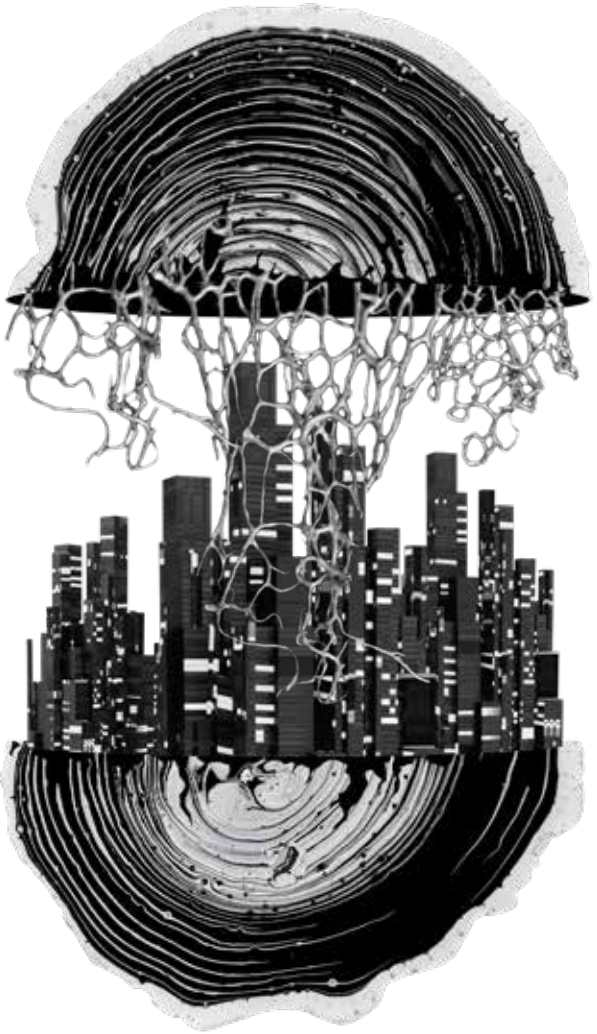

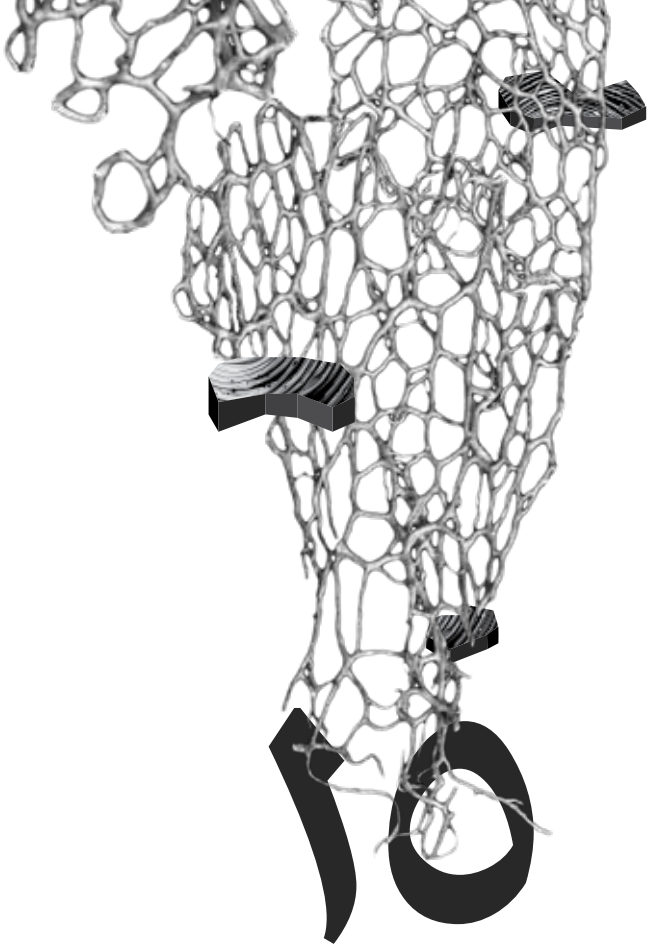

١٥

ديمة قاعدبيه

كاتبة وقارئة ومحرّرة. حاصلة على الدكتوراه في دراسات الجندر، ومديرة ورشة المعارف حاليًا.

ترجمة: مايا العمّار

في حُبّ ما لا نرى

أن نُحِبّ ما لا نرى وأن نرى ما هو غير مُستحبّ؛ أتمتّع بهذا اللّعب مع الكلمات ومع ما يبدو على أنّه تناقضات، وكأنّها رحلةُ بحث ستُفضي إلى التقاط ملء الوجود.
أن نُحِبّ ما لا نرى وأن نرى ما هو غير مُستحبّ. لكن إذا رأيناه، وإذا خصّصنا وقتًا لرؤيته فعلًا، هل يبقى غيرَ محبوب؟
لم أؤمن دومًا بما لم أرَ، ثمّ تعلّمتُ أنّنا في الواقع نتعلّم ما يمكننا رؤيته، وكيف نراه.

ما أيقظتْهُ النسويّةُ الكويريّة في حياتي كان الرغبة في التذكّر. وما قدّمته لي الإيكولوجيا وحركاتُ مناصرة الأرض كان الإقرار بالعلاقة القائمة مع ما هو غير بشري.

إنّ اللابشري هو لامرئيّ، أو قد أصبح كذلك. لم نعد نراه. إنّما هذا لا يعني عدم وجوده، بل عدم اعترافنا به وتقديره بما يكفي لأخذه بعين الاعتبار في ما نعيشه ونفكّر به. قد يعني أيضًا أننا نفصل ما هو سياسي وفكري عمّا هو لابشري. أمّا اختيارنا لما نرى وما لا نرى، فعمليّة تتأثّر بما تعلّمناه ونشأنا عليه.[١]

أحيانًا، نعم، يحدث أنّنا لا نرى كائنًا ما لأنّه انقرض، أو لأنّه مهدّد بالزوال، أو لأنّه مُتَصوّر بشكل خطأ، أو لأنّه غير مُعلن. اللامرئي هو النباتات والأشجار. هو الأرض وكائناتها. هو الأم علّي سيري (الخنافس) المنقّطة التي ملأت مشاهد طفولاتنا، والتي لم نعد نراها في حدائقنا. هو الهواء وكلّ نفس نأخذه. هو جداول المياه الصغيرة،[٢] ولكن أيضًا الخيالات والأحلام. ما لا نراه هو اللّهجات التي فقدناها في مساعينا إلى الاندماج في مجتمع آخر، وهو القصص التي اختفت مع كبْت اللّهجات. هو سيرُنا التاريخيّة. هو عمل النساء الرعائي وَالأعمال الداخلية الصامتة لأجسادنا. ما لا نرى هو مجتمعاتٌ بأكملها والأمكنة التي تسكنها.

اللامرئي هو ذلك الذي يصعب التعريف عنه أو تحديده. هو الحدس. هو المعرفة المطبوعة داخل أجسامنا. هو ذكاء الكون والكائنات، وهو الطاقة. هو ما يصل بين مواقع جغرافيّة وأجيال وأزمان مختلفة، ويربط في الوقت ذاته كل دقيقة بدقيقة.

بالنسبة إليّ، قد تصبح مصطلحاتٌ علّمتني إيّاها النسويّة، كمصطلح "التقاطعيّة"، مجرّد سمة تعريف مُفرغة من مضمونها. لكن من جهة أخرى، يبقى أنّ أحد الأمور التي علّمتني إيّاها التقاطعيّة هو رؤية

---

١. تتكلّم غلوريا أنزالدوا على وجود عنصر غير مادي فينا، نربى على أنه ليس موجودًا، فتقول: "لو كنّا تعلمنا أن نرى الأشياء بطرائق مختلفة كنّا ربما رأينا أناسًا من أبعاد أخرى جالسين على الأريكة...–عوالم متداخلة. ولكننا لا نربى لنرى بهذه الطريقة". (من كتاب Interviews/Entrevistas ص. ١٥٩، ترجمة كاتبة هذا النص).

٢. كان هناك جدول مياه صغير إلى جانب منزلنا حيث تعيش مجموعة من السلطعون، وكنّا نجدها أحيانًا تتنقّل داخل بيوتنا، أمّا اليوم فقد انقرضا معًا؛ السلطعون، ومجرى المياه الذي تحوّل إلى مصرف للمجارير.

ما لا يريد المجتمع المهيمن أن يراه، لا سيّما حين تتداخل أكثر من هويّة أو خانة من دون أن يعترف بها أو بإحداها القانون أو الممارسات الاجتماعيّة.[٣] المنطق نفسه يمكن استحضاره لدى ملاحظة أبعاد وجوانب أخرى لم نتفاعل معها جديًّا بعد. هناك أمثلة عدّة عن ذلك، كالروحانيّة، أو علاقتنا بعوالمنا الداخليّة والعالم الخارجي الأوسع، بما فيه الحيوات البشريّة وغير البشريّة، على امتداد الزمن. إذًا، قد تكون النسويّة والنسويّة الكويريّة هما اللتان علّمتاني بالفعل أن ألتفت إلى اللامرئي، وإلى اللابشري: النسوية كعدسة ننظر عبرها إلى الناس، والعلاقات، والرغبات، والهويّات، والعمل، وإلى أنظمة كاملة لطالما شكّلتْ جزءًا راسخًا من معادلات حياتنا. رغم أنها ليست المرّة الأولى التي أتعلّمُ فيها هذا الدرس...

هنا تناقضٌ آخر: أهجرُ تعريفي الخاص بنفسي كنسويّة من دون أن أهجره حقًّا.

منذ حوالى خمس سنوات، وجدتُ نفسي غير متعلّقة بِسِمَة "نسويّة" وبعيش حياتي تحت مظلّة هذه الكلمة.

الشخص الأوّل الذي شاركتُه هذه الملاحظة كان معالجتي النفسيّة، وكانت متفهّمة جدًّا. وافقتُ معها حين علّقتْ: "لقد أخذتِ ما كنتِ تحتاجينه من النسويّة". فهناك أدوات ولغات وأطر عمل أخرى، وحياة بأكملها، تنتظر أن تستكشفيها.

لم أتحدّث في هذا الموضوع مع شخص آخر لفترة. ربّما لأنني شعرتُ بأنَّ فيه اعترافًا كان من الصعب أن أبوح به. فصداقاتي، وخبزي اليومي، والاتّجاهات التي اتّبعتُها في حياتي، كلّها تمحورت، طيلة أكثر من ستّة عشر عامًا، حول النسويّة والفكر النسوي. كما أنّ الموضوع لم يسبق له أن أُثير في الأحاديث من حولي. لكن ذات يوم، أُثير الموضوع.

كانت صديقةٌ لي تصف ما كانت تمرّ به، مازحةً، بأنّه حالة "ما بعد النسويّة". كنّا في منتصف الثلاثينيّات وأواخرها من عمرنا، وكنّا نكابد أزمات "شخصيّة" امتدّت لأعوام، قد يضعها بعضهم في خانة تحدّيات الصحّة النفسيّة؛ لكنّها فعليًّا كانت تتعلّق بمسارات نموّنا كنساء. لن أروي قصّة صديقتي هنا. باختصار، أعتقد أنّها حين كانت تمرّ بأصعب أيّامها، لم تكن النسويّة، كتنظيم أو كخطاب، هي الحبل الّذي كانت تَمسك به لئلا تغرق. في الواقع، أشارت صديقتي إلى أنّ الناشطين/ات عمومًا، ومن بينهم/هنَّ

---

٣. كمبرلي كرنشو هي مَن قدّمت مصطلح "التقاطعيّة" في معرض تحليلها العرق والجندر في الممارسات القانونيّة داخل الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث عرضت حالات حرمت فيها المحاكمُ نساء سودًا من حقوقهنّ، لأنّ القانون تعامل معهنّ إمّا كنساء فقط، وإمّا كأشخاص سود فقط. في المقابل، أتذكّر ما قالته لي امرأة بيضاء شابّة، أيضًا في أميركا: "أنا لا أرى العرق". تعني جملتها أنّها، وفي محاولة منها ألا تكون عنصريّة وألا تتعامل مع تاريخ الولايات المتّحدة العنصري، اختارت التعامي عن الأعراق. فهذا كان، بالنسبة إليها، الخيار الأسهل الذي تعلمت أن تتبنّاه. وفي قصّة مختلفة إنّما شبيهة بشكل ما، أصرّت زميلة لي في بيروت على أنّها لا تنظر إطلاقًا إلى دين شخص آخر أو طائفته لأنّها تريد تحطيم النظام الطائفي، وتطالب بألا يظلّ هذا النظام هو العامل المهيمن على حيواتنا السياسيّة والشخصيّة، وأحيانًا المهنيّة أيضًا.

الناشطات/ون النسويات/يّون، قد حفروا/نَ خنادقَ داخل مساراتنا "السياسيّة" التي حالت دون أن نقدّم الدعم اللازم لبعضنا بعضًا؛ لا بل صرنا نحاكم بعضَنا على ما نقوله وأسمّيْنا ذلك سياسة، في الوقت الذي كان في الحقيقة أقرب إلى المراقبة البوليسيّة.

كنتُ أيضًا أخوض مسارًا داخليًّا طويلًا ومؤلمًا من أجل إعادة إنماء نفسي المنكمشة على ذاتها. ولمّا كانت القراءة دومًا سبيلي إلى التعامل مع الحيرة الوجودية، هنا أيضًا، لم أبحث عن تلك النصوص النسويّة التي كانت تُغذّيني في العشرينيات من عمري. هذه المرّة، اتجهت مباشرة نحو كتابات تدور حول الروحانيّة، وكتابات حول الطبيعة والإيكولوجيا ترتكز إلى سرديّات المجتمعات الأصليّة[٤] التي اتّبعت روحانيّة تقوم على الترابط وعلى التعلّق بالأرض وعناصرها.[٤] وكلمة "تُغذّيني" هي أساسيّة هنا. تُغذّيني وتُشبعني. فالمسألة كانت بمنزلة جوع لا يمكن إشباعه باللّغة أو بالممارسات الناشطيّة والنسويّة من حولي. كنتُ أبحث عن شيء يعير التفاصيل اليوميّة اهتمامًا، وأيضًا الفِكَر التي تجول في خاطري والمشاعر الكامنة في ذكرياتي، أو التي هي أقدم منّي. ولكن كنت أبحث عمّا هو أوسع بعد: فهذه الأفكار والمشاعر تعكس عالمنا، من بشاعة وإمكانات؛ تعكس الآني وكيفيّة تكوّنه عبر الزمن، وتعكس كذلك تصورات وقدرات وأحلامًا ومشاعر خارج الواقع الآني، قد تكون من مكان وزمان آخرَين. كنتُ أحتاج إلى أدوات تساعدني على القبول بشكل كامل والتغيّر بشكل جذري، وهذا كان أصعب أمر: فكرة التقبّل الكلّي كبدء لأي تغيير. كنت بحاجة إلى أدوات تتيح لي التعامل مع التناقضات، مع أنني في الوقت نفسه صرت أعرف بشكلٍ أوضح مَن أنا وماذا أريد.

مع ذلك، لم أجد مصطلح "ما بعد النسويّة" ملائمًا، على الرغم من أنّ استخدامه من قبل صديقتي أكسبها ثلاث أو أربع متابعات جديدات، جميعهنّ نسويّات حتّى العظم، لكنهنّ شعرن أيضًا بمحدوديّات الخانات. وحال صديقتي كحالي؛ فهي التجأت إلى النسويّة من أجل تعميق فهمها للعالم وتجهيز نفسها بشكل أفضل للمعارك ضدّ عنف النظام الأبوي. ولا نزال ملتزمتَين بذلك.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الكتابات الروحيّة التي تعطّشتْ نفسي إليها: فتلك النّصوص وكتّابها استفادوا/نَ من النسويّة التي لم تكن شيئًا يمكن طرحه جانبًا ونقله إلى مرحلة الـ"ما بعد".

في تلك الفترة، تعرّفت إلى إطار عمل لمسار دائري يساعدنا في إحراز التقدّم في حياتنا واتّخاذ القرارات النابعة من مسارات طبيعيّة لنا، وهو إطار طوّرته إيدجاي أوداي وسامية أبو سمرا معًا. وقد دعتا إحدى مراحل هذا المسار: الحكمة/الإدماج.[٥]

---

٤. بعض الأمثلة يتضمّن: Caroline Myss, Brene Brown and Pema Chodron; Robin Wall Kimmerer and Terry Tempest Williams

٥. Turtle Tank/ School for Radical Purpose. (2019, October 8). Part 4 /https://www.facebook.com/turtletankschool/videos/938661746495588

الجدير بالذكر أنني استفدتُ كثيرًا من حواراتي مع سامية ولا أزال، وقد ساعدتني في بلورة كثير من الفِكَر الواردة في هذا النص.

هذا هو المصطلح الذي كنتُ أبحث عنه؛ لا الـ"ما بعد"، إنّما الإدماج: أن نستقي الدروس والحِكَم ممّا مررنا به وأن ندمجها في مَن سنصبح. هكذا، دمجتُ النسويّة في حياتي، عوضًا عن أن أتحوّل بنفسي إلى سمة تعريف قائمة على هويّة واحدة تفترض مَن أكون وكيف أفكّر وماذا أقدّم للعالم.[٦] لستُ بحاجة إلى سمة تعريف واحدة تشمل سائر السمات والصفات.[٧] أودّ التوقّف عن اعتماد مقاربات جاهزة، والتوقّف عن افتراض أنّني أعرف. وفي الوقت نفسه، أودّ الاستمرار في استخدام مَن أكون وما أعرف بشكل مفيد. وبما أننا قد رُمينا في خضمّ حالات انهيارٍ جماعي شديدة القسوة في لبنان، لم نعهد لها مثيلاً على امتداد تاريخنا الحديث، نحن نتعلّم كيف نُعيد تقييم لغتنا، وهويّاتنا، وممارساتنا، وسياسات نجاتنا، والروح التي تدفعها.[٨]

نحن بحاجة إلى إدماج النسويّة في التحليل والممارسات هنا وحول العالم أكثر من أي وقت مضى. فازدياد العنف واللامساواة يضاعف الحاجة إلى الأدوات والأخلاقيّات النسويّة. ونحن نصارع الحاضر بينما نحمل في الوقت ذاته موروثًا ثقيلًا من العنف والكبت والتحريم، عابرًا للأجيال، في سياق وتاريخ مُشبَعَين أيضًا بالقمع والاستغلال وهدر الدماء. لذلك، نحن بحاجة إلى كلّ الأدوات والممارسات والأطر الممكنة التي تغوص في هذا الإرث، بصدقٍ وتعاطف،[٩] وتعيد النظر في ما يربطنا مع بعضنا ومع تاريخنا، خاصة الروابط التي لا نراها بسهولة.

من هنا، أجد نفسي مستعدة أكثر من أي وقت مضى للخروج من مساحات الأمان التي اعتدتها والسعي أكثر إلى إدماج وجهات نظر وعوالم أخرى وأطر جديدة، أو التحدّث عنها أكثر. وفي كثير من الأحيان، هذه الصيغ الجديدة هي وجه متجدّد لأدوات قديمة تساعدنا في فهم مكانتنا في العالم، وتعيدنا إلى أنفسنا، أو إلى جزء من أنفسنا قد ابتعدنا منه. بالنسبة إليّ، بدأت هذه الرحلة حين عدتُ بذاكرتي إلى الوراء، فاسترجعتُ مشاهد نموّي خلال طفولتي بالقرب من الأشجار والأرض والصخور، بقدر نموّي مع عائلتي، وفهمتُ أنّ تلك الذكريات لا يمكن أن تُقتطع من حياتنا.

٦. ليس في معنى المقولة التي كنتُ أسمعها كثيرًا قبل نيل كلمة "النسويّة" شيءٌ من القبول على الأقل بين الناشطين/ات، إذ كانت هذه الجملة تتردّد دائمًا: "لستُ نسويًا/ة، إنما أنا إنسانوي/ة " (I'm not a feminist, I'm a humanist). صحّحوني إذا كنتُ على خطأ، ولكن إن لم تدمجوا النسويّة في إنسانويّتكم، فمن المحتمل جدًا أن تكونوا ذكوريّين/ات في مكانٍ ما.

٧. مع العلم أنّ هناك مفكّرين/ات وناشطين/ات وروحانيّين/ات وكتّابًا وكاتبات طوّروا/نَ أدوات نسويّة مهمّة تعالج مجالات ومفاهيم تهمّني وتفيدني، مثل الروحانيّة النسويّة، والعلاج النفسي النسوي، وكذلك النسوية البيئية، إلخ.

٨. أشكر زميلتي أزاده فرامرزي ها التي كشفت لي كيف أننا بشكل عام كنسويات في بيروت أو لبنان اليوم، قد نكون أقل تمسكا بتعريف أنفسنا كنسويات للعالم، وأكثر اهتمامًا بكيفيّة تقديم الدعم لبعضنا ولمجتمعاتنا.

٩. مع وجود كل العواطف الأخرى بالطبع، من غضب وحزن وحيرة، وربما فخر وحس بالانتماء، كذلك حين نغوص في تاريخنا، ولكن هذا لا يمحو ضرورة الصدق والتعاطف في مقاربتنا.

في تذكّر المنسي

هل تمسّك بعضنا بالنسوية كنوعٍ من ديانة، وروابط روحية تجمعنا حول قضية وهوية وقابلية لحياة أخرى؟ كانت النسوية أيضًا مجالًا يتيح لنا الهرب وتجاوز محدوديّات الأمكنة التي نشأنا فيها والأشخاص الذين كان من المفترض أن نكونهم. ثم قرأت Braiding Sweetgrass للكاتبة روبين وول كيميرير،[١٠] وشعرت بأنّ الأرض والعمل معها هما الدين الأوّل والروحانيّة الأولى.

صديقتي ومرشدتي سامية كانوا أوّل مَن عرّفني إلى النسويّة البيئيّة والروحانية في العامين ٢٠٠٨–٢٠٠٩ من خلال وينونا لادوك وفاندانا شيفا وليندا هوغان وجاكي م. أليكسندر، ومن خلال الأطر الفكريّة للمجتمعات الأصليّة عمومًا. قلبَت تلك المعرفة حياتي ١٨٠ درجة، وكان هذا التحوّل بمنزلة عودة أيضًا.

في تلك الفترة، كنتُ أنتمي إلى "المجموعة النسويّة" في بيروت، والتي ستتحوّل مع الوقت إلى منظمة "نسوية"، المؤسسة التي لمع نورها سنوات قليلة. في أوائل أيام "المجموعة النسوية"، طلبَت مني نادين معوّض، زميلتي التي كانت تقود المجموعة، أن أكتب سلسلة "أوراق موقف" تطرح قضايا عدّة كنّا نعالجها أو ندعمها. واحدة من تلك القضايا كانت "مناصرة البيئة" بوصفها قضيّة نسويّة. لا أذكر مَن اقترح فكرة إدخال المناصرة البيئيّة (قد تكون أنا)؛ لكنّني أذكر أنّها كانت أكثر ورقة موقف استمتعتُ بصياغتها. عَنْونتُها: "الأرضُ أنثى"، وفي ما يأتي مقتبس ممّا جاء فيها، أورده هنا لوجه الذاكرة:

> "إنّ هذا الجمع [بين النسويّة ومناصرة البيئة] من شأنه أن يساعدنا في تشكيل فهم أفضل لكيفيّة عمل النظام الأبوي الرأسمالي، وبالتالي كيفيّة مقاومته وتقديم طرائق عيش بديلةً مبنيّة على الترابط الجماعي عوضًا عن هيمنة مجموعة على أخرى. فجميعنا بحاجة إلى المياه والأرض والهواء. جميعنا متّصلون/ات بالأرض ومُعتمدون/ات عليها لننجو وننمو... علينا أن نتعلّم احترام التنوّع البيولوجيّ في الطبيعة، بما فيه مناحي الاختلاف بين البشر على صعيد الجندر، والعرق، والجنسانيّة، والطباع، إلخ. علينا أن نفهم أنّ "الحرب على الطبيعة هي حرب على النفس" (لادوك، ١٥٥)،[١١] وأنّ شفاء مجتمع ما (ومجتمعاتنا والنساء فيها بشكل خاص بحاجة إلى كثير من الشفاء)، يعتمد على استعادة عافية علاقتنا بأجسادنا وبيئاتها".

مع أنّني اليوم قد لا أربط بالضرورة جندر الأرض بالأنثى، ولربما هذه النظرة إلى الأرض كأنثى ليست شائعة حولنا بالقدر نفسه كما في بعض المجتمعات الأصلية في أميركا الشمالية، على سبيل المثال. وهنا يمكننا أن نسأل: هل نحن نحدّ الأرض وكائناتها بهويات جندرية قمنا كجنس بشري بإنتاجها؟[١٢]

---

١٠. Kimmerer R. W. (2015). Braiding Sweetgrass: Indigenous Wisdom, Scientific Knowledge and the Teachings of Plants. Minnesota: Milkweed Editions

١١. LaDuke, W. (1999). All Our Relations: Native Struggles for Land and Life. Massachusetts: South End Press

١٢. أشكر صفاء ط. على طرح هذا السؤال.

ولكنني في الوقت نفسه، أستطيع أن أتفهّم بعض الأشخاص الذين نسجوا هذا الربط بين النساء والطبيعة، أو الّذين يؤمنون بأنّ "الأرض هي أمّنا".

لستُ أدري إن كنتُ تبنّيتُ لنفسي وبالكامل سمة "نسويّة-بيئيّة" في وقتٍ ما، علمًا أنّه كان واضحًا بالنسبة إليّ أنّ النسويّة البيئيّة تشكّل أرضيّة عمل ضروريّة، وأنا مقتنعة بأنّ الربط بين هاتين الحركتَين يقدّم فِكَرًا وممارساتٍ مهمّة (أو يعترف بها ويثبتها)؛ هي فِكَرٌ وممارسات نحن بأمس الحاجة إليها في حاضرنا اليوم.

تشجّع النسويّة البيئيّة على إيجاد أطر عمل وتطبيقاتٍ قادرة على رؤية العلاقات المتداخلة والمتزامنة بين الشخصي والتفصيل، وبين الممنهج والعالمي والترابط بينها؛ فالأمر يتعلّق بعلاقتنا بالأرض والأشجار والبحار، ويتعدّاها. إنه أيضًا يشمل القوى التي تُشرّع كل أنواع العنف والاستغلال، وتُضيّقُ الأرض وتخصخصها لتقطع علاقتنا بها، وتلوّث المياه أو تحتكرها ومن ثمّ تجني الأرباح منها. ولكننا أيضًا جزءٌ من طبقاتٍ أخرى من هذه القصّة التي تُجسَّد وتُلمَس في كلّ الفضاءات، بما فيها طبيعتنا البشريّة، والمدّ، والجَزر، والمواسم.

هذا بالتحديد ما يهمّني إيجاده أكثر، في مساحاتٍ تتقبّل أبعاد المواضيع وثناياها، وتفتح مجالًا لأسئلة حول ما يتعذّر تعريفه أو لمسه بسهولة، وتأخذ بعينِ الاعتبار الذكاء الكامن فينا وفي ما حولنا، ومن ضمنه ما هو لابشري ولامرئي. وأيّ سبيل آخر للتعلّم والنمو – وأنت تحاولين فهم الأمور أكثر – حين يكون هناك مسدّس مصوّب على عقلكِ، سواء كان مسدّسًا داخليًّا، أم نارًا صديقة أو عدوة؟

الحبّ هو أن نرى. الحب هو أن نبوح.

سأبوح بالآتي: بقدر ما صقَلَتِ النسويّة فكَري، أدخلت أيضًا نساء وأشخاصًا رائعين/ات إلى حياتي، أشخاصًا هم السحر بروحهم وذكائهم، ونساء رأيْنني على حقيقتي.

إنّما الأشجار رأتني أوّلًا.

كانت الأشجار صديقتي خلال طفولةٍ كنتُ فيها بلا أصدقاء. قُدّر لي أن أكون طفلةً تميل نحو الانعزال ونحو استكشاف مشاعر بدرجات مختلفة من "البؤس الطفولي" الذي امتدّ أيضًا نحو سنوات المراهقة الطويلة. لكنّ الأشجار رأتني، أو أنّها كانت صوت الـ"أنا" الذي رآني. كانت الحكمة التي في داخلي، أو كانت ببساطة الحكمة وحسب: "لا تقفزي، ستكون الأمور على ما يرام"، قال لي الصوت "الآتي" من العريشة. كنتُ أغوص في هذا البؤس بينما أقف على سطح حيث تسلّقت العريشة من الحديقة في الأسفل وصنعت بأغصانها خيمةً على سطح البيت استقبلت الجلسات الاجتماعيّة، وتأمّلاتي الوحيدة.

في رؤية غير المحبوب

إنّه الشتاء. استغرق وقتًا طويلًا ليصلَ هذا العام. يُقال أنّ اليوم بالتحديد، في موسمنا الشتوي الحالي، هو الأبرد حتّى الآن. مَن هم اليوم في السلطة وضعونا في منافسة مميتة مع الأشجار: إمّا حياتها وإمّا حياتنا، نحن المتجمّدين/ات من البرد. الكهرباء الرسميّة نادرًا ما تأتي، والمازوتُ باهظُ الثمن، ومولّدات الكهرباء الخاصّة تُشغَّل طيلة النهار أو لبضع ساعات فقط، تبعًا للمنطقة التي نعيش فيها. وسندفع ثمن اعتمادنا على المولدات، اليوم وفي السنوات القادمة، بتلوّثِ الهواء وتعريضِ صحّتنا للخطر.

نحن نعرف المسؤول عن الحالة التي وصلنا إليها اليوم ونراه أيضًا، أو بالأحرى ليس بمقدورنا أن نراه فعليًا؛ فنحن لا نتواصل بشكل مباشر مع أولئك الذين يصنعون القرارات ويديرون المصارف والأحزاب والميليشيات. نُحارِب ونُحارَب من قبل أولئك الذين يؤدّون عملهم، مثل موظّفي/ات الصندوق في المصارف، وموظّفيَ/ات الدولة، والرجال الغاضبين أصحاب الهاشتاغات التافهة على تويتر، وحاملي الأسلحة في الشوارع.

نرى بعض الأشخاص يُحوّلون انتباههم إلى مساحات أخرى غير مرهونة بسلطة هؤلاء الذين خلقوا نظامًا حوّل حياتنا إلى مسعى نجاة مستمر؛ فوضعيّة النجاة هذه تجعل تركيزنا محصورًا بالفرد، والعائلة، والبلدة،[١٣] والطائفة فقط، وتؤدّي إلى ميل غريزتنا الجريحة والمغتاظة إلى جحد، بل ومحاربة أي شخص لا ينتمي إلى هذه الجماعة؛ فالروابط الأخرى لن تُعيننا الآن، ولن يعيننا (أو يعنينا) الحدّ من تلوّث نهر أو جفافه، ولا التّوقف عن اصطياد عصفور أو ضبع.[١٤] تُحوّل حالة العيش في هذه الوضعيّة قدرتَنا على امتلاك سيّارة والوصول إلى غالون بنزين من محطّة وقود أو إلى تأشيرة دخول إلى بلد آخر أو إلى عمل مردودُه بالدولار، إلى تهمة، إلى سببٍ لجلد أنفسنا، بدلًا من جعلها تمدّنا بالطاقة والمسؤولية والموارد التي تمكّننا من العمل معًا لضمان عيش الجميع ونجاتهن/م، والتأمّل في مقاربات قديمة وجديدة تخرجنا من هذا النظام المنهار.

خلال اجتماعات نسويّة حضرتُها منذ أشهر في بيروت، ظلّت "ر."، وهي صبيّة عشرينيّة، تردّد كلمات كنت أشعر بها أيضًا، ولا أستبعد أن عددًا كبيرًا من الموجودات تشاركني فيها، حين قالت: "أنا هون لأن إذا سألوني بالمستقبل شو كنت عم بعمل خلال الإنهيار، ما بدّي أبدًا يكون جوابي: ولا شي".

يكرّر حبيب معلوف في كتابه حول الفلسفة البيئيّة فكرة أنّ العدالة البيئيّة ليست مسؤوليّة تجاه أنفسنا كبشر وفي الوقت الحاضر وحسب، إنّما هي مسؤوليّتنا تجاه الحياة النباتيّة والحيوانيّة أيضًا، ومسؤوليّتنا

---

١٣. هل تتذكرين تلك الفترة التي كانت فيها محطّات الوقود ترفض تعبئة سيّارتك إلّا في حال تأكُّد موظّفيها، من خلال بطاقة هويّتك، من أنّك تنتمين إلى البلدة، وكنّا غالبًا ما نرى شخصًا غاضبًا من نجاح "غريبٍ" أتى من منطقة قريبة في تعبئة سيّارته قبله؟ هذا ما حوّلتنا السلطة إليه.

١٤. Brennan, S. (2018, Nov. 28). Lebanese groups work to protect striped hyenas. from Al-Monitor: https://www.al-monitor.com/originals/2018/11/lebanese-striped-hyena-under-threat.html

الأساسيّة تجاه الأجيال القادمة.[١٥] بإمكانك فهم هذا أيضًا بأنه معالجة للأمور حتى لا تتكرّر معك في حياة ثانية، أو كمسؤوليّة دور لك بوصفك سلفًا مستقبليًّا لأجيال قادمة، أو دور لك في تأسيس عالم أفضل لأسلافك حين تصبح/تصبحين أنت أهلهم.[١٦]

لم أكن يومًا مهتمة باختبار الأمومة/الوالديّة أو بإعادة إنتاج الروابط العائليّة، ولذلك، احتجتُ إلى وقتٍ أطول لفهم مسؤوليتنا تجاه الأجيال اللاحقة، إذ كانت دائمًا تصلني بصيغة الأهل الّذين ينجبون الأطفال، كما أنني كنت يافعة أكثر ولم يكن هناك داعٍ للتفكير في الأجيال المستقبلية. لكن ما نحن أمامه اليوم لا علاقة له بالروابط الدمويّة، ولا يتّصل بالعَلاقات البشريّة حتّى. ما نحن أمامه هو عنّا جميعًا. في الأيّام التي أجد صعوبةً في النهوض من السرير، تُشعل الفكرة الآتية شرارة صغيرة في داخلي: قد لا أستطيع رؤية أي تأثير الآن، غير أنّ العمل الذي ننجزه اليوم والعلاقات التي نثابر على بنائها، سيصبّان في صالح المستقبل، حالُهما حال القصص التي نخلق لها المساحات لتُوجد. أعود إلى جملة لسامية أبو سمرا وإيدجاي أوداي: "إنّ تكرار ...الطقوس ينقش نظامًا معيّنًا".[١٧] إذًا، كيف نخصّص الوقت ونخلق طقوسًا فردية وجماعية تخلق بدورها مع الوقت نظامًا عادلًا يُعيد إنعاشنا، ويهتم بحيواتنا جميعًا؟ أعرف أنّ كلمة الروحانية قد تذكّرنا بالدين وبالتالي بالطائفية والأبوية، وأدرك أنّ الوضع الحالي في جزئه الأكثر قساوة هو أزمة اقتصاديّة–مادية، وسلب مجتمع قدرته على الوصول إلى الغذاء والمسكن والدواء. ولكن لا يمكن أن أغض النظر عن جانب آخر من هذا الواقع، يقوم على الروابط، وعلى التذكّر، وعلى الاحتمالات و"المستحيلات" التي نشعر بها ولم نَرَها بعد.

في صباح الاثنين الفائت، استيقظتُ وفي بالي فكرة أخرى غريبة على يوم كالاثنين، لا سيّما أنّه كان يومًا باردًا لم يُشغّل فيه مولّد الكهرباء سوى ساعة مرّت بسرعة في الصباح الباكر. كانت تلك الفكرة صوتًا يشبه صوت الأشجار الذي عرفته خلال طفولتي: "ستكون الأمور على ما يرام"، قال لي الصوت. لستُ أدري إذا كان المقصود في ذلك أنّ الطقس لن يعود باردًا إلى هذا الحدّ بعد أسابيع وأشهر قليلة – وهو أمر تمليه علينا قاعدة الفصول الطبيعيّة – أو أنّنا سنجتاز هذه الأزمات التي نصطدم بها الآن، وأنّ يومًا ما، كلّ ذلك سيغدو ذكرى بعيدة.

---

١٥. معلوف، ح. (٢٠٠٢). على الحافة: مدخل إلى الفلسفة البيئية. بيروت: المركز الثقافي العربي.

١٦. في "التائهون" يكتب أمين معلوف: " أنا ابنُ كل سلف من أسلافي، وقدري أن أكون كذلك، بدوري، والدهم اللاحق" (ترجمتها إلى الإنجليزية كاثرين تيميرسون في Origins، والترجمة إلى العربية لكاتبة هذا النص).

١٧. (تيرتل تانك/مدرسة الهدف الجذري، درس حول القيادة المقدّسة، ٢٥ تشرين الأول ٢٠١٩)
Turtle Tank/ School for Radical Purpose. (2019, October 25).
Free Class: Sacred Leadership. https://www.facebook.com/turtletankschool/posts/2482701082006273?__cft__[0]=AZVDaxXyRO5r5yNH4p3h3YBmSuqrBOGqq-lD3mH9BaXbb60nbgSq1ANQe4TpY-QAt6S1p7yUt4P3GAymPZkTBUVsKi03Us8vymv8DdEuLW6fTOx7K9jjGUeBta5csq7vU6L6ssp9Di4HRP_Bp0YvmWwtIWa6TjUGMWz_nwGLeQWLxHSHhaBVqxXPg_fXNndliwQ&__tn__=%2CO%2CP-R

ولكن لا يعني هذا أنّنا سنتخلّص من الدروس التي تعلّمناها والمشاعر التي انتابتنا خلال السنوات التي نعيشها في الوقت الحاضر: خيبتنا بعد الاستفاقة من الأوهام تجاه النظام، وطرائقِ عيشنا، وحول معظم علاقاتنا، وافتراضاتنا التي حَدَدْنا أنفسنا وغيرنا بها، والأشخاص الذين رحلوا أو أرحلوا. آمل ألّا نهرع إلى النسيان، أو إلى العودة إلى ما كنّا عليه سابقًا.

آمل أن يصبح هذا كلّه حكمة ندمجها في قصصنا ونتذكّرها فيها. سنظلّ هنا لنتذكّر، والأشجار ستبقى هنا أيضًا لتشجّعنا على السير قدمًا.

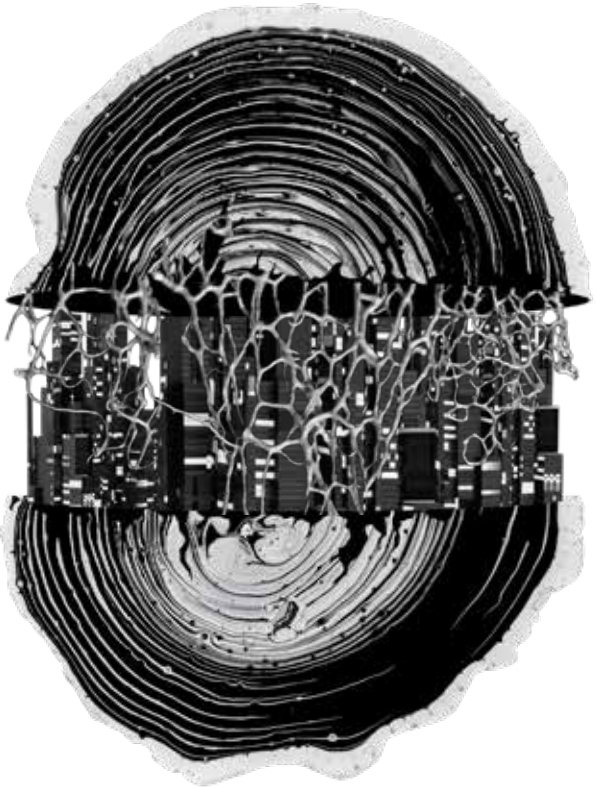

وصلة

إشراف فني: كارن كيروز

في تشرين الأوّل ٢٠٢١، نظّمت "ورشة المعارف" جلسةً حول المطويّات (zines). والمطويّات هي مطبوعاتٌ (مجلّات صغيرة) ينتجها الأفراد أو المجموعات عادةً بموارد محدودة وكلفة قليلة، قد تقتصر في بعض الأحيان على أوراقٍ وأقلام. فالمطويّة هي من طرق النّشر البديلة، ويستعملها النّاشطون/ات لنشر أفكارٍ ومواقف ومشاعر بطرقٍ مختصرةٍ وخلّاقة.

ونظرًا لاهتمامنا بقضايا الأرض والبيئة من منظورٍ نسويّ، هدفت هذه الورشة إلى إنتاج مطويّة ترتكز على علاقتنا مع الأرض والطّعام وبأجسادنا، وتنظر في مواضيع مثل الانتماء (أو عدم الانتماء) إلى الأرض وجسمنا وبيئتنا، وكيف نعبّر عن مشاعرنا ومشاكلنا من خلال الأكل، وعلاقتنا بقصص أسلافنا حول الأرض والأماكن الّتي تشكّل جزءًا من هويّتنا.

حصلت ورشة العمل هذه بالتّعاون مع الباحثة سهيلة شربجي، الّتي قدّمت لنا في أوّل الجلسة عن تاريخ المطويّات بشكل عامّ، وفي لبنان والمنطقة النّاطقة بالعربيّة بشكلٍ خاصّ. ثمّ، بدأت المشاركات بصنع مطويّة مشتركة تحت إشراف الفنّانة كارن كيروز الّتي جمعت أعمال المشاركات وأعدّتها كمطويّة.

نقدّم هنا المطويّة النّهائيّة الّتي أتت تحت عنوان "وصلة".

وصلة

ورشة المعارف

خلال ورشة العمل ، تعرّفنا على المطويّة وصنعنا «وصلة» ، مطويّة مشتركة تتمحوّر حول علاقتنا بالأرض وما تنتجه ، والطعام الذي نستهلكه . بعض الأسئلة التي استكشفناها بشكل جماعي وخلّاق خلال الورشة : كيف نرى علاقتنا بالطعام كجزء من انتمائنا للأرض؟ كيف نعبّر عن هذه العلاقة؟ كيف تنعكس هذه العلاقة على علاقتنا بأجسادنا؟ ماذا نعرف عن حكايات وممارسات جدودنا عن الأرض وكيف تساعدنا على تصوّر بعض أشكال التعافي والتوازن مع محيطنا ، مع أرضنا وأكلنا؟ ما هي بعض الطرق للتنظيم والتشبيك حول هذه المواضيع والأحاديث؟

المشاركات – حسب ترتيب الظهور :

يمان طعمة

زينب ديراني

مهاد حيدر

سهيلة شربجي

روجينا عبد الخالق

ماري جان مالك

لمى سلطاني

رهام قنوت رفاعي

ريما ريما

غدير غمراوي

هل اشتاقت لي الشجرة؟

ليمان طحيمة

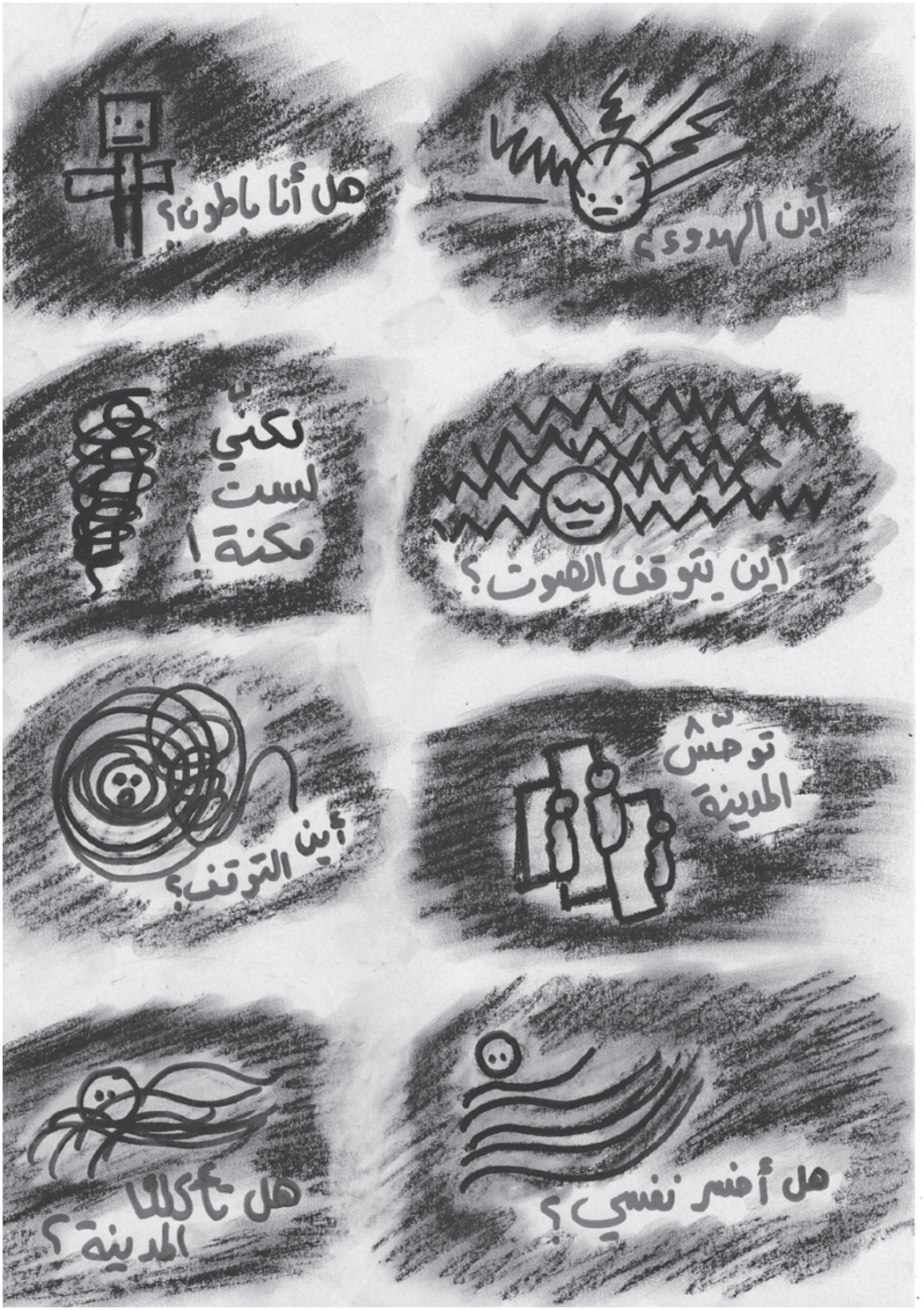
هل أنا باطون؟
أين الهدوء؟
لكني لست مكنة!
أين يتوقف الصوت؟
توحش المدينة
أين التوقف؟
هل أفسر نفسي؟
هل تأكلنا المدينة؟

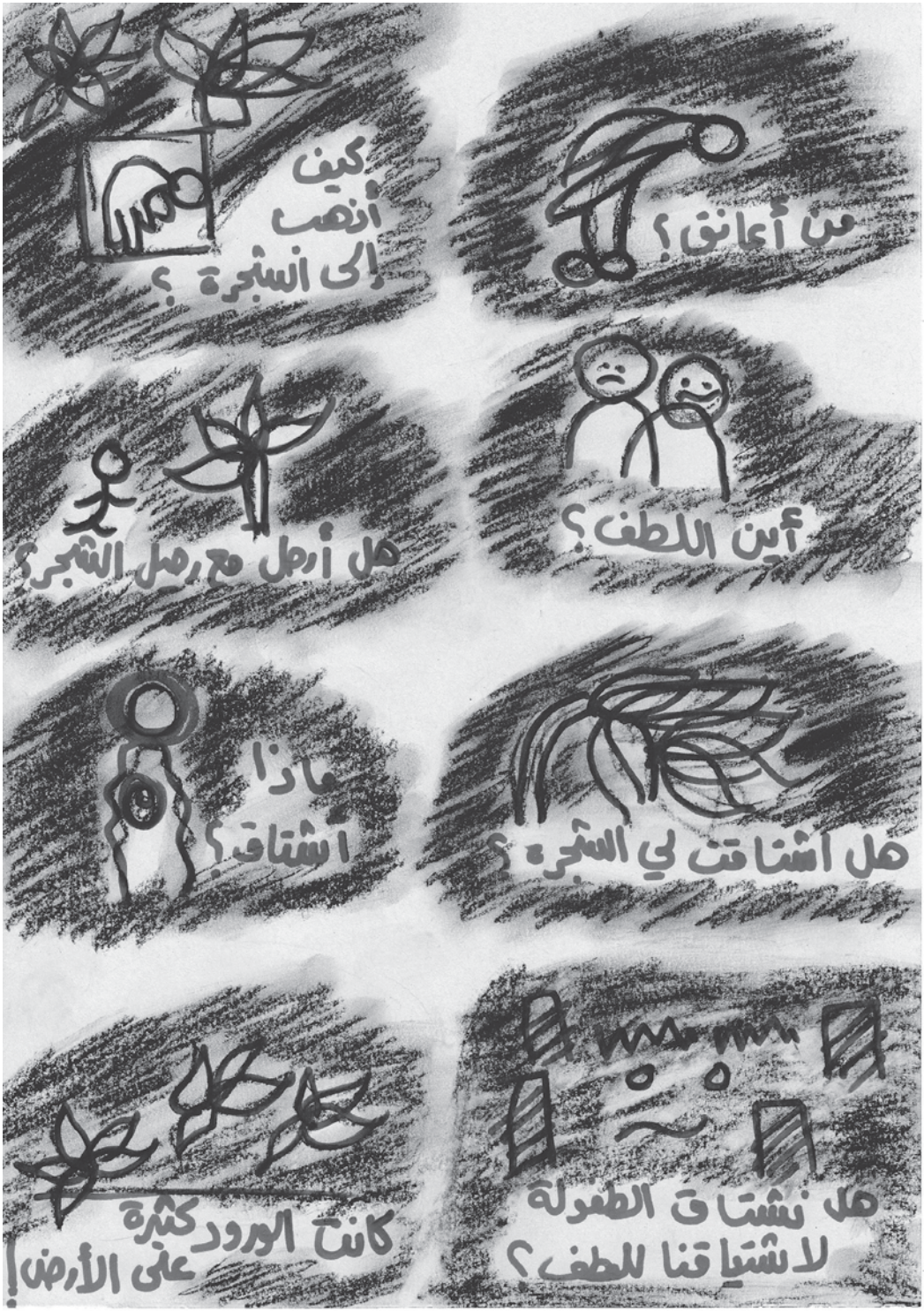
من أعانق؟
كيف أنصب
أرجوحة إلى الشجرة؟
أين اللطف؟
هل أرجل مع رجل الشجرة؟
هل أشتاقت لي الشجرة؟
عادا
أشتاق؟
هل تشتاق الطفولة
لاشتياقنا للطف؟
كانت الورود كثيرة
على الأرض!

هالأيام، ما بفكر بشي

غير الأكل

زود
الكتاب
الحلو

مرّات، الأكل بيعطيني
سعادة

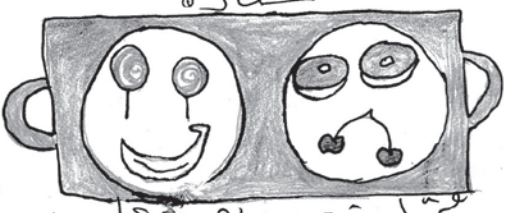

مرّات، بوجعلي
بطني

الإكتئاب يلتهمني
و أنا ألتهمه

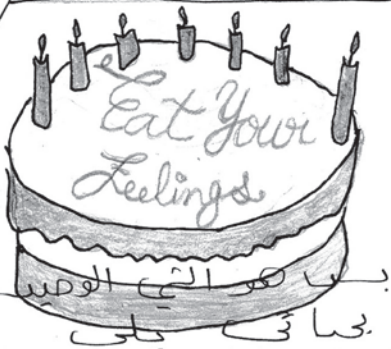

بس هو اللي الوحيد
بحياتي يلي
بيعطيني أي
نوع من المشاعر

وزني
صحتي النفسية

أنا هلق
بأثقل وقت
في حياتي

أين حدسي ؟

مهاد حيدر

في رحلاتي الأكثر عمقًا ، كانت الحشائش
هي الوسيط ما بيني وبين الشعور بالنمو
أن أذهب في العمق كلّه

تقول كلاريسا بنكولا :
الحلم بالوحش المغتصب
إشارة من أعماقنا تدفعنا
نحن النساء للوثب

الوحش الأسود كلّ ليلة يخنقني، صهيم بحجم بناء شاهق في مدينة وكنت صغيرة جدًا أو هكذا يريدني...

الأرانب كانت جميعها في عقلي تقفز، القرود، الكنغر حتى الصراصير المقيتة...

عليّ الإنتباه! يجب أن أقفز

بومة تحلّق أرشقها بالحجارة، لست حكيمة بما يكفي أين حدسي؟

كلب أعلى التل يمنعني من السقوط، أستطيع أن أشمّ رائحة الخطر سأنام وأترك حدسي مشتعل

أيتها الذئبة ما الذي عليّ فعله؟

ستي و الأرض و الشمس

سهيلة شربجي

بتذكّر أوّل جنازة رحت عليها
لمّا توفّت ستها لأمّي (أمّها لستي)
علّمتها لما أنو تقسم الخبزة بإيديها التنين
لتحنا للخبزة أنو بتحبها و بتراعيها و بتحترمها
ما ذكرت هالشي مرّة وحدة قدّامي
بس أنا بفكّر بالموضوع و بفكّر بستها لأمّي كل مرة بتاكل خبز
كانت ستّي تشتغل بالأرض من لمّا كانت صغيرة
بعدين صارت تشتغل بالبيت : اشتغلت بخمس بيت
بيت أهله جدّي ، بيت طين كبير
بيت الباطون يلي انتقلت عليه بالشام ، بيت هلو
شقّة صغيرة بالبناية يلي طلعت محل البيت الحلو يلي هدموه
الشمس ما بتحلّي غرفة القعدة بالشقة
متل ما كانت تتشمس بأرض الديار بالبيت الحلو
و متل ما كانت تحرق راسها و بإيديها عالأرض يلي زرعتها
كتير بزعل و بحس بالخيانة ، إنّو هيك صار
بستي و بالأرض و بالشمس
صلّق عندها عشرات النباتات يلي بتعتني فيها بالبيت
بس بغرفة القعدة ، ما في فيها شجرة صغيرة بلاستيك
و ورود بلاستيك محطوطين بفاز !.

الأرض والإنسان
الإنسان والأرض
Rojina Khalek

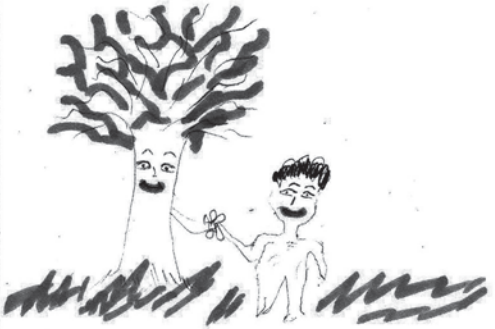

من أقدم العلاقات التي نشأت هي علاقة الانسان بالأرض وأقدس ارتباط ارتباطهما.

طوّر الإنسان زراعات متنوعة واستغل موارد الأرض بالصناعات فتوطدت علاقتهما وشعر بانتمائه إليها وانسجامه معها وحبه لها.

إن ما نتناوله يؤثر على نفوسنا وأجسادنا وسلوكاتنا. ومع ظاهرة الأطعمة المصنعة والسريعة التي يسوّقها النظام الاقتصادي الحديث نرى تناقر ابيننا وبين الأرض وعدم الشعور بالإنتماء لها والانسجام معها، وبالتالي تشوّه بأفكارنا وصحتنا وعدم التوازن مع طبيعتنا.

وكبرنا

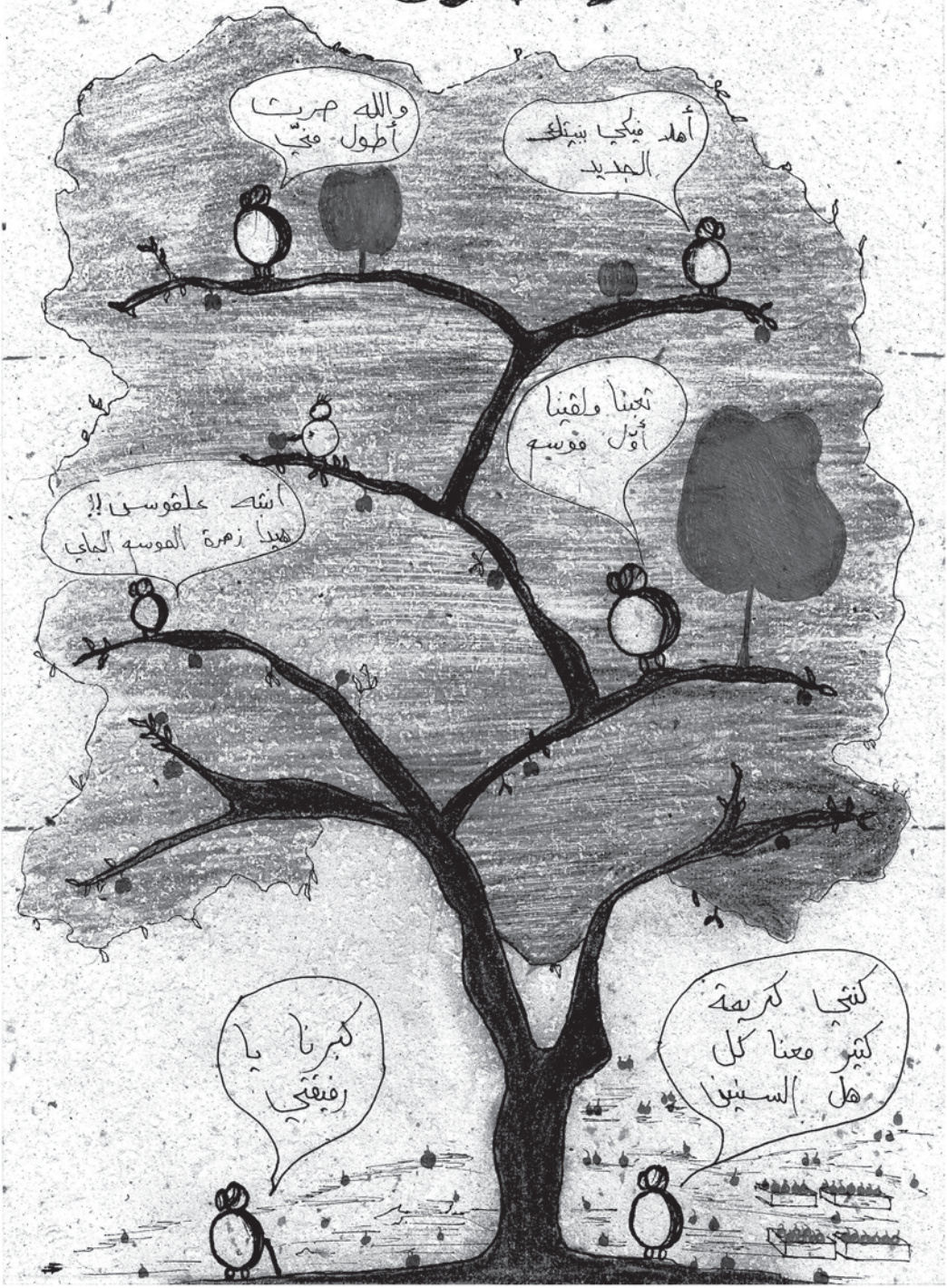
والله صرت أطول منّي
أهلا فيكي ببيتك الجديد
ثبتنا ولقينا أول قوسم
اشفيه علقوسى !! هيدا زمرة الموسم الجاي
كبرنا يا رفيقتي
كتير كريمة كتير معنا كل هل السنين

بحب
هالبلد!
بحب
هالبلد!
بكره
هالبلد!
بكره
هالبلد!

"Ever since my first memories, I've had a contradictory relationship with my land. I remember going to Harissa, Sawfar, Bchamoun and taking in the beautiful nature and enjoying the crisp fresh air. "بلبنان بتروح عالجبل بعدين بتنزل عالبحر" This sentence has been engraved in my brain though I stopped romanticising reality long ago. The وجع that this country has caused is unsurmountable. I am privileged to have had food, shelter and a support system throughout my life, I've been able to travel this land and experience the beauty of the countless regions that are part of it, this brought me belonging. Others had to dig through trash to find something to eat, others died because of their belief in the endless political parties, others are still brainwashed, still following blindly with no critical bone in their bodies, others have died and suffered while our government blew us up.
Our government blew us up!
The good moments will always accompany me but the hurt is still overwhelming. I need to escape my abuser. Especially that horrific preventable explosion on the 4th of august, my need to leave this land was solidified, my need to find a new better land that respects human rights and human life. This land has been my home for 25 years but I now need to move out, and move on to a better future."

محاولات سيطرة

بس كنت أصغر ما كنت حب أطبخ . كنت شوفو نشاط لخدمة رجال العيلة (والأبوية بس صرت أعرف هالمفهوم). كمان كنت مارس رقابة شديدة على جسمي وأكلي ... يمكن كل هالممارسات كانت محاولات للشعور بالسيطرة .

- ريما ريما

بس فليت من بيت أهلي تحسنت علاقتي مع جسمي ومع الأكل ... صار فيها حب .

هلئ عندي روتين كتير بحبو . بلفّ سيجارة . بشغّل موسيقى . وبشرب .
وأحلى شي عندي هو شارك الأكل مع الأشخاص اللي بحبهم .

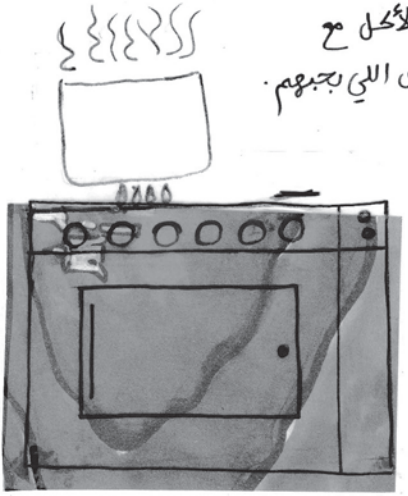

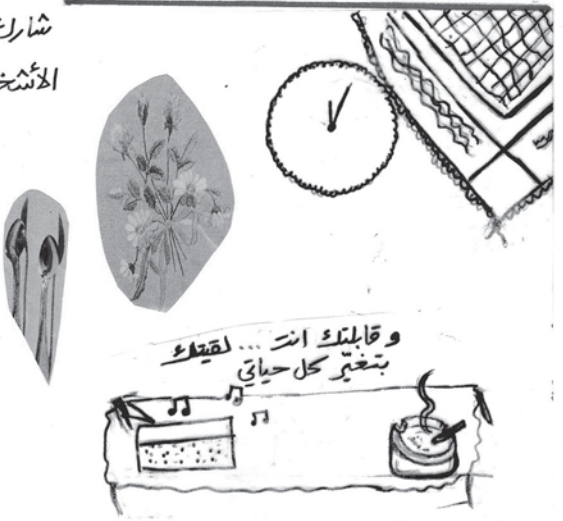

زنبق

احكي للعالم احكي له
عن بيت بقي قنديله
عن زنبقة نمت فعاشت
عن حقلٍ وشجرٍ وماء
عن شاة ترعى بأمان
دون قيود الاستهلاكية
عن عجنةِ خبزها أهل البيت
دون أدوارِ نمطية

سنكون يوماً ما... سنكون
سنكون وما أجمل ما سنكون

رهام قنوت رفاعي

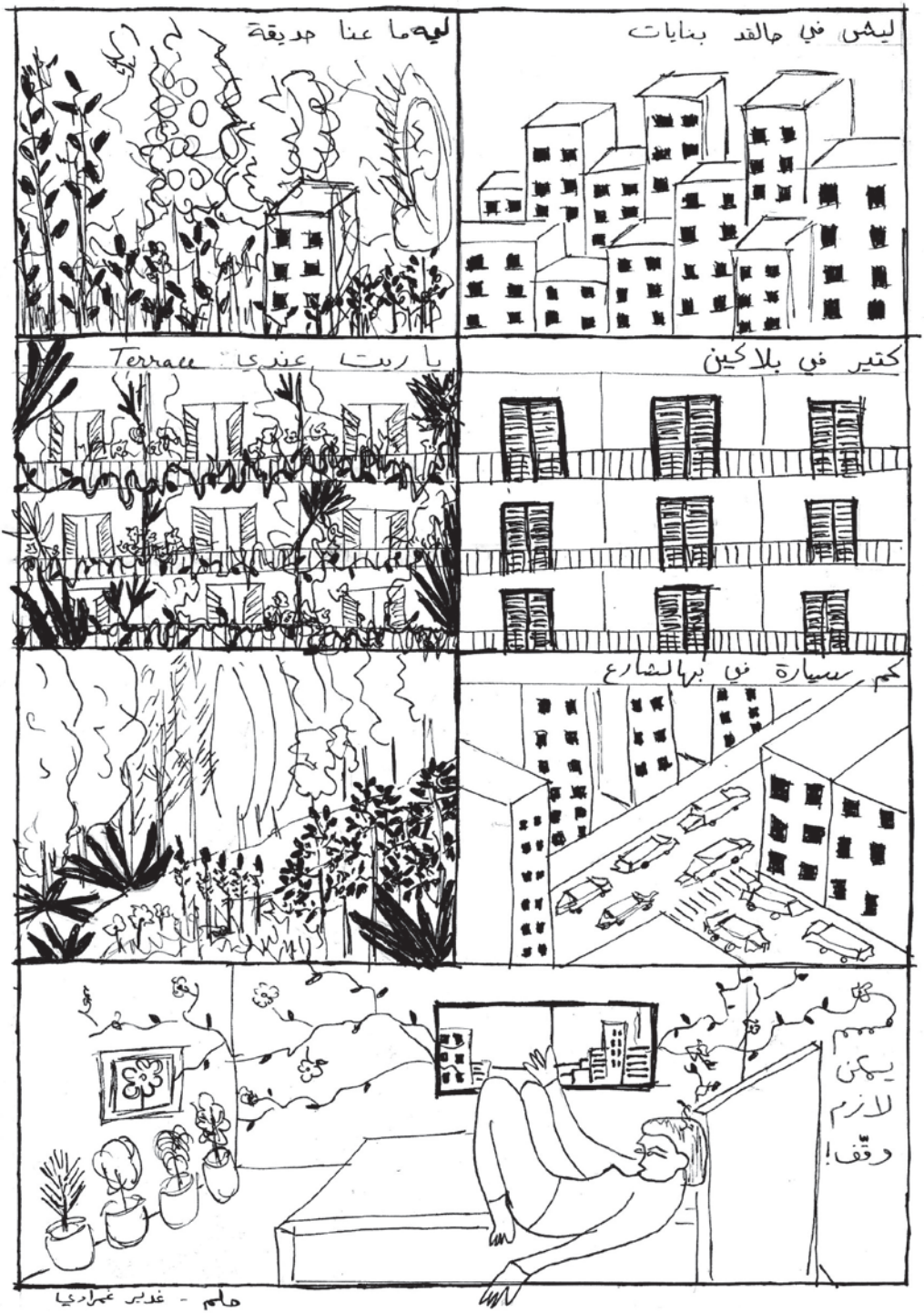

هالم - غدير عمراني

THE KNOWLEDGE
WORKSHOP

ورشة المعارف
THE KNOWLEDGE
WORKSHOP